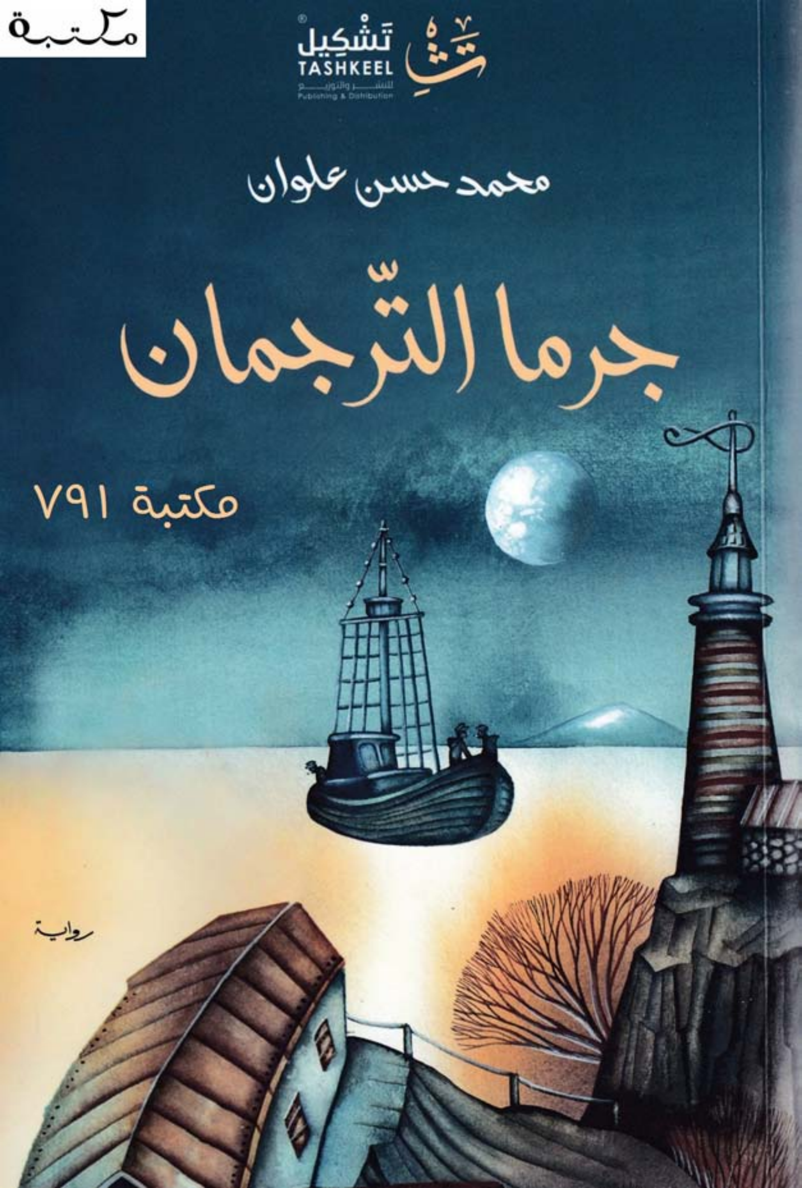

مكتبة
تَشْكِيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution
محمد حسن علوان
جرما التّرجمان
مكتبة ٧٩١
رواية

مكتبة | 791
سُر مَن قرأ

جرما التّرجمان

محمد حسن علوان

ⓒشركة دار تشكيل للنشر والتوزيع ، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

علوان ، محمد حسن
جرما الترجمان. / محمد حسن علوان .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
٣٦٠ ص ؛ ..سم

ردمك: ٨-٢٢-٨٣١٧-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية - السعودية أ.العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٤٢/٢٤٦٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢٤٦٧
ردمك: ٨-٢٢-٨٣١٧-٦٠٣-٩٧٨

تشكيل®
TASHKEEL
للنشـــر والتوزيـــع
Publishing & Distribution

Tashkeell

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٠٢٢ ١ ١٠

جرما التّرجمان

مكتبة | 791
سُر مَن قرأ

محمد حسن علوان

تَشْكِيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

٢٠٢١

«أما أنا فأقول لكم:
أحبوا أعداءكم
لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فقط..
فأيُّ فضلٍ لكم؟!»

متّى ٥:٤٥

مكتبة
t.me/t_pdf

قبرص

١

ألفيته واقفاً لدى باب الدير مرتدياً عباءة من الصوف فوق ثوبه رغم حرارة هذا اليوم في الماغوصة. يظهر الخيط الجلدي الحامل لصليبه حول عنقه في حين يختفي الصليب نفسه خلف الثياب وكأنه لم يزل في حلب. كلّم راهبين خرجا ليجلبا الماء فسمعت صوته من داخل الدير وخرجت وأنا أكذب أذني. اشتبكت كلماته الموجهة للراهبين مع كلماته لي حين رآني فقال:

- قالوا إنه هنا.. أوه! أنت هنا كما قالوا. يالك من عابث!

واتجه إليّ وهو ينقّل نظراته بيننا وعلى فمه ابتسامة لا معنى لها. عانقني عناق اللذين افترقا منذ يومين فقط إذ انشغل بتأمل ما حوله بعينين فاض منهما الفضول ثم انتبه على ما يبدو أنه لم يرني منذ سنوات فعاد ليعانقني عناقاً أطول قليلاً من سابقه.

ما رأيته منذ غادرت حلب وشاربي بعد طفيف، والحق أني لم أر أحداً منها منذ فارقت آخر رفيقٍ في اليوم الذي رست فيه سفينتنا، وداهمنا ازدحام الميناء، ولم نبال بأن نلقي على بعضنا كلمات الوداع.

ثم قطع الفيكونت البندقيّ خط السفن بين اللاذقية والماغوصة فلم يعد يفد إلينا من حلب سوى الذين يملكون القدرة على دفع أجرة سفينة تغامر بكسر قوانين البندقيّة، وكنا نعرف أن إحداها قد فعلت إذا رأينا كومة من البضاعة المصادرة تباع في مزادٍ على رصيف الميناء بأقلّ من أسعار السوق، فيغتنم القُمُّص بولس الفرصة ويبعث بعضنا لنشتري للدير شموعاً وفرشاً وخيوطاً وأوراقاً وأياً مما يمكن أن نستفيد منه في ديرنا الصغير.

ليس لدى حلب الكثير مما تبيعه لقبرص على أي حال. هكذا تركتها وهكذا أسمع عنها من أفواه التجار الذين يثرثرون في حوانيتهم المصطفة بطول رصيف الميناء، ولذلك طالت إقامتي في هذه الجزيرة الجميلة التي غدت لي وطناً وحياةً وربما قبراً إذا تسلم الرب روحي بسلام وأودعها مملكته السماوية العالية.

ربما من أجل هذا الشعور المتراكم في قلبي بالاستقرار بدا لي وجه سيمون الثرثار هذا الصباح مثل نكزةٍ على الكتف لنائمٍ تحت شجرة، وصوته وكلماته المبعثرة من حولي تأتيني من بئر عميقة.

- انظر إليك! ما أسمنك.. حياة الرهبان هاه. ماذا تفعل هنا. ماذا تفعل؟

- سيمون؟ ما الذي جاء بك؟

ابتعد قليلاً ثم دار على نفسه نصف دورة محاولاً أن يسبغ على إجابته تأثيراً أكبر:

- حلب يغطيها الجراد. هل سمعت؟ جراد في كل مكان. في ثيابي.. في ثيابي حتى وأنا نائم.

.. وكأن شيئاً لم يتغير فيه سوى بياض قليل انتشر في فوديه. طالت لحيته قليلاً وعفّرها السفر. ما زال يهز رأسه مع كل كلمة كدجاجة. تتزاحم الكلمات في فمه فيتجمع ريق قليل عند طرفي شفتيه، يستخدم قدميه أثناء الكلام أكثر من يديه، ومع كل عبارة يلتفت بلا إرادة إلى اليمين فارّاً من وجه محدثه إلى وجه آخر غير موجود. لاحقت ما غيّر الدهر من وجهه، ولوهلة فكرت إذا ما لاحظ في وجهي ما غيّره الدهر أيضاً، وقد فعل، ومدّ يده المتسخة يداعب شعرات لحيتي:

- صارت لك لحية. لم تكن ذا لحية. لماذا أطلقت لحيتك؟ أتدري..

.. ثم يقطع جملته بضحكة بدا كأنها فاجأته فشرق بريقه وسعل، ثم أكمل:

- .. ذوو اللحى الطويلة ينفضونها مثلما يفعلون بفرشهم قبل النوم. جراد! قلت لك، جراد في كل ركن.

وضرب كفاً بكف وضحك، وقدماه تحيدان عن موطئيهما فيدور حول نفسه وهو يتصنّع ضحكات عالية، في حين تلتقط عيناه تفاصيل ما حوله بلا توقف.

توقف عن الضحك أخيراً. التقت أعيننا في صمت. تجمعت في ذهني أسئلة قلقة. جذبت ذراعه ومشينا باتجاه الدير وهو يبتسم ابتسامةً واسعة كمن حقق نصراً في حياته ويثرثر:

- الدير الذي قبلكم خاوٍ، أين ذهبوا؟ طرقت الباب وفتحته وتجولت في المكان. أين تظنهم ذهبوا؟ هل يتركون الدير جميعاً هكذا في العادة؟ هذا غريب. لو كنت لصاً لكانت فرصة مواتية.. ولكن ماذا أسرق من دير رهبان؟ كلهم يتحدث اليونانية هنا. أنا أعرف القليل من اليونانية أيضاً.

- كانوا يعملون في الحقل. كلنا نعمل في الحقول نهاراً.

- ولكنك ما زلت هنا. ألا تبكرون إلى الحقل؟

- حقلنا قريبٌ ونملكه. نذهب متى شئنا يا سيمون. لتوك وصلت وتطرح كل هذه الأسئلة! أنا الذي أريد أن أسأل الآن..

تجاهل سيمون ذلك واستطرد في كلامه:

- أتعلم.. كل الفلاحين في حلب سيمسون بلا قوتٍ في الشتاء القادم. تجمعوا عند بيت النائب فوعدهم أن يجلب لهم أقواتاً من حمص، ولكن الجراد قد يبلغ حمص أيضاً، وعندها ربما يجلبون أقواتاً من دمشق. أو عكا. أو ربما القاهرة. هل تظن قايتباي يبعث لهم أقواتاً؟

- لم لا؟

- ماذا يفعل سلطانكم هنا إذا جاء الجراد؟ هه..

لم ينتظر إجابة سؤالي بل أردف:

- .. أو.. أوه يالغبائي! من أين يأتيكم الجراد وأنتم في البحر. كم أنتم محظوظون بسلطانكم.

- وما شأن السلطان بالجراد؟

اتسعت عيناه وهو يفكر في ما قال. ثم ضحك بصوت عال وهو يقول:

- أوه أكيد لا دخل له. أهو الذي جعلكم في البحر مثلاً؟ لا لا.. أقصد أن سلطانكم يقيم بين ظهرانيكم. لا يصيبكم شيء إلا أصابه معكم. نحن في حلب لا ندري من لنا إذا أصابتنا الحوادث، أتذكر إفرام؟ إفرام الذي خطفوا ابنته. لم تعد حتى الآن لعلمك. كنا في الفسحة القصيرة بعد القداس. أتعلم ماذا قال؟ قال شيئاً أضحكنا جميعاً: «إذا صرخت بصوت عالٍ في قمة القلعة فسوف يسمعك السلطان الذي في إسطنبول قبل أن يسمعك السلطان الذي في القاهرة».

تذكرت إفرام ذي البطن الذي لا يعدل حجمه شيء. كان أبي يقول له دائماً «في قحط أو وفر، بطنك لا يتغير..»، وكان إفرام يطبطب على بطنه بفخر ويقول «إني أخزن في الصيف مئونة الشتاء»، ويجيب أبي «هناك ما يكفيك إلى يوم القيامة». أما ابنته فلم يخطفها أحد. بل رحلت مع حاجّ أرناؤوطي مرّ بحلب ووقعا في الحب. الجميع يعرف هذا إلا أبوها الذي ظلّ يرى ذلك اختطافاً، فاشتكى إلى نائب السلطنة ورفع أمره إلى المطران الذي لم يحكم في قضية منذ سنوات، وطلب من أهل الحيّ أن يشهدوا أن الأرناؤوطي كان لاتينياً منشقاً. فحكم القاضي عليه حكماً سريعاً يقضي بأن يعيد ابنة إفرام إلى أبيها، ولم تعد.

وجه سيمون وكلامه يذكراني بشائعات حلب وأحاديث بيوتها المملة. لوهلة تخيلت دروبها التي مشيت فيها حافياً وناعلاً فلم أشعر

بأي حنين. مذ تركتها وكل يوم يمرّ بي أكثر أنساً من أيامي كلها هناك. صحيح أن عليّ أن أعمل في الحقل مع البقية، وأن نجمع المحصول ونزنه عند مخازن الملك ونأخذ منه ما يكفينا مع بعض النقود مقابل غلتنا، ولكن ثمة شيء من الراحة لم أذق مثلها قبل في حلب التي تركتها وأشباحها أكثر من أهلها.

دخلنا الدير لنواجه وجوه بقية الرهبان التي ما زال يعلوها خدر النوم. نظروا إليه باستغراب في انتظار أن يعرف بنفسه في حين استمر هو في حديثه غير معنيٍّ بوجودهم رغم أنه يحدق إلى وجوههم بأريحية:

- هل تعلم يا جرمانوس أن إفرام لم يكن يمزح؟ يقولون إن عدد جواسيس الترك في حلب يفوق عدد موظفي النائب وكتبته الذين ينقص عددهم يوماً بعد يوم، والناس في حلب صاروا قلة. أغلبهم نزح جهة الضواحي. يزرعون. حتى العوائل التي لم تكن تزرع من قبل أصبحت تزرع، ولكن الجراد.. الجراد فظيع..

وقفت في منتصف الردهة المؤدية إلى حجرة الصلاة وقلت لرفاقي:

- هذا سيمون. من حيّنا في حلب.

وقف صامتاً يتأمل الوجوه التي حوله. نفر بؤبؤ عينه الأيمن قليلاً وهو ينقّل بصره في الوجوه التي حيته بغمغمات خفيفة، وبدا للمرة الأولى منذ وصل وكأنه لا يعرف ماذا يفعل حتى ارتفع صوت القمص بولس عالياً وهو يقول:

- مرحباً بك يا أخانا سيمون. لا بد أن رحلتك كانت طويلة ومتعبة.

ثم عانقه كمن يعرفه منذ سنوات، وهذا ما يفعله بكل سريانيّ يحلّ علينا ضيفاً، وما فعله بي أيضاً في ذلك اليوم البعيد الذي دخلت في الدير أول مرة. كان عناقه لي مؤثراً حتى دمعت عيني ووجب قلبي. أما سيمون فنظر إليّ باستخفاف وهو بين ذراعي القمص بولس مستحثاً مني ضحكة صبيانية على حرارة العناق. همس لي وهو ما يزال بين ذراعيه:

- إنهم سريان!

أجبته بصوتٍ عال لأتفادى حرج أن نتهامس في حضرة رفاقي:

- إنه دير سريان يا سيمون.

شدّ القمص بولس على كتفيه وهو يقول له:

- أنت جائع حتماً. سيطعمك جرمانوس من عطاء ربنا.

٢

خلوت بسيمون أخيراً في مخزن الطعام. سألته وأنا أناوله رغيفاً:

- أنت لم تخبرني حتى الآن ما الذي جاء بك يا سيمون؟

مد ذراعه بطولها مشيراً بسبابته إلى خارج الدير وقال:

- السفينة. السفينة يا جرما جاءت بي وستعود بنا معاً.

توقفت يدي في قلب وعاء الزبيب الذي أغرف لسيمون منه، والتفت إليه هاتفاً:

- تعود بنا؟ لماذا؟ هل حلّ بأبي مكروه؟

صمت سيمون صمتاً مريباً فسَرَتْ في جسدي رعدة. استبقتُ كلماته وتخيلت شفتيه تنبجسان فعلاً عن عبارة مقيتة تنبئ عن مرض أو موت. أبي في أواخر عمره وهذه الكلمات من فم سيمون ممكنة جداً ومحتملة. ربما مات. آخر رسالة وصلت إليّ منه قبل عام ونصف أوصلها إليّ مسافرٌ كاد أن يتخلص منها بعد أن شقّ عليه البحث عني. أيكون أبي قد مات فعلاً في عام ونصف؟ مات هرماً أو مرضاً. أو تعثر وسقط. أو ربما ضربه أحد الذين ضاقوا ذرعاً بلسانه السليط.

قطع سيمون هواجسي وقال:

- أبوك بخير يا جرما. أتعلم؟ فكرت لوهلة إذا ما كان بخير أو لا. أظنه كذلك. ليس عندكم زرع فلا أظن الجراد يؤذيكم، ولكن الأسواق

ستخلو من بضائعها قريباً. ماذا سيأكل أبوك وزوجته المسكينة؟ ولكن أتعلم؟ أبوك لا يأكل الكثير على أي حال.

t.me/t_pdf

شعرت بالحنق. صحت به:

- سيمون. لماذا جئت؟ أخبرني!

عقد حاجبيه ونظر إليّ معاتباً على صياحي به وقال:

- جئت لأن أباك أرسلني لأعود بك إلى حلب.

- ولماذا؟

- يقول إن رسائله لا تصلك. أعطاني ثلاثين نُقرة وحماراً وأجرة سفينة.

- ولكن لماذا يريدني أن أعود؟

حدق إلى وجهي بملامح جامدة، ثم هز كتفيه وهو يقضم رغيف الخبز بهدوء ويقول:

- لم يخبرني!

وضعت يدي على كتفه وضغطت عليها لعله يوليني اهتماماً أكبر وقلت وأنا أجز على أسناني:

- أرسلك حتى هنا براً وبحراً لتقول لي أن أعود فقط. دون أن يخبرك سبباً؟ بعد سنوات من مقامي هنا يريدني أن أعود بلا سبب؟

- بالتأكيد عنده سبب يا جرما، وبالتأكيد سوف يخبرك بالسبب عندما تلقاه. ما بك تجزّ على أسنانك كأنك امرأة توشك أن تلد؟

- وتريدني أن أسافر براً وبحراً إلى حلب بعد كل هذه السنوات لأسمع منه إجابة كان بوسعه أن يحمّلها إياك بكل بساطة؟

ألقى بحبة من الزبيب في فمه وقال وهو يمضغها ببطء:

– أنا لا أريدك أن تسافر. هو الذي يريد! ألا تسمعني جيداً يا جرما؟

بدا واضحاً أن إجاباته لن تفيدني بشيء. يقرّ بالواضحات فقط مما يزيد حنقي، ولكن ماذا كنت أتوقع من سيمون؟ الحق أني أوجه إليه أسئلتي لأبي وأتوقع منه إجابتها. لا أظنه اهتم بأن يسأل أبي عن سبب طلبه لي. أو ربما سأله ورفض أبي أن يجيبه. أو ربما أجابه فنسي في الطريق. أو ربما أنه يجد الأمر مسلياً أن أقطّر من فمه الكلمات فلا يعطيني ما يطفئ حيرتي.

راودتني فكرة أن أطرد سيمون وأنسى ما حدث وكأنه لم يأت ولم يدخل من هذا الباب، وسأذهب إلى الحقل وسآكل مع الرهبان وأقرأ في كتبي وأنام في فراشي بعد الصلاة الأخيرة وأكون قد نجحت في منع حدثٍ غير متوقع من تعكير الصفو الذي أعيشه في هذا الدير. كل ما أحتاج إليه هو أن أقول لسيمون بهدوء وصرامة: «اخرج من هنا ولا تعد أبداً أيها التعس!». ولكني بدلاً من ذلك وجدتني أقول له بلا وعي:

– نرحل. فلنرحل إذن عندما...

انتفض سيمون وقاطعني فجأة:

– نرحل الآن؟ لا يا رجل. للتو وصلت. أنا متعب يا جرما وظهري لا يعتدل إلا بطقطقةٍ فظيعة. أريد أن أنام.

وبالفعل، غط في نومٍ عميق فور غروب الشمس. تقوس ظهره

وضم ركبتيه جهة بطنه وبدت ملامحه وهو نائم وكأنه في نعيمٍ لا يتحقق له في يقظته. أسندت ظهري على الجدار وبدا وكأن النوم سيكون عصياً هذه الليلة. ما الذي يحدث في حلب يا ترى؟ هل هي حربٌ أخرى؟ ماذا يريد أبي؟ هل نفدت عافيته وصار في حاجة لابنه الوحيد؟ كيف قررت أن أفارق هذا الدير دون أن أقضي ليلة أو ليلتين لأفكر في الأمر؟ أتراني مللت؟

تناهى إلى سمعي صوت القمص يتلو مزمور المساء بصوت عال كعادته ليذكرنا به قبل أن نخلد إلى النوم. «أشكرك لأنك لا تنعس ولا تنام. لأنك أنت حافظي. تسهر على حمايتي من كل شر وشبه شر». رددت المزمور معه واضطجعت مستدعياً النوم، وحاولت أن أتخيل أشياء أقل وطأة من تلك التي تخاتل تفكيري. لعله رجل مسنّ أحب أن يرى ابنه فحسب. لا مرض ولا موت. بضعة أشهر في حلب ثم أعود لأصحابي. الأمر لا يستحق كل هذا القلق.

في الصباح الباكر استيقظت على جلبة غير معتادة. لم أجد سيمون في فراشه فشعرت أن لاستيقاظه المبكر علاقة بهذه الجلبة. ارتديت ثيابي على عجل وخرجت لأجد اثنين من أصحابي متبرمين ويتبادلان كلاماً لا أسمعه. صاح أحدهما فور رؤيته لي:

- انظر ماذا فعل صاحبك!

- ماذا فعل؟

- حلب العنزة وشرب حليبها وحده!

خرجت من الدير لأجد سيمون جالساً على الأرض وإلى جواره دلو الحليب فارغاً. قلت له:

- ماذا فعلت يا سيمون؟

لوح بيده في غضب وهو يقول:

- إنهم غريبو الأطوار! إنها عنزة. حلب أسوأ حالاً من قبرص، ولكنا لا نقلب الدنيا عندما نحلب عنزة.

- لقد اعتدنا أن نقتسم الحليب كل صباح. لماذا شربته وحدك؟ من أذن لك؟

- وأي عنزة هذه التي سيرويكم ضرعها كلكم!

- إنها عادتنا في هذا الدير يا سيمون. نبدأ يومنا باقتسام الحليب والطعام. لا شبعاً ولا رياً. ولكن حباً وألفة.

- وهل ينقلب يومكم كرهاً وعداوة لأني شربت بعض الحليب؟

- إنها عنزتنا وليست عنزتك!

- ستحلبونها غداً!

لا جدوى من الجدل مع سيمون، ومن الأنفع لي أن أعتاده خلال الأيام التي سيقضيها معنا في الدير. جلست إلى جواره وربتّ على كتفه وقلت:

- لا بأس. هل نمت جيداً؟

لم يجب. قام من مكانه وكأنه استمرأ حالة الغضب التي انتابته ولا يريد لها أن تنقشع. صاح بافتعال:

- كأني ذبحتها! ربما لو أني ذبحتها لكان سخطهم معقولاً.
- انتهت المشكلة يا سيمون. لا داعي للغضب.

ركل حصاة صغيرة فطارت باتجاه الباب مع بعض التراب. ابتسمت وأنا أرى تصرفه الطفوليّ وأتذكر كم كنا نفعل به الأفاعيل. مضحكنا الذي يحبه كل صغار الحي لأنه الكبير الوحيد الذي يعاملنا كأنداد لا كأطفال. ربما أن عقله الضئيل لم يكن يدرك الفرق. كبرنا جميعاً وعاد هو طفلاً يركل الحصى ويفتعل الغضب. كنا نقول في الحيّ إن أباه ضربه على رأسه حتى أن بقعاً منه لم يعد ينبت فيها الشعر فظل يغطيها بما طال من شعر رأسه الذي بقي بعد أن يدهنه بالزيت فيبدو رأسه مثل حقلٍ لا يتعهده أحد. ثم مات أبوه فسارع إلى بيع البيت ذي المفتاح الخشبي الذي أذهب نصف عقله، وأرسل لأخواته الثلاث نصيبهم منه واشترى ببقية المال معصرة زيت بعد أن قرأ مرسوم السلطان الذي نُقش على باب الجامع آنذاك.

«لما كان بتاريخ سادس شهر ربيع الأول سنة ٨٦٥ رسم الكريم العالي المولوي الملكي المخدومي السيفي -كافل المملكة الحلبية الشريفة المحروسة- بإبطال مكس الزيت من قرى عزاز وتوابعها وملعون ابن ملعون من يجدده إلى يوم الدين».

ولكن سيمون لم يعصر شيئاً فهو لا يجيد هذه الصنعة. رغم أنه حاول لبعض الوقت أن يتعلمها ولكنه أفسد أكثر مما أصلح. فيئس من ذلك واتخذ المعصرة التي اشتراها بيتاً. ثم صار أصحاب الحوانيت

يدفعون له مقابل حراسته لحوانيتهم إذا جنّ الليل. ثم صاروا يدبغون الجلود ويصبغونها في معصرته مقابل أجر قليل. ثم صار يقتات على قضاء حاجيات الناس حاطباً أو راعياً أو حارساً أو أي مهنة أخرى كان آخرها رسولاً إلى قبرص كما فعل مع أبي.

٣

قبل أن يقف سيمون أمام باب الدير بسنوات كنتُ نائماً في فراشي في بيتنا الصغير الذي بُني في مساحة ضيقة بين بيتين في حي المسيحيين بحلب. انتصف النهار ولم أترك فراشي لعلمي أن ليس في السوق ما يباع ويشترى لأحمله. لا قوافل تدخل من الأبواب ولا أناس ينفقون نقودهم القليلة منذ أخذت عصابات التركمان تنهب الضواحي بين حينٍ وآخر. فلجأ الناس إلى أقاربهم داخل السور وتركوا مزارعهم في الخارج بلا حماية. استيقظت أخيراً عندما همس أبي في أذني:

- قم!

فتحت عيناً واحدة ووجدت عينيه أكثر اتساعاً من أي يوم آخر رأيتهما فيه:

- قلت لك قم!
- ماذا؟
- قلت قم الآن، وتعال معي!

ترنحت قليلاً بسبب وقوفي المفاجئ بعد نومٍ عميق. تبعته وأنا أحمل نعليّ بيدي وأنتعلهما على عجل وأحاول فهم ملامح وجهه الجديدة. خليط من الخوف والحذر والعزم، وتشوب ذلك كله مسحة من لامبالاة من اتخذ قراره ولن يتراجع. كلمته مرتين ونحن نمشي ولم

يجبني. لن يقول شيئاً حتى نصل إلى وجهتنا كما يبدو وهو لا يملك وقتاً للجدل، ولم أعرف هذه الوجهة ولكننا في الطريق نحو السوق. خرجنا من حيّ المسيحيين وتجاوزنا ثلاثة أحياء أخرى افترشها اللاجئون من القرى المجاورة تحت خيامٍ رثة من الوبر والعباءات الممزقة. دخلنا السوق وقطعنا نصفه تقريباً قبل أن تتضح لي وجهة أبي، ويالدهشتي، وجدته يدخل حوانيت وكلاء البندقية بثقة وكأنه من أهل الحيّ غير آبهٍ بنظرات الخياطين وحراس الحانات التي تراقبنا بارتياب ونحن نجوز الطرقات بملابسنا المحلية. ثم أعين ثلة من الشمامسة والقساوسة اللاتين مع تلاميذ صغار يرتدون ملابس أوروبية. ثم خدم خان التجار الذي يبدو مدخله بمثل فخامة بيت نائب السلطنة.

بدأت أشعر بالقلق وقد اخترقتني النظرات حتى خلتني عارياً. في حين ظلت نظرات أبي معلقة على الطريق وكأنه لا يكترث بما حوله، وقف أخيراً أمام حانوتٍ واسع عرض صاحبه على عتبته عشرات القطع الصغيرة من الأقمشة التي يفحصها التجار على عجل ويطرحون بعض الأسئلة. دخلنا الحانوت من بابٍ جانبي تُرك موارباً، ثم جزنا باباً آخر إلى مخزن ملحقٍ به. ثم نزلنا عدة درجات، والتحقنا أخيراً برجالٍ يتحلقون حول طاولة مستطيلة عريضة فوقها مزق عديدة من قماش وأوراق ومحابر.

وقف أبي عند مدخل المخزن. يداه مقبوضتان على بعضهما أسفل بطنه وقد مال رأسه قليلاً إلى اليمين كمن يستعدّ لانتظارٍ طويل.

راقبتُ الرجال الخمسة الذين يتحلقون حول الطاولة. ثلاثة حلبيين من تجار القماش في السوق عرفتُ وجوههم، واثنان يبدوان من وراء بحرٍ بعيد. لم يتحدثا فما استطعت تبيّن بلديهما. ملابسهما كملابسنا ولكن حذاءيهما غربيان بالتأكيد بمقدمتيهما المدببتين. يقرأ أحدهما في أوراقٍ أمامه بعضها فوق بعض. أما الثاني فأطرق يتأمل الأرض في تفكيرٍ عميق في حين تبادل الحلبيون الثلاثة كلاماً عن قطع القماش التي أمامهم، ومرروها بينهم، وفركوها بأيديهم، وبدا واضحاً أن صفقةً ما قد عقدت للتو بين هؤلاء التجار الخمسة أو توشك أن تعقد.

ولهنيهةٍ من الزمن لم يلتفت جهتنا أحد حتى أن أبي أمال رأسه إلى الجهة الأخرى. ثم قال التاجر كلاماً لم أفهمه وإن فاحت منه لكنةٌ إيطالية واضحة. أومأ له زميله المطرق فطوى الأخير الأوراق التي أمامه ووقفا استعداداً للخروج. تقدم أبي حتى وقف بينهما فقال الإيطالي بتهلل مصطنع، وخليط ركيك من السريانية والعربية:

- أهلاً. لقد كدت أنسى موعدنا.

لم يجب أبي. بل التفت جهتي وأشار إليّ قائلاً:

- هذا هو.

اقترب الرجل مني مبتسماً وربت على كتفي وقال:

- حسناً حسناً. سيكتب لكما بياجيو الآن. يجب أن أذهب أنا.

استخرج بياجيو من طيات الورق التي أمامه ورقة جديدة نفخ صفحتها بقوة ثم مسحها بلطف، وغمس قلمه في الحبر وهزّه مرتين

لتتساقط القطرات الفائضة، ثم كتب فيها بسطور عريضة وحروف لاتينية كبيرة. غادر الآخر المكان بصحبة اثنين من الحلبيين وظل الثالث يراقبنا قليلاً ثم قال مخاطباً أبي:

- هذا ابنك إذن.

- أجل.

- هل عندك بنين غيره؟

- ابني الوحيد. ليس عندي بنين غيره ولا بنات.

- سيكون بخير. لا تقلق.

ثم ساد الصمت مرة أخرى وبلغت حيرتي مبلغها. ما الذي يكتبه هذا الرجل؟ ولماذا يطمئن هذا التاجر أبي بشأني؟ لم أطق صبراً فلمست ذراع أبي لينظر جهتي ونظرت إليه مستفسراً. لم يبد مديناً لي بأي تفسير فقلت:

- ماذا يحدث؟ ماذا تريد مني؟

همس أبي في أذني قائلاً:

- ستذهب إلى قبرص.

- قبرص؟! لماذا؟

- لأنك لو لم تذهب الآن سيأخذك النائب الجديد إلى الحرب.

استقبلت حلب نائبها الجديد قبل أسابيع قليلة ولم يحفل بذلك أحد. اعتاد الناس تغيير نواب السلطنة في فترات قصيرة حتى لم يعد بوسعنا تذكّر أسمائهم، ولكن هذا الأخير جاء على رأس تجريدة

عسكرية ثانية من مصر بعد أن انكسرت الأولى قبل أشهر ومزقها التركمان، وتوزع جنودها الجرحى في خيم محيطة بالمارستان الذي امتلأ عن آخره وتجمع حولهم الصبية ليشاهدوا مقطوعي الأيدي والأرجل.

لا أدري لماذا خطرت هذه الصورة المخيفة في رأسي وأنا أسأل أبي بحدة:

- ولماذا يأخذني؟ أنا مسيحي.
- لم يعد يهمهم الأمر كما يبدو.

وهنا تدخل التاجر الحلبيّ في حوارنا الذي يبدو أنه سمعه جيداً وقال:

- أمر السلطان واضح. كل فتى قادر على الحرب. لا يفرق بين مسلم ولا نصراني.

ثم أضاف ضاحكاً في موقف لا يستدعي الضحك:

- وأنتم لا ترضون أن يحارب أبناؤنا نحن المسلمون وحدهم، في حين أنتم داخل الأسوار. أليس كذلك؟

أجاب أبي ببرود ودون أن ينظر جهته:

- حيّنا خارج السور إن كنت تعلم، ولا أظن أحداً من أبنائك سيقاتل على أي حال.
- بالطبع بالطبع. ماذا لدى أبنائي ليقدموه في ساحة حرب! إنهم أبناء السوق. لا يعرف أحدهم كيف يرمي سهماً. نحن نرى أن أفضل

ما يمكن أن نقدمه لجهود السلطان هو المال، وهذا ما قدمته عن طيب خاطر.

وببروده السابق قال أبي وهو ما زال ينظر إلى الكاتب الذي يملأ الورقة بالحروف اللاتينية:

- .. وأنا لا أملك مائة دينار لأدفعها للسلطان كما فعلت أنت.

بدا على التاجر بعض الخجل وقال:

- ليحفظ الله حلب. هذا جلّ الأمر. لو دخل أولئك التركمان فلن يبقى لي دينار ولا لك.

عندما عدنا إلى البيت، وقفت أمام أبي وأنا أنتظر تفسيراً لكل ما حدث منذ استيقظت من النوم وحتى عدنا إلى البيت. كررت عليه أسئلتي حتى أمسك بكتفيّ وهزهما بقوة وهو يصرخ ويقرب وجهه من وجهي حتى بدت سنّه الوحيدة في فكه السفليّ أكبر مما اعتدتها:

- قبرص آخر معقل للمسيحيين في هذا الجزء الملعون من الأرض. اذهب هناك ولا تعد أبداً. لا تعد حتى لو أخبروك أن جنازتي يجرها حمار أجرب في شوارع حلب!

- ولكنهم لاتينيون!

- ليسوا كلهم، وما أدراك أنت الذي لم تخرج يوماً خارج حلب؟

- لن أذهب إلى أي مكان.

حدّق أبي إلى وجهي بذهول وكأني أعصي أمره لأول مرة ثم رفع يده عنيّ وخلّى سبيلي قائلاً:

- أتمنى أن يجرّك نائب السلطنة إلى الحرب ويذيقك ويلاتها أيها الكلب.

- إنه مصيرٌ معلوم على الأقل.. بدلاً من أن تزجّ بي إلى المجهول.

التفت أبي بعصبية وقال:

- مجهول! أي مجهول؟ المجهول ما يحدث لنا هنا. كل شمسٍ تشرق لا ندري ماذا ستأتي به. أنا أخرجك من أرض ينقص مسيحيوها كل يوم إلى أرض مسيحية خالصة. أي مجهول هذا!

- وكيف سأعيش في هذه الأرض المسيحية؟ هل تعطيني مالاً؟ هل علمتني أي صنعة سوى حمل حاجيات الناس في السوق؟ بم أقتات؟ أين أسكن؟

أدار ظهره لي وابتعد قاصداً غرفته وهو يقول:

- لا يعنيك هذا.

أغلق باب غرفته بعد أن دلف إليها. وقفت في مكاني وأنا أشعر بالدوار من كثرة الأفكار التي تعصف بي. اقتربت من باب غرفته وصحت بصوتٍ عال:

- لن أذهب إلى أي مكان.

مكتبة
t.me/t_pdf

٤

وصلت التجريدة المصرية الثانية بعد يومين وكأن أبي بعث في طلبها. ولسوء الحظ، واجهت مصيراً أسوأ من سابقتها وقد أمعن التركمان في التنكيل بأمراء المماليك وكبارهم فرأيناهم يدخلون حلب في صف واحد كأنه خيط من الدم. عرّاهم التركمان من ملابسهم عنوة وتركوهم يعودون في هذه الحال المهينة. كساهم المارة بما لديهم من عباءات الرجال وخُمُر النساء. ثم لحق بهم نائب دمشق وقد انسلخ جلد وجهه عنه حتى بدا وهو محمولٌ على محفة مثل جثةٍ حمراء الرأس. ثم تبعه نائبا حلب وطرابلس يمشيان لا يركبان، بلا خدم ولا حاشية، في منظر فظيع. تطوع بعض الجنود للمشي وراءهما فقط ليعرف الناس أنهما نائبا السلطنة، وبعد هذا كله حاصر التركمان قلعة درندة واحتلوها، وأمسى الناس في رعبٍ شديد إذ لم يبق بينهم وبين حلب سوى مسيرة يوم.

بعد أيام، طرق بابنا رسول التاجر الجنويّ وقال بعجلة الذي سوف يطرق أبواباً عديدة بعدنا:

– قافلة السيد دنيانو ستخرج مع غروب الشمس من باب قنسرين.

التفتُّ إلى أبي الذي يطلّ من وراء كتفي فأعاد إليّ نظراتي بنظراتٍ

أكثر خواءً منها. انصرف الرسول وأغلقت الباب، فقال أبي كلاماً يحاول أن يتجنب به الشأن الأهم:

- اوه.. يخرجون ليلاً. هذا ذكاء. ليفلتوا من أنظار التركمان.

- هل يمسكون بي؟

- لا لا، أنت في قافلة جنوية. أنت في حماية جنوا.

- فلماذا تخرج القافلة الجنوية ليلاً إذن؟

- حِيطة يا بنيّ حيطة. ماذا يعنيك أنت؟

حرّك يديه معاً وكأنه يحمل شيئاً وهمياً في الهواء وقال:

- هيّا الآن.. جهز متاعك واستعدّ للسفر.

ثم أولاني ظهره ونادى زوجته:

- طابيثا! سوف يرحل جرما ليلاً. أعطيه زاداً.

وتناهى لي صوت طابيثا من الحجرة وهي تقول:

- الليلة؟ ولكني لم أجهز طعاماً.

- تصرفي! سوف يخرج مع غروب الشمس.

خرجت طابيثا من الحجرة ومرت بجواري بجسدها الناحل ووجهها الذي ترتسم عليه ملامح قلقٍ أبدية، وقالت وهي ترد على أبي في حين تنظر في وجهي أنا:

- سأرى إن كان لدى جيراننا بعض الطعام.

ومع غروب الشمس خرجت من بيتنا وأبي معي، ومن وراء كتفي تدلت صرة قماش فيها كل ثيابي، وصرة أخرى فيها خبز وزيت

وفستق. لم أكن قد غادرت حلب قبل ذاك اليوم. حتى عندما حجّ أبي إلى الأرض المقدسة خلفني وراءه لأن أمي كانت مريضة، وعندما عاد كانت قد ماتت بين يدي بعد أن لطخ دم سعالها ثيابي وأنا لا أملك لها نفعاً سوى سقيها متى جفت شفتاها، ودهن رقبتها وصدرها بالزيت الذي أعطاني إياه شمّاس الكنيسة، ومساعدتها على الانتقال من ركن إلى ركن في الحجرة متى استشعرت في أحدها برداً لا تحتمله عظامها الهزيلة.

كان مخيفاً لي في ذلك العمر الصغير أن تموت أمي بين يدي وأبي في غياب. يغلبني النوم إلى جوارها فأستيقظ بين حين وآخر على هذيانها الخافت، وأسمعها وهي تتمتم كلاماً غير مفهوم، حتى اتضح لي بعض الشيء وأنا مضطجع إلى جواري، وأذناي تحاولان لملمة المشتت من الكلام الذي تقوله في لحظاتها الأخيرة: «أيها الرب المجيد. اجعلني شجرة جيدة. تصنع أثماراً جيدة. هبني يا رب الأكاليل التي تهبها لمن عاشوا حياة الفضيلة. خذني يا رب في طريق الصديقين الذين يستظلون بعطفك»، وعندما تصاعدت شهقاتها، وأزبد فمها. دسست وجهي في جنبها، وسمعتها تصرخ «يالله. أشهد ألا إله إلا أنت. قل هو الله أحد»، وهمدت.

عندما اختفت أسوار حلب من ورائي وضاق الطريق الذي عبدته حوافر البغال والحمير شعرت أن السفر يحمل رائحة جلد امرأة مخضب بالزيت. أو أنها رائحة البردة الجلدية التي كساني إياها أبي

قبل أن أغادر في قافلة الجنويين باتجاه اللاذقية. لم يعطني مالاً. قال إن التاجر الجنويّ سيتكفل بكل شيء حتى أعود إلى حلب، وأومأ التاجر إيجاباً ونحن نستعد للرحيل. قبلت كفي أبي المفتوحتين وراقبته وهو يدور حول نفسه في مشية عصبية حتى لم أعد أراه ولم يعد يراني.

انشغلت عن فراق حلب بمراقبة الطريق الذي لم أره من قبل. العالم خارج حلب. قافلة الحمير الطويلة التي تحمل جرار الزيت وزنابيل الفستق والخروب وصناديق الصابون والشمع. الطريق يزداد اخضراراً مع مرور الساعات والأيام حتى بلغنا اللاذقية أخيراً حيث صار البحر مفاجأة كبيرة. حجمه واتساعه وامتداده وملحه وزبده ونوارسه وأعشابه التي تدغدغ يدي وهي تتخللها وتتشبث فيها وكأنها لا تريد العودة إلى البحر، ثم السفينة ذات الصاريتين التي ذرعتها منذ اليوم الأول يميناً وشمالاً وأعلاها وأسفلها وكأني أبحث عن ثقب لم ينتبه إليه أحد. ثم قبعت أخيراً بجوار البوصلة المعلقة على الصاري الكبير وشعرت أني أحتاج إليها لتهديني سبيلي أكثر من السفينة.

عندما غاب ميناء اللاذقية عن عيني المعلقة فيه مذ أرخت السفينة قلعيها المليئين بالرقع شعرتُ أن قلبي فرغ من الدماء وصار يملؤه بدلاً منها هواءٌ باردٌ جاف ينقِّل بين حجراته القلق والخوف، ولأهدأ قليلاً حدثت نفسي بأن الأمر ليس مخيفاً إلى هذا الحد، ولو أني تحدثت إلى التاجر الجنويّ الآن وطلبت منه العودة لأعادني إلى البرّ بكل سرور. ربما يغضب بعض المسافرين ولن يعيرهم التاجر الجنويّ انتباهاً،

وسوف يتحدث إلى الربّان الذي سيدير دفة السفينة ويلقي أوامره على المجدفين ليعودوا بنا إلى الميناء.

بثّت تلك الأفكار الدافئة في داخلي طمأنينةَ المتشبث بأي صورة حتى لا يخنقه الخوف. فأسندت ظهري على الصاري تحت البوصلة تماماً ورحت ألتقط أنفاس البحر المشبعة برائحة أعشابه البنية والخضراء، وفي هذه اللحظة، وقبل أن يلج خيط السكينة في سَمّ روحي الضيقة دوى صوتٌ عال قريباً من أذني، والتفت لأرى الربّان الذي سيعيدني إلى البرّ إن أردت يحمل عصا طويلة ينهال بها قرعاً على سطح السفينة ثم عبداً أحمر الشعر يحاول الفرار من طريقه فيتعثر ويسقط أمام قدميّ الربان الذي لم يبد غاضباً البتة، وبملامح جامدة كالذي يقوم بعمل معتاد ارتفعت عصاه بلا أدنى مجهودٍ منه وحطّت على ساق العبد فصرخ وهرب.

صار الظلام دامساً حتى لا أكاد أرى أصابعي واشتدّ البرد. بدأ سربٌ من خدم السفينة ينقل أطباقاً خشبية لعشاء المسافرين بينهم. شعرتُ بالجوع رغم أني لم أعرف ما في الأطباق بعد، وقفت ورحت أتبعهم نحو ما لا أعرف. ربما مائدة كبيرة يتحلق حولها الجميع. رأيت التاجر الجنويّ مع رهطٍ من بني جلدته يتحدثون لغتهم وقد بدؤوا للتو يصبون شرابهم ويستعدون لتناول الطعام. وقفت غير بعيدٍ منه فلمحني. استفسر مني بعينيه إن كنت أرغب في محادثته فأجبته بعيني أيضاً أني أبحث عمن يدلني على كل شيء. الأكل والمنام والخلاء وكل شيء

يحدث في السفينة لا يعرفه جرما الذي يركبها لأول مرة، وقف واقترب مني وقال بعربيةٍ كسيرة:

- ماذا تريد؟ هل أنت بخير؟

- أنا لا أعرف أين سأنام.

جرع بعضاً من كأسه ثم أمسك بذراعي وقرّب ذقنه من كتفي وأشار إلى مؤخرة السفينة وقال:

- تنزل من هناك إلى جوف السفينة. أجل من هناك حيث خرج ذاك الرجل للتو. ستجد السرر في صفوف وفوق كل منها اسم صاحبها. ابحث عن اسمك.

- هل آكل؟

ضحك برأفة وقال:

- بالطبع ستأكل. ما الذي نستفيد منه إذا وصلت ميتاً؟ ستجد طعامك فوق سريرك. اذهب قبل أن يسرقوه.

ليست السرر في جوف السفينة سوى ألواح خشبية يعلو كل منها لحاف من وبر فوق حشية بالية فقدت تكوّرها، وفوق كل منها كُتبت أسماؤنا بطبشور رديء وأحرف لاتينية. وجدت فوق سريري قطعة خبز وبعض الخضار المسلوقة قد بردت. التفتّ لأميز جاري في ظلمة المكان فإذا هو يحاول تمييزي بدوره. عندما أكلت قال لي بالعربية:

- لن يكون الخبز طازجاً في الأيام القادمة. تلذذ به.

- كم سنمكث هنا قبل أن نصل؟

- لا أدري، ولكنها ليست الأيام التي نعرفها على البر. أيام البحر أطول.

كدت أصدقه قبل أن يردف جملته بضحكة قصيرة. أكملت طعامي بهدوء حتى خوى الصحن تماماً. ثم اضطجعت على الوسادة التي بدا من رائحتها أنها محشوة بصوف الأغنام التي لم تندف جيداً. التحفت. أغمضت عيني، وحاولت أن أقنع نفسي أني الآن نائمٌ في حجرتي. كل الأماكن هي نفسها عندما تكون العينان مغمضتين، ولا داعي للوحشة، وعندما تصاعد شخير المسافرين واختلطت روائحهم وطقطقت خشبات السفينة مثل طفل لا يعرف كيف يطبّل صار إقناع نفسي بذلك أكثر صعوبة.

٥

لم أنم إلا لماماً. استيقظت في الصباح بحلقٍ جافٍ وبطنٍ خاو. رأيتهم يسندون السرر على جنبات السفينة ففعلت مثلهم. ثم نشب شجار بين اثنين من المسافرين وجذبت يدا كل منهما ثياب الآخر وتدافعا وتأرجحا ووطئا السرر التي لم ترفع بعد وفوقها بعض النائمين. فضّ المسافرون الشجار وباعدوا بينهما فأخرج أحدهما سكيناً صغيرة ولوح بها للآخر الذي بصق عليه بصقة لم تصل إليه. باعدت بينهما أخيراً أيدي المسافرين ودفعت كلاً منهما في اتجاه مختلف. حملت طبق العشاء الخاوي وصعدت إلى سطح السفينة بحثاً عن هواء نظيف.

سطح السفينة في الصباح نشط مثل سوقٍ صغير. رأيت وجوهاً لم أرها أمس واختلطت في أذني لغات شتى ميزت منها اليونانية والإيطالية والعربية، ومن ثياب الناس ميزت التجار والكهنة والمسلمين والمساجين المصفدة أرجلهم يتبادلون نوبات التجديف. مر بي أحد الخدم الذين يوزعون أطباق الطعام فمددت إليه طبقي الخاوي فأخذه مني وأكمل طريقه دون أن يلتفت إليّ. تداركته قبل أن يغيب عن مدى صوتي:

- هل نأكل؟
- ليس الآن يا سيدي.

بثّت كلمة «سيدي» في داخلي بعض الثقة. أنا مسافرٌ محترم في هذه السفينة ولا يجدر بي أن أرتجف مثل طفلٍ مبتلّ الثياب، وعلى إثر هذه الثقة العابرة رحت أمشي في أرجاء المكان وأنظر إلى الجهات الأربع متشابهة الزرقة، وفكرت أن أيام البحر التي تحدث عنها جاري في السرير ستكون هكذا. أمشي فوق سطح السفينة ثم آكل. ثم أمشي ثم آكل. ثم أنام. لا بأس. هذه الرتابة مريحة بعض الشيء. لن تكون هناك مفاجآت.

في منتصف النهار التقيت دنيانو مرة أخرى. وكطفلٍ غاب والداه عن ناظره فزعت إليه. هذه المرة رمقني بنظرة قصيرة ثم استمر في مشيه دون أن يتبادل معي كلمة واحدة. تبعته بناظريّ إلى حيث اقتعد مكاناً حول طاولة خشبية مثبتة على أرض السفينة بمسامير وحبال، وإلى جواره جلس جنويون آخرون يقامرون على بعض النقود التي كوموها على الطاولة ويتبادلون بينهم قطعاً صغيرة من الورق، وفي المساء التقيت به مرة أخرى وهو ثمل. ابتسم وربت على خدي بلطف وكأني طفل. قررت أن أخلق معه حديثاً حتى أتأكد أن لساني ما زال يعمل فأنا صامتٌ منذ الصباح. مرّ بجانبنا المجدفون فاهتبلت مرورهم وقلت:

– سيد دنيانو. ما بال هؤلاء مكبلين بالأصفاد؟ هل يخشى الربان هروبهم في هذا البحر؟

ضحك طويلاً من كلامي أو من شرابه أو منهما معاً، واستند إلى كتفي ليغيّر اتجاهه ويمشي فترنح قليلاً مع اهتزاز السفينة. ابتعد

خطوتين ثم التفت قائلاً وقد ارتسمت على وجهه علامات الجدية:

- انتبه. إنهم لصوص.

- حقاً؟ وأين سيخبئون مسروقاتهم في هذه السفينة؟ يرمونها في البحر؟

ضحك مرة أخرى ضحكة أطول من سابقتها، وانحنى إلى الأمام مفتوح الفم من فرط الضحك حتى سال خيط من لعابه على سطح السفينة. ثم قال وهو يستعيد أنفاسه:

- لا، لا بالتأكيد أيها اللعين، ولكن سيرمونهم هم في البحر إذا سرقوا.

كدت أنسى حديثنا هذا قبل أرى في الأيام القادمة رجلاً محمولاً بأذرع ثلة من حراس السفينة الذين يجوبون سطحها متمنطقين بفؤوسهم المصرية الحادة، ومن حافتها ألقوه كما يلقون كيساً من الرمل. ثم عدلوا ثيابهم التي هدّلها تشبثه بها قبل أن يسقط، وظلت صرخاته تصلنا لوقت قصير قبل أن تخفت تماماً، وشفيت تلك الليلة من علة الإمساك التي لازمتني مذ صعدت إلى سطح السفينة في اللاذقية، وقضيت وقتاً مريحاً في مؤخرة السفينة أتبادل الكلام مع الذين يفرغون بطونهم إلى جواري في الفتحات التي تفضي إلى البحر عن الشقيّ الذي غرق من أجل كوبٍ من النحاس المنمنم وجدوه في جيبه.

قبيل الغروب ارتجت السفينة بقوة وترنح بعض الناس وسقطوا أرضاً. كنت أتابع المقامرين الذين ما انفكوا يمارسون لهوهم لساعات

تتخللها شجارات صغيرة حين داهمتنا الأمواج الكبيرة. وجدت نفسي أزحف باتجاه جدار السفينة لأتشبث بأحد حوافها الناتئة في حين مشى بعضهم مترنحاً باتجاه الباب الذي يؤدي إلى جوفها. اختلط صياح عمال السفينة وخدمها بقبع الأحصنة التي في قعر السفينة وقد فزعت. قررت ألا أبرح مكاني خشية ألا أتمكن من الحركة، وتبخر في لحظات كل الأمان الذي حاولت أن أدخره في صدري منذ الصباح.

استمر ارتجاج السفينة حتى بعد أن أنزلوا الشراعين. سقطت رؤوس بعض الموجات العالية داخل السفينة وصار سطحها زلقاً. وبدأت الشمس تغيب في مغربها ليصبح الطقس بارداً والأشياء من حولي أكثر وحشة. تبللت ثيابي وشعرت بالبرد والأسى. في مثل هذا الوقت من اليوم أجلس في باحة البيت أنتظر حساءً وخبزاً تضعه طابيثا أمامي أنا وأبي، أو أجول في السوق قبل إغلاق الدكاكين بحثاً عمن يحتاج إلى حمّالٍ لحاجياتٍ اشتراها بأسعار الساعة الأخيرة من النهار، أو أحمل شباكي وأخوض النهر ساحباً إياها لتعلق فيها سمكة أو سمكتين تغيّر طعم حسائنا وإن كان شوكها أكثر من لحمها، أو أشعل ناراً صغيرة مع أصدقائي في البقعة الجرداء خلف الكنيسة ونتحدث أشياء لم ننو الحديث عنها ولا نتذكرها بعد أن يعود كلٌ إلى بيته. آه كم أحسد برصوم و يوسف. ماذا يفعلان؟ أي حديثٍ تافه يتبادلان؟ أي نكات وضيعة يضحكان عليها؟ أي فضائح صغيرة ينقلانها بينهما؟ هل عاد برصوم إلى مضاجعة ابنة الجاثليق في غيابه ويحكي لنا ويظن أننا

نصدقه؟ أما زال يوسف يدّعي أن أباه ذو مكانة رفيعة في القلعة وما هو إلا ساقٍ؟ كم تبدو أكاذيبهم تلك أصدق من ظهر هذه السفينة وأفق هذا البحر المظلم.

كرت الأيام، وأخيراً مسّت قدمي أرض الماغوصة صباح اليوم الخامس. كنا قد دخلنا الميناء ليلاً حين لا يسمح للمسافرين بالنزول من سفنهم، وكم كنت تواقاً لذلك بدافع الجوع الذي لم يطفئه الخبز الذي عفن والماء الذي أسن والخضروات التي دِيدَت. وفور أن لاحت خيوط الصباح الأولى اصطف المسافرون عند مخارج السفينة حاملين أمتعتهم وتدافعوا في نزولهم منها وكأن السفينة ستعود بمن يتأخر منهم إلى حيث جاءت به. ارتفعت أصوات أخوين من التجار وهما يشكوان ابتلال بضاعتهما من السجاد بماء البحر السارب. تسوّل عمال السفينة الهبات من المسافرين قبل نزولهم إزاء خدمتهم لهم وتخلص المسافرون منهم بصعوبة، ليتلقفهم بعدهم باعة الميناء وهم يعرضون عليهم أطعمة وماءً نظيفاً في حين تكأكأ الحمّالون على مقربة في انتظار انتهاء نزول المسافرين وبدء إنزال البضائع.

وقفت غير بعيد أتأمل الميناء الواسع الذي اصطفت فيه سفنٌ أكثر بكثير من السفن الثلاث التي رأيت في اللاذقية، وبقيت أتصفح الوجوه وأسترق الكلمات حتى لكزني دنيانو في كتفي ونظر إليّ بوجهٍ ضاحك شاحب ما زالت فيه آثار الثمل والنوم. لاح من خلفه صبية يجرون بغالاً تحمل بضاعته التي جلبها من حلب. وقفنا أمامه نحن أتباع قافلته مثل

بقايا فرقة عسكرية مزق الأعداء أكثرها؛ يعلو وجوهنا التعب والإعياء. أمرنا أن نتبعه في أزقة الميناء حتى بلغ مكتب التسجيل حيث أحصوا ما معه من بضائع وقيدوها في دفاترهم وقبضوا ضريبتها في حين وقفنا في انتظاره نقضم بيضاً مسلوقاً ابتاعه لنا.

أخيراً صافحني مودعاً بعد أن صافح رجلاً قبرصياً مرحّباً، وتبعت هذا القبرصيّ الأعرج ومعيّ حلبي آخر في متوسط عمره نصف نهار. خلَّفنا المدينة التي دبّ فيها نشاط الصباح وراءنا ومشينا طويلاً وسط حقولٍ ومزارع بهائمها أكثر من أناسها. تأملت الأشجار التي تشبه أشجار حلب وشعرت بألفة عابرة حتى أني تحسست جذوعها وأنا أمشي، وبعد وقوفٍ متكرر وسقيا من بئر وصلنا أخيراً إلى مزرعة واسعة، وأمرني الرجل بإشارة من يده وبضع كلمات عرفت فيما بعد أنها إيطالية أن أدخل هذه المزرعة، ولوّح عن بعد لرجال يعملون في الحقل. ثم أكمل طريقه ومعه الرجل الآخر، ولم أره بعد ذلك.

٦

شرح لي أبي قبل أن أرحل أني سأعمل في الزراعة حتى تنجلي الحرب في حلب ثم أعود. لم أكن قد عملت مزارعاً من قبل ولكني لم أملك خياراً. مزارع في قبرص سيعيش حياة أطول من جندي في حلب. توكأت على هذه الفكرة الصغيرة طوال سفري في البر والبحر، ولكن الذي لم أعرفه سوى بعد مرور شهورٍ طويلة هو الذي فاجأني، وبين المعرفة الأولى والمعرفة الأخيرة، اكتسبت بعض المعارف النافعة. كيف أفتح ساقية، وأحرث أرضاً، وأقلب تربة، وأقطف ثماراً، وأعصر نبيذاً، وأتكلم بالإيطالية مع بقية المزارعين وصاحب الحقل وزوجته وابنته، وقد جمعت طوال شهور مجموعة من الكلمات الإيطالية مكنتني من أن أتجه إلى صاحب الحقل ذات يوم وهو يدفئ كفيه حول نار صغيرة وأقول له:

- يا سيدي! متى تعطيني أجري؟

نظر نحوي بتعجب، وظننت وقتها لوهلة أنه تعجب من الجملة التي قلتها. لعلها كانت جملة متقنة وحذقة. فابتسمتُ. واستمر هو في تحديقه بعينيه البنيتين بين خصلات شعره التي تغطي جبينه ونصف وجهه، وبعد ثوان من الصمت شعرت أن الأمر عكس ما ظننت. أني لم أقل جملة ذات معنى ولم يفهم ماذا أقول. فحركت يدي وأنا أعيد

الجملة ببطء في حين أفرك أطراف أناملي ببعضها ليفهم أني أقصد نقوداً:

- يا سيدي. أجر. ألن تعطيني أجراً على عملي؟ لقد مرّ....
- أجر؟ أتريد أجراً؟
- نعم. أجر.

أعاد يده إلى الوراء واستخدمها ليسند جسده عليها ونظر إلي مرة أخرى بفم مفتوح وقال:

- وماذا أكلت هذا الصباح؟ وأين نمت البارحة؟
- أتعني أن هذا هو أجري؟ الأكل والنوم؟
- أي أجر غير هذا تريد مني؟

أشرت بيدي جهة المزارعين الذين يلوحون عن بعد منشغلين في أعمالهم وقلت:

- الأجر. النقود التي يأخذها هؤلاء. ألست مثلهم؟
- لا أحد من هؤلاء يأخذ نقوداً سوى الذين جاءوا من نيقوسيا.
- ولماذا؟
- لأنهم يعملون هنا مقابل نقود. أنت تعمل هنا مقابل السفر والأكل والشرب والمأوى.
- ولكني أريد نقوداً مثلهم!

وقف فجأة واقترب مني وقد بدت على وجهه بوادر غضب. أزاح خصلات شعره إلى الوراء ثم وضع سبابته في صدري وقال:

- لا، لا يوجد أجر.

وضعت سبابتي على صدره مثلما فعل وقلت:

- إذن لا، لا يوجد عمل.

ربت على كتفي ثم على خدي باستخفاف وهو يقول:

- هذا ليس شأنك.

- ماذا تعني أنه ليس شأني.

أولاني ظهره مبتعداً وقال وهو يفتعل ضحكة هازئة:

- ماذا ستفعل؟

- سأخرج. سأذهب إلى مكان آخر. سأعود إلى بلدي.

التفت إليّ وتأملني وهو يزم شفتيه بتعجب. ثم أولاني ظهره ومشى باتجاه اصطبل الخنازير واختفى داخله، وقفت وأنا أشعر بغضب يتراكم وأفكر في طريقة أستطيع أن أتواصل بها مع دنيانو. ربما إذا عدت إلى الميناء سأجده هناك. سأسأل عنه. بدا لي أنه معروف والجميع يلقون عليه التحية. ربما لو سلكت الطريق نفسه الذي سلكته إلى المزرعة قبل شهور سأصل حتماً. سأتذكر. قد يغير الشتاء ملامح الطريق ولكني سأتذكر. ربما أسأل بعض المارة إذا وجدت فيهم من يتحدث السريانية أو التركية أو العربية. لا يهم، سأجد طريقي.

عاد صاحب الحقل من إسطبل الحيوانات حاملاً في يده شيئاً لم أتبينه واتجه نحوي، ولما صار على بعد خطوات بدا لي الشيء الذي يحمله في يده واضحاً وجلياً، سوطٌ طويل. طويل جداً. أطول من قامتي

بنصف قامة أخرى، وفي مقبضه عصا خشبية يلتف السوط بها مضفوراً ضفيرة مضاعفة. تجمدت في مكاني وأنا أحاول أن أتكهن بما يمكن أن يفعله. أيريد أن يسخرني للعمل عنده بلا أجر ويضربني أيضاً؟ هل جنّ هذا الرجل؟ أيظن أني سأخاف وأعود إلى الحقل وأكمل عملي؟

وفي خضم هذه العاصفة من الأفكار التي اجتاحتني في حين هو يقطع الخطوات القليلة التي بقيت بيننا مد ذراعه باتساعها. ثم شعرت بألم حارق في كتفي، وسمعت بعد ذلك صوت السوط وهو يفرقع مثل الرعد، وقبل أن أتحرك ارتفع السوط مرة أخرى وعاد ليقع على فخذي مثل حبل من اللهب. جنّ جنوني. قفزت فجأة لأقبض بيدي على رقبته فتراجع إلى الوراء لأسقط على وجهي، وهنا وقع السوط مرة أخرى على عجيزتي وشعرت بقدمه تغوص في خاصرتي. لم أقو على الوقوف. تشبثت بقدميه وأنا أصرخ بجنون. في حين حاول هو تخليص قدميه مني وراح يلهب ظهري بالسوط مرة ومرتين وثلاثاً حتى لم أعد أحصي الضربات. ثم وجدتني مشدوداً بأيدٍ عديدة لأقف على قدمي في حين حال ثلاثة مزارعون بيننا، وتناثرت في فضاء سمعي كلمات إيطالية تطالبه بالتهدئة وأخرى تطالبني بالتعقل، وأنا أطلق كلمات سريانية تشتمه هو وأمه وأباه وعائلته.

في كوخ المزارعين الذي جلست في ركنه أدمدم في غضب مثل بركانٍ ثائر شرحوا لي كل شيء. عقد السخرة الذي يمنحه حق استعمالي خمس سنوات لأني غريبٌ عن قبرص، وعقد العمل الذي

يجعل بعضنا يستحقون أجراً مقابل عملهم لأنهم رعايا المملكة القبرصية. شعرتُ بألم في عقلي وقلبي أضعاف الألم الذي في جسدي من وقع السوط. عقلي الذي لم يفهم ما يجري من حولي طوال شهور، وقلبي الذي لم يتوقع أن يبيعني أبي سخرة لإقطاعيّ إيطاليّ. كنت أصرخ، قلت لهم إني كنت أعرف هذا ولكني لم أتحمل السخرة لأنها ليست بعدل، ولكني لم أكن أعرف، ورحت أصيح مهدداً أمامهم أني لن أبقى. سأنتظر شروق الشمس وأرحل.

ما نمتُ تلك الليلة. المهانة التي أشعر بها طردت كل ذرة نوم يمكن أن تتسرب إلى جسدي المتعب من العمل طوال النهار ومن لسعات السوط في آخره، وفي خيالي، خربشت وجه أبي ووجه دنيانو عشرات المرات حتى اصطبغا بالدماء، وفي خيالي أيضاً طعنت صاحب الحقل بالمحراث المعلق في رقبة الثور رغم أني أعرف أن لا قدرة لي على حمله، وتخيلت ظلي الطويل يتراقص ورائي وأنا أرحل باتجاه الشرق مع بزوغ الشمس. كل هذا حدث في خيالي طوال الليل، ولكن الذي حدث في الحقيقة أني رأيت خيوط الشمس تتسرب من شقوق الكوخ، ونباح الكلاب يختلط مع صياح الديكة. فحملت صرة ثيابي وفتحت الباب لأخرج، فتحرك أحد الرؤوس النائمة بعد أن أيقظها صوت صرير الباب وقال:

- إلى أين؟
- بعيداً من هنا!

- يا مجنون! سيسجنونك.
- من؟ من الذين سيسجنوني؟
- جنود الحاكم. ستذهب إلى السجن. ستتعرض للتعذيب.
- لماذا! لا أريد أن أعمل. هذا من حقي!

استيقظ الجميع، وجلسوا في فرشهم وأنا واقف عند الباب أحمل صرتي. لم أميز إلا أصواتهم المختلطة «اجلس!». «لا تتهور». «الأمر ليس سهلاً كما تتخيل». «كلنا مثلك». «أنجز مهمتك ثم أنت حر!»، وبدا المكان كقاعة محاكمة صغيرة غاب عنها القاضي. ارتجفت. مس قلبي بعض الخوف الذي حل مكان الغضب المتراكم منذ الليل. قلت بحنق شابته الرجفة:

- أتعنون أني إذا خرجت الآن من هنا سيقبض عليّ الحاكم؟
- نعم.
- أهكذا يفعلون بأي مزارع لا يريد أن يعمل؟
- .. حتى تعيد المال الذي دفعوه لسفينتك ورحلتك وأهلك.
- ولكني لا أملك مالاً. من أين لي مال أدفعه لهم؟
- لهذا يجب أن تعمل.

وسقطت صرة الملابس من يدي، وخذلتني ركبتاي، وسقطت على الأرض، وانخرطت في بكاء مرير.

بقيت في سريري طوال النهار. قام المزارعون بعملي وأخفوا غيابي عن صاحب الحقل الذي لم يسأل عني. تأملت سقف الكوخ الذي ننام

فيه وقتاً طويلاً حتى حفظت شقوقه وخدوشه وعروق الجذوع الخشبية التي تقيمه، ورحت أفكر في هذا المصير القاتم الذي لا بد منه. خمس سنوات؟ كم سيصبح عمري عندما أفارق هذه المكان؟ هل يعقل أن جيبي سيكون خالياً حينها مثلما هو الآن؟ أيعقل أن يسجن الحاكم كل مزارع هارب من مزرعته في هذه الجزيرة؟ ماذا لو تسللت خفية وحثثت السير حتى أبلغ مدينة أخرى لا يعرفني فيها أحد؟ ماذا لو غيرت هيئتي وتحدثت بلغة أخرى وتسللت إلى أي سفينة في الميناء لأعمل فيها وتعيدني إلى حلب؟ وماذا أفعل في حلب؟ سيجرني نائب السلطنة إلى الحرب وسأموت جزعاً قبل أن تلتحم الصفوف. ربما أذهب إلى مكان غير حلب. إذا تحدثت العربية قد تأخذني سفينة إلى مصر. ماذا سأفعل في مصر؟ هل يوجد مسيحيون هناك؟ حتماً يوجد مسيحيون وأديار.

تذكرت وجه أمي وهي تصلي. تضيء شمعتها وتغطي رأسها وتبدو وكأنها توشك أن تبوح بأسرارٍ عظيمة، وعندما أتبعها إلى الحجرة كانت تأمرني بالخروج لتخلو بنفسها في صلاتها. حتى إذا بكيت قالت:

- يا بني. الرب يقول هذا. اخرج!

- ولماذا يريدني الرب أن أخرج؟

فتتنهد وكأن جهلي يخيفها وتقول:

- ألم تتعلم شيئاً في الكنيسة؟ ألم تسمع يوماً قسيساً يقول: «لا تكونوا مثل المرائين الذين يحبون أن يصلوا في المجامع وفي زوايا الشوارع ليراهم الناس. ادخل غرفتك، وأغلق الباب عليك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك».

بكيت طويلاً وأنا أتذكر أمي. صليت بكل الصلوات التي أحفظها وأنا أراقب الشقوق التي تخترقها أشعة الشمس. ها أنا وحيد في الحجرة يا أبانا الذي في السماوات فأنقذني من هذا المأزق. ليتقدس اسمك الذي يبارك حظي التعس. ليأت ملكوتك ويخلصني من هذه الحياة، وإذا لم يكن ذلك كله.. أو لم يكن من ذلك بعضه.. فلتكن مشيئتك.

٧

ومرت سنوات الحقل الخمس. لا أقول بسلام، ولكنها مرت. ثمة مواسم للسخط، وثمة مواسم للاعتياد، وثمة مواسم للأمل، وكل موسم يسلمني للموسم الذي يليه على حال ما، ولكن المهم هو تعاقب المواسم، ولو أنها كانت موسماً واحداً لقتلني حتى لو كان موسم أمل وترقب. ننثر السماد في أول الشتاء ونقلم الأشجار في آخره. نحفر السواقي في أول الربيع ونجمع الحصاد في أول الصيف، ثم نجفف المحصول ونعصر النبيذ ونطحن الحبوب. وفي الخريف نحرث التربة وننثر البذور ونجز صوف الخراف ونقدد لحم الخنازير. كل شيء أخذ شكل الاعتياد. العمل. الطعام. الطقس. الأعياد. الفسح القصيرة في المدينة. قداس الأحد. لا يتغيّر شيء سوى جسدي الذي اشتد عوده، ومنكباي اللذين ازداد عرضهما، وساعداي اللذين برزت عضلاتهما.

ثم كان الأصدقاء الذين رحلوا جميعاً قبلي لأني كنت آخر من وصل إلى الحقل. رأيت النيقوسيين منهم يرحلون، والبلقانيّ الحزين دائماً مثل طائر مكلوم، واثنين من جبيل، وكان لهذا أن يقطع قلبي كل مرة ويشعرني بالحسد. ودعتهم واحداً تلو آخر. أولئك الذين علموني كل شيء. ثم جاء من بعدهم آخرون علمتهم كلّ شيء، ولم يكن منهم أحد يجهل لم هو هنا. لم يكن منهم من خدعه أبوه سواي. فلم

يضطر أي منهم لأن يتلقى الحقيقة المرة بلسعة سوط. جاءوا ورحلوا. الأناس والمواسم وحتى الحيوانات التي في المزرعة رأيت أجيالها وشهدت ولادة خراف كنت قد شهدت قبلها ولادة آبائها وأمهاتها في هذه المزرعة التي سرقت من عمري خمس سنوات كاملة مقابل حفنة دراهم في يد أبي.

ثمة شخص لم يرحل وظل دائماً قريباً. بانديكا. ابنة صاحب الحقل الذي جلدني بالسوط وداوت هي جراح قلبي وجسدي. لا، لم أحبها. لم يكن الذي بيننا حباً كما يتداوله الناس بل تكافلاً من العزاء. متى فاض لديها سكبته عليّ، ومتى فاض لديّ سكبته عليها. ابنة غير شرعية لصاحب الحقل. أنجبتها له امرأة عرفتُ من تكون عبر السنوات. في السنة الأولى قالت لي إنها حاجَّة في طريقها نحو البلاد المقدسة وتوقفت في قبرص ثم غادرت بعد أن وضعتها. في السنة الثانية قالت إنها عاشقة ربطتها بأبيها قصة عشق قصيرة جداً لم تستمر لأنها يهودية. في السنة الثالثة قالت إنها امرأة متزوجة من صانع سفن جنويّ واضطرت أن تعود معه إلى جنوا بعد أن اكتشف فعلتها، وفي السنة الرابعة قالت لي أخيراً إنها امرأة من الماغوصة استلقت بين يدي أبيها مقابل ثلاث بيزنطات.

ولأن هموم بانديكا ليست فقط محصورة في كونها دخلت هذا البيت في سلة وجدوها عند الباب ولكن لأن أمها اختفت تماماً بعد ذلك. فلم يتسن لأبيها الغاضب إعادتها إليها، وفي الوقت نفسه، وافقت

زوجته على تربيتها لأنها مسيحية صالحة تعرف أن الرب لا يدبر أمراً إلا لسبب حكيم، لاسيما بعد أن ماتت ابنتهما الأخرى. ثم لحقت بها هي فظلت بانديكا وأبوها في المزرعة الواسعة لا يدري أحدهما كيف أجبرته الأقدار على العيش مع الآخر. كانت تشبهه في أنفه الضخم وأسنانه المبعثرة في فمه بلا اتساق ولكن قلبها أرقّ منه إن كان له قلب. نجلس مساءً تحت ظلّ السقيفة الصغيرة في طرف المزرعة فتجلب لي قطعة خبز إضافية غير تلك المرصودة لي كل يوم، وأحياناً تدهنها لي بعصيدة من التفاح والسكر، وأحياناً تخصني بنصيبها من النبيذ الذي لا يسمح لنا بشربه إلا في نهاية الأسبوع، وتراقبني وأنا آكل كأم تراقب ابنها لأنها تكبرني بخمس عشرة سنة. أما أبوها فلم يكن يعترض على لقائنا المسائي تحت السقيفة. ربما عرف أني سأنتهي من سخرتي لديه قريباً وأرحل، وسيكون من الرائع لو أخذت معي ابنة العاهرة إلى حيث لا تراها عيناه مرة أخرى، ولكن بانديكا لم تكن تريد أن ترحل معي ولا مع غيري. تربيتها المسيحية الصالحة تبقيها رازحة تحت آلامها في انتظار الخلود الأبدي في مملكة السماء.

وعبر الشهور والسنوات ظل لقاؤنا المسائي القصير هذا يخدر في داخلي الغضب الذي تسببه مشاعر السخرة. لاسيما وأنا أخطو نحو العشرين من عمري. لم أجرب يوماً أن أكون مطيعاً لأحد. حتى أبي كنت أطيعه يوماً وأعصيه شهراً. حتى هو في قرارة نفسه لم يكن يعتقد أن طاعة الأبناء هي الأصل. لا يوجد ما نختلف بشأنه على أي حال.

فلا هو ذو صنعة يدربني عليها ولا ذو تجارة يؤهلني لها. عاش عمره كله حارساً لكنيسة لا يوجد فيها ما يستحق الحراسة سوى الشمعدانات النحاسية والكراسي الخشبية وتمثالٍ للسيدة العذراء تغيرت ملامحه مع الزمن حتى أن بعض الأطفال الصغار يخلطون بينها وبين ملامح ابنها. وعندما أعمل حمالاً في السوق وقت توافد القوافل كنت أجني مالاً أكثر منه، وأجلب طعاماً للبيت.

لغتي الإيطالية تصبح أجود كل يوم بفضل بانديكا. علمتني إياها طازجة ونقية كلغتها الوحيدة التي لا تتحدث سواها فلا هي تخرج من البيت لتختلط بالنبلاء الفرنسيين ولا التجار المصريين ولا العوام اليونانيين، ولا أنا أخرج من الحقل لأجرب لغة أخرى. بدت سعيدة جداً بهذه المهمة وأكثر حماسة لها مني وكأنها اكتشفت دورها في الحياة. ولذلك شعرت أن حبسنا واحد وقيدنا متشابه، ووهبني وجودها في المزرعة الأنس والدفء طوال سنوات السخرة.

صباح اليوم حملت صرة ملابسي وغادرت المزرعة دون أن يجلدني السوط ولا يثبطني الأصدقاء. رقصت بانديكا في الليلة التي قبلها كما تفعل أحياناً تحت ضوء قمر مكتمل. لم أفهم سبب سعادتها المفرطة تلك ولكن لم يكن من المناسب أن أسألها أيضاً. فكرت أنها تظنني سأعود قريباً لأتزوجها وأخرجها من هذا المكان. ربما دار في ذهن أبيها الشأن ذاته. أما أنا فلم يدر في ذهني سوى أن أستعيد حريتي التي سُلبت مني في غفلة من العمر. رغم أني معدم لا أملك

سوى ساعديّ اللذين فتلهما العمل في المزرعة، ووجهي الذي شوحته الشمس، ومعرفتي الواسعة بالزراعة، ولغة جديدة في لساني لم يكن يدور في خلدي أن أتعلمها ولا أين سيودي بي تعلّمها، ولكني وجدت لذلك سعادة كبرى في داخلي. صرت أتحدثها بسلاسة الذي لم ينطق بغيرها طوال سنواتٍ خمس.

كان قدري أن تعلمني امرأة أيضاً لغة جديدة كما علمتني أمي التركية صغيراً. وتبدو بانديكا مثلها وهي تصحح لي جملةً خلطتُ كلماتها. تفعل ذلك في سياق الكلام وكأنها تلقّن طفلاً صغيراً حروفه الأول. أدهشتها سرعة تعلمي قبل أن تدرك أن في جعبتي ثلاث لغاتٍ سابقة تجعل من وفود الرابعة أمراً سهلاً. والحقيقة أن اندهاشها من سرعتي في التعلم حرك في داخلي شعوراً بالتفوق والبطولة أحتاج إليه كثيراً وأنا في هذه السّخرة التي أعمل فيها رغماً عني تحت رهبة السوط، وأنجاني من أن تنكسر نفسي انكساراً أبدياً أتحول بعده إلى حر يعيش بقلب عبد.

الذي ينشأ سريانياً في حلب يتحدث السريانية في بيته وكنيسته، والعربية في السوق والشارع. لم يكن هناك مسيحيٌ في حلب لا يتحدث لغتين، ولكن شيئاً في أقداري أضاف إلى لغتيّ الأصليتين لغة التركمان التي كانت أمي تحدثني بها دون علم أبي الذي نهاها عن ذلك. كان سرنا الصغير الجميل هو الحديث بلغةٍ لا يتحدثها سوانا في حي المسيحيين بأكمله، وبها كنت أبثّ أمي أحزاني الصغيرة كطفلٍ فقير لأبٍ طاعنٍ

في السنّ تزوج متأخراً من امرأة خرجت من ملجأ أيتام الكنيسة محملة بأسرار ثقيلة، وبها تبثّني أمي قلقها الدائم بين دينين ولدت على أحدهما ونشأت على آخر. دخلت الملجأ مسلمة بعد أن وجدها أناسٌ في خنّ الدجاج تأكل ما يأكلون وقد أزرى بها الجوع والعطش. لم يفهم كلامها أحد إلا بعد أسابيع عندما وجدوا رجلاً أرمنياً يجيد التركية، ولم يكن في جعبتها حكاية طويلة على كل حال. لقد مات أبواها قريباً من حلب وهم في طريق الحجّ إلى مكة، ولم يرد أحدٌ من القافلة أن يتكفل بها فتركوها عند أبواب حلب وأكملوا طريقهم جنوباً.

لم تعترض أمي على شيء مما فعلوه بها في الكنيسة. عمرها أصغر من أن تعصي، وجوعها أقسى من أن ترفض، وخوفها أشدُّ من أن تتمسك بشيء، وهكذا تعمّدت وانخرطت في صفوف الملجأ تتعلم السريانية وتساعد الراهبات. لقد وهبها الربّ خلاصاً دنيوياً جعلها تخلص في عبادته راجيةً أن يهبها خلاصاً سماوياً. هذا ما ظلت تردده على مسامعي كلما قصّت عليّ ما حلّ بها. أتعجب عندما أسمع منها هذه الكلمات بالتركية: الرب والعذراء وروح القدس والكتاب المقدس، ولكن الأعجب هو سماع القرآن الذي ظلت تتعهده بالترديد فلم تنسه. ولكني كطفلٍ غر لا يعرف ما يقال وما لا يقال، وشيتُ بها عند أبي دون أن أدري. وأذكر ذلك اليوم لأنه موشومٌ في صدري بسيخٍ من نار بقدر ما أورثني شعوراً بالذنب وأنا أرى أبي يجلد فخذَيْ أمي وعجيزتها بغصن حورٍ غليظ.

كانت ليلة هادئة تحدث فيها أبي إلى الجيرة المجتمعين عند عتبات البيوت كل ليلة عن التركمان حديثاً لا أتذكره، ولكنه قال شيئاً مثل «.. ولم نفهم كلامهم..». فقلت بكل تحذلق أمام جميع الجيران «أنا أعرف كلامهم. أمي علمتني»، ورحت بالفعل أهذُّ كلاماً تركياً أمام الجيران الذاهلين قبل أن يصفعني أبي بظهر كفه على فمي ليرتطم رأسي بالجدار، ونمتُ تلك الليلة بشفةٍ دامية ورأس متورم، ونامت أمي بجلدٍ ألهبته العصا، ونام أبي وهو يفكر في خطورة أن يشيع بين الناس أنه مسيحي متزوج من تركية في مدينة يتنازعها الأتراك من الشمال والمماليك من الجنوب.

امتنعت أمي من الكلام بالتركية معي شهوراً. أحاول ذلك أحياناً فتضربني وتنهرني. كان كلامها بالسريانية معي غريباً وكلما حدثتني بها تذكرت فعلتي وقرض الشعور بالذنب قلبي الصغير. ثم عادت أمي إلى ذلك بعد أن أخذت مني موثقاً وعهوداً لم أكن بحاجة إليها. فلقد كانت تلك الحادثة كفيلة بأن أفهم التبعات التي قد يجرّها اللسان، ولكني لم أفهم حينها التبعات التي يجرها لسانٌ يجري بعدة لغات.

مكتبة
t.me/t_pdf

٨

كانت العودة إلى حلب بلا مقابل جزءًا من اتفاق سخرتي المدفوعة سلفاً، ولكن المشكلة أن دنيانو لم يعد موجوداً. غادر الماغوصة مع مئات الجنويين الآخرين الذين لم يعد مرحّباً بهم بعد سيطرة البنادقة على الجزيرة. ولكي أعود لابد أن أحمل رسالة من صاحب الحقل يخلي فيها سبيلي إلى قنصل جنوة ليبحث في سجلاته عن ورقة أخرى كتبت أمامي في حلب، ثم يضعني بموجبها في سفينة تبحر نحو المشرق. ولكن هذا قد يستغرق شهوراً كما قال لي صاحب الحقل وهو يختم على الورقة بخاتمه المعدني المستدق من أعلاه مثل مهماز الخيل. عرض عليّ أن أبقى في الحقل إذا أردت فأجبته وأنا أطوي الورقة وأطمئنُّ إلى مكانها في جيبي:

- إن عطفك أشد وطأة من سخرتك!

هزّ كتفه بلا اكتراث وكأنه اعتاد الشتائم الأخيرة للراحلين من مزرعته، وقام إلى شؤونه وهو يبصق على الأرض ويصيح في ثلة من المزارعين الجدد ليقوموا بشأن ما في حين حملت أنا حاجياتي القليلة على منكبٍ عرّضه العمل الشاق في المزرعة ورحت أهيم على وجهي في الماغوصة. استعدت التفكير في الخطط الثلاث التي رسمتها طوال الأشهر الأخيرة عن حياتي في الحقل. الأولى أن أجد سفينة تحملني

إلى طرسوس أو اللاذقية أو بيروت مقابل العمل على متنها، ثم قافلة تحملني إلى حلب مقابل العمل فيها أيضاً. الثانية أن أجد عملاً بأجرٍ مجزٍ مثل رفاقي النيقوسيين، وهذا لن يتأتى لي بسهولة ما دمت غريباً عن قبرص ولست من رعاياها، ولكن خبرتي في الزراعة قد تشفع لي عند من يقدّرها حق قدرها. الثالثة أن أبحث عن ديرٍ للسريان أقضي فيه بعض الوقت حتى أقرر ما سأفعله بعد ذلك.

مشيت طويلاً في الميناء وأنا أرهف السمع لكل حديثٍ يجري من حولي لعله يهبني إشارة من الرب. كانت الأحاديث الإيطالية تدور حول سفنٍ ستصل وسفنٍ ستبحر، ووكلاء وتجار وبضائع. تطفلت على كثيرٍ منها طوال المساء دون نتيجة. تصل السفن وعلى متنها خدمها الذين لا يفارقونها وتغادر بهم. التقطت أذناي بعض الكلام العربيّ فاقتربت لأجدهم مصريين لن يبحروا إلى المشرق. راودتني فكرة أن أبحر معهم إلى الإسكندرية ثم أرحل براً إلى حلب، ولكنهم رفضوا ذلك وخلفوني وراءهم ألتقط الكلمات المتطايرة من حولي مثلما يلتقط أنف كلبٍ روائح الشواء. اللعنة! أين يتجه الباحثون عن عمل في هذه المدينة؟ لم يجبني أحد. ربما لأني لا أتكلم اليونانية. كل العمّال هنا يتحدثونها. ربما كانت كل الإجابات موجودة حولي ولكني لا أفهمها.

مضت ساعات من حريتي الجديدة غربت بعدها الشمس وزالت معها النشوة وشعرت أني أواجه هذا العالم الصعب وحدي. لا أدري أين سأنام ولا ماذا سأفعل غداً. لا طريق لي لأمشيه ولا غاية أنشدها ولا

عملاً أقوم به. كان شعوراً ثقيلاً ولكنه ليس مخيفاً. فقد كنت أعرف أن بمقدوري أن أعود لصاحب الحقل في أي وقت، وأبتلع بعض كبريائي، وأعمل عنده بأجرٍ هذه المرة، ولكن ليس قبل أن أكتشف هذه المدينة التي عشت تحت سمائها خمس سنوات ولم أمش فوق أرضها بما يكفي. نمتُ على مصطبة حجريّة قريباً من الكاتدرائية الشرقية وحولي مشردون ذوو أسمال بدوت مقارنة بهم شديد التأنق. أكلت من الطعام الذي حشته بانديكا في صرّتي ثم نمت.

في اليوم التالي وجدت طريقي إلى بيت قنصل جنوة بعد أن وجدت مكتبه قد تحول إلى متجر عدسات لضعاف النظر. تفرّس في ملامحي وأنا أقف على عتبة بيته ثم مطّ شفتيه بلا اكتراث بعد أن يئس من محاولة تذكري. عدّ الصناديق المركومة فوق بعضها حتى بلغ الصندوق الذي يظن أن أوراقي فيه واستخرجها منها. نفخ الغبار عنها وتحسس أطرافها التي أكلتها الحشرات، ثم قال:

- أين تقيم؟

- لا أعرف.

ضم يده ووضعها على فمه مثل بوق وقال ساخراً:

- وكيف أنبيك متى وجدتُ سفينة تعيدك إلى بلدك؟ هل أنادي باسمك في الطرقات؟

تجاهلت سخريته وقلت بثبات:

- لقد انتهت سخرتي أمس، هل تظنني أجد مسكناً بهذه السرعة؟

ألقى أوراقي في صندوق آخر تراكمت فيه أوراق أقل وقال:

- لا بأس، ابحث عن مسكن وعد إليّ لأسجله في الأوراق.

وليته ظهري مغادراً فأردف قائلاً:

- لا تستعجل. لن يحدث شيء قبل شهور.

ولم تكن الأيام التي تلت مختلفة. كل يوم أمشي في الشوارع، وأصلي في الكنائس، وأتحدث على المارة، وأتطفل على الدكاكين، وأبدو مثل غريبٍ انقطعت به السبل ولا يلوي على شيء. بعد أيام من التشرد في الشوارع قررت أن أنفذ خطتي الثالثة وقد عيل صبري. قصدت الكنيسة وسألت الشماسين عن الأديار السريانية فدلوني عليها بكل سرور وهم يربتون على خدي بسعادة من يرون شاباً في مقتبل العمر واكتمال العنفوان ينزع عنه مباهج الحياة ويتوق إلى حياة النسك والتواضع، ولم تزل الشمس بعد الظهيرة إلا وأنا في دير القمص بولس. صافح وجهه الطيب عينيّ قبل كل الوجوه الأخرى، وعيناي آنذاك لم تكونا هادئتين مسالمتين كما يقولون عنهما الآن بل كرتان من لهب تحت حاجبين معقودين في وجه كل ما فيه من ملامح يصيح بك: «هل تريد أن تتشاجر؟».

دون أي تردد قبل القمص سكناي الدير عندما علم ما كنت أقوم به، وقال وهو يضمني إلى صدره:

- لن نندم على صحبة مسيحي قوي مثلك!

استضافني أحد الرهبان في حجرته عندما علم أني من حلب وهو

من رعايا عكا الذين هاجروا متأخرين بعد سقوطها في يد المصريين. أفسح لي ركن الحجرة وحمل صلبانه وتماثيله الصغيرة إلى ركنها الآخر ونفض لي فراشاً مطوياً ونزع عنه بقايا القش والريش. ثم عانقني وقال:

- سأجلب لك ماءً لتغتسل.

وهكذا اغتسلت، وغسلت ثيابي، وأعطوني من ثياب الدير، وشاركتهم في صلاة المساء قبل أن نتناول جميعاً طعامنا في دعة وسلام. ثم نمت نومة الرجل الحر الذي لا يحسب الأيام ولا يعد الأسابيع. ولعدة أشهر لم يوكل إليّ أي عمل سوى ما أقوم به من تلقاء نفسي. لم أكن أرغب في الذهاب معهم إلى الحقل، وإذا ذهبت رحت أمشي بين الحقول المجاورة دون أن أعينهم على شيء. وعندما يحل المساء ويعكف الرهبان على قراءة الكتاب المقدس وتعاليمه كنت أستمع إليهم وكأن أصواتهم ضجيجٌ لا يتجاوز أذنيّ وسأنساه يوم تسنح فرصة العودة إلى حلب.

٩

- أتلبث ثابتاً في الدير وفي النسك حتّى نسمتك الأخيرة؟
- نعم.
- قل نعم بمؤازرة الرب. فإنك وحدك لا تستطيع.
- نعم، بمؤازرة الرب.
- أتخلص الطاعة للقمص ولسائر الإخوة بالمسيح حتّى الممات؟
- نعم، بمؤازرة الرب.
- أتحتمل بصبر جميع أحزان السيرة الرهبانية وضيقاتها لأجل ملكوت السماوات؟
- نعم، بمؤازرة الرب.
- أتحفظ ذاتك في البتولية وتلتزم بالعفة والورع؟
- نعم، بمؤازرة الرب.

فرت ضحكة من فم أحد الرهبان الذين يشاهدون تلاوة النذور وقال:

- بمؤازرة الرب وعشبة مريم.

بادله القمصّ الضحك، وقال:

- نعم، بمؤازرة الرب والعشبة. عندنا منها ما يكفي بالتأكيد. الآن ألبسك الإسكيم يا ولدي.

هكذا تلوت نذوري وأصبحت من رهبان الدير. مرت الأيام وتسلل إلى نفسي شعور بالألفة مع المكان. مالي لا أبقى في مدينة عامرة كهذه؟ لا سيما وقد تفاقمت نقمتي على أبي إلى الحد الذي صرت أسأل نفسي معه: هبني وجدت سبيلاً للعودة إلى حلب، ما الذي سأفعله فيها مع هذا الرجل؟ أي خيرٍ في حلبٍ ليس في قبرص؟ وأي شر في قبرص ليس في حلب؟ لماذا أتوق إلى العودة إليها مثل فأر يعود إلى جحره؟ ألا توجد جحور في قبرص؟

مشيت معهم إلى الحقل صباح اليوم التالي من تلاوة النذور. وبحماسة فاجأتهم، رحت أقترح قنوات ريّ أطول، وتقسيماً مختلفاً للأرض، وأن نخرج معصرة النبيذ خارج الحقل حتى لا يدخل التراب البراميل من شقوقها. أنصتوا لكل ما قلته ولم ينقض اليوم حتى وافق القمص بولس وأمر بأن يبدأ العمل بذلك فعلاً وهو يقول «انظر يا بنيّ! ها قد حلت علينا بركتك مذ تلوت نذورك». وظل يكرر عليّ هذا القول مرات عديدة في الأيام التي تلت ذلك حتى كدت أصدقه. وصار يحلو لأصدقائي تكراره أيضاً إذا ألهب مشاعرهم النبيذ وصاروا طيبين ودامعي الأعين، ويؤكدون أنه مذ وطئت قدمي أرض الجزيرة لم يطأها قرصان ولا جيش، وأيضاً لم يحل بها وباء ولا قحط. أشكرهم على نيّاتهم الطيبة ثم أقول بعض الذي علمتني إياه بانديكا في الحقل:

- لقد سلّمت ملكتكم كل شيء. التجارة للبنادقة والأموال للمصريين. من سوف يغزوها؟ ومن سوف يسرقها؟ أدعو الربّ أن

ينزل بركاته ورحماته على قبر زوجها الذي مات قبل أن يتم زواجهما عامه الأول، وعلى قبر رضيعها الذي مات دون أن يتم عامه الأول أيضاً. ما جعل العرش خالياً لها بلا وارث ولا منافس.

يصادق أحدهم على أقوالي بحماسة ويقول:

- صدقت. هذا ما خطط لذلك أهلها البنادقة الدهاة. الحقيقة التي لا يثبتها أحد، ولا ينكرها أحد.

يسأله آخر:

- ما هي هذا الحقيقة. أنا لا أفهم ما تتحدثون عنه!

- حقيقة واضحة يا أخي. عندما يتزوج الملك القبرصيّ من امرأة بندقيّة ثم يموت بعد ذلك بعام وهو في ريعان شبابه لتصبح هي الملكة، يصبح الأمر واضحاً حتى أن البنادقة نفسهم عندما يتحدثون عن وفاته يبتسمون وقد صارت موانئ الجزيرة كلها لهم.

يتسلم آخر دفة الحوار ويوجه كلامه لي:

- قبل مجيئك يا أخانا جرمانوس إلى قبرص بزمن طويل لم يكن ثمة بندقيّ واحد سوى التجار الذي لا يمكثون في البلد سوى بضعة أيام وينامون في سفنهم، ولكن في كل حصاة ترفعها من الأرض ستجد إما عقرباً ساماً أو جنوياً.

يضيف آخر وهو يضحك:

- ... وإذا كان حظك جيداً وصلاتك تامة فسيكون عقرباً.

بعد شهرين من تلاوة النذور وصلت سفينة حجاج جنويّة وأثارت

صخباً بسبب بعض المعارك التي جرت في الميناء. وعندما عاد رفاقي من جولة التسوق الأسبوعية أخبروني أن اسمي معلقٌ على شجرة. غادرت السفينة بعد أيام من دوني لأني قررت أن أبقى رغم أن بي رغبة ملحة أن أقف أمام أبي وأقول له: لقد عدت. بعتني بعقد سخرة لم تخبرني بأمره، وطبقت عقدك، وعدت. مكثت خمس سنوات في حقل واحد لم أخرج منه إلى مكان سوى قداس الأحد، وعدت. زرعت القطن والقلقاس وعصرت العنب والتفاح ورعيت الغنم والدجاج، وعدت. أما أنت فتعيش على الأموال التي أتت من سخرتي. ما الذي ستفعله الآن؟ تبيعني في سوق النخاسة؟

رغم كل السلام الذي أعيشه في الدير ما انفك أبي يعكر صفو أيامي. مذ فتحت عيني على وجهه لأول مرة وهو بلحية بيضاء مدببة. وجه نحيل وعابس. أذنان أكبر من ألا يسخر منها أحد، وسمعٌ ثقيل رغم ذلك. عاش خمسين سنة من عمره عازباً حتى التقى أمي فتزوجها بعد أن وافقت على ذلك بسهولة بغية الخروج من الملجأ المزدحم. وهكذا اضطرت إلى زوجٍ مثله، فاضطررت أنا إلى أبٍ مثله.

شاركت القمص بولس هذه الأفكار في غرفته وهو يخلع إسكيمه الكبير استعداداً للنوم. وضع يده على أذني وتمتم بصلواتٍ لطيفة، ثم نظر إلى وجهي مباشرة وهو مبتسم وقال:

- يا ولدي، لا تغضب. لا تحقد. إن ربنا يقول لك ذلك: الغضب والحقد كلاهما رجس، والرجل الخاطئ متمسك بهما.

- أتظنه يكرهني؟

هزني بيديه هزاً خفيفاً وهو يقول:

- أتسمعني؟ دع غضبك يسقط منك الآن كما يسقط الورق الميت من الشجرة القوية، وتذكر أن ربنا يقول إن غضب الإنسان لا يصنع بر الله.

- ربما لا يكرهني. ولكنه لا يحبني.

- يا بنيّ. الحب نعمة على من يتلقاه كما هو نعمة على من يعطيه. بعضنا محرومٌ من نعمة أن يُحَب، وبعضنا محروم من نعمة أن يُحِب. أياً كان السبب. لا تغضب من أبيك على نعمة لم يعطها إياه الرب، وأخلص في صلواتك ألا يحرمك إياها كما حرمها على أبيك.

دمعت عيناي وعيناه معاً، ورحت أبكي بكاءً متصلاً منهمراً مثل مطر يغسل روحي من سنوات الغضب والحقد والألم ليهيئها لحياة الدير حيث كل شيء هادئ وكل قرار يسير. يمكن أن نذهب للحقل أو لا نذهب. نعمل أو لا نعمل. نحلب العنزات أو لا نحلب. نعجن ونخبز ونطهو وننظف ونغسل ونخيط أو لا نفعل ذلك كله. في نهاية المطاف، كان ديرنا وقفاً منذ مائتي سنة من مهاجر أنطاكيّ اسمه جريجوري محفور اسمه على الحائط، والمتبقي من المحصول بعد الضرائب يكفينا ويفيض، والصدقات التي تصل إلينا في الأعياد من الوجهاء والأعيان اليونانيين، رغم أنها لا تقارن بما تحصل على الأديار اللاتينية، يوزعها علينا القمص بولس. فيجتمع للواحد منا دوكات

بندقية وجنيهات جنوية ودراهم مصرية وغيرها من العملات الكثيرة التي يتداولونها في تجارة الميناء النشطة.

ولكن الشيء الذي لا يتهاون فيه القمص بولس هو درس المساء وصلاته وعشاؤه. نتحّلق حوله كل ليلة فيقرأ علينا من الكتاب المقدس ويعظنا بالميامر المجيدة، ويتعهدنا بحفظ الكتاب المقدس، ويطرح علينا أسئلة مفاجئة منه على مدار اليوم والليلة ليختبر فهمنا. «يا أبنائي. احفظوا رسالة ربكم في قلوبكم، ولا تخلطوها كما اختلطت على الآخرين في هذه الجزيرة. ستجدون مسيحيين من كل فئة ومذهب زلّوا عن الصخرة التي بنيت عليها الكنيسة، وتدحرجوا مثل حجارةٍ فقدت أسسها. لاتين يعصمون البابا الذي يقول إن ربكم ربَّان لا رب واحد. نساطرة قالوا ما قالوا في والدة الإله، والمنانيون الزنادقة الذين خلطوا عسل الرب الخالص بسموم الأوثان القديمة. من سوف يعصمكم من أفكارهم إلا هذا الكتاب المقدس؟»، وبعد أن تنتهي كل دروس الكتاب المقدس، يعطي من شاء منا دروساً في الفرنسية التي يتحدثها ككل من ولد في قبرص عندما كان يحكمها الفرنسيون. وانتهى الحال ولا أحد يهتم بهذا الدرس سواي. حتى إذا تغيّب أحدنا بسبب المرض أو السفر أمرني أنا أن أكرره عليه. وبعد سنة كنت أتحدثها بطلاقة حتى قال ذات درس وهو يربت على كتفي بفخر:

- إنه درسنا الأخير. لم يبق ما أعلمك إياه!

١٠

بعد عدة أشهر من مقامي في الدير، رأيت باندیكا تجلس على سور حجري خفيض مع عدد كبير من الناس الذين اصطفوا ليشهدوا احتفالات تنصيب الملكة الجديدة قرب مدخل كاتدرائية القديس نيكولاس. ووسط الضجيج الذي تصدره حوافر جياد الفرسان البنادقة وهتافات الناس العشوائية كلما صاح بينهم من ينادي بحياة مجيدة للملكة، لم تشعر باقترابي منها حتى همست قريباً من أذنها محاولاً أن أجعلها تجفل:

- كنت أظنك داخل الكنيسة أيتها الملكة؟

ولكنها لم تتحرك قيد أنملة من مكانها وكأنها شمّت رائحتي عن بعد. قالت وهي تضحك:

- وكنت أظنك خارج الجزيرة أيها الحر.

قفزت فوق السور وجلست إلى جوارها، واستمرت هي في الكلام:

- أظنك أحببت الماغوصة ولا تحتمل فراقها، أليس كذلك؟

- هذه مشيئة الرب.

مدت يدها إلى داخل الزنبيل وأخرجت تفاحة ناولتني إياها وكأن رؤيتي لها يجعلها تفكر فوراً في إطعامي كما اعتادت ذلك طوال سنوات. تناولت التفاحة وقلت وأنا أشير بيدي جهة الكنيسة:

- ماذا تظنينهم يفعلون بالداخل؟
- أظنهم يتقاتلون أيهم يضع التاج على رأسها.
- ألن يضعه الأسقف؟

تجاهلت بانديكا سؤالي، وارتسمت على ملامحها الحماسة فجأة وقالت وهي تمسك ذراعي:

- أتعلم يا جرما؟ أنا لا أظنها تخرج من هذه الكنيسة على قيد الحياة.
- حقاً!

برقت عيناها بحماسة وهي تستطرد:

- .. ولهذا أنا هنا. لم أقطع كل هذه المسافة لأرى موكبها السخيف، ولكن لأرى دماً وقتلى وجياداً فزعة.
- ولكن لماذا؟ أنا لا أفهم شيئاً.

ابتسمت بجذل وكأنها تشتهي أن تقص عليّ ظنونها وقالت:

- هل رأيت هؤلاء الفرسان البنادقة؟ لم تشهد الماغوصة هذا العدد منهم قط. حتى في تتويج الملك جيمس. انظر، إنهم مدججون بالسلاح. سيفان خلف الظهر وخنجران في الساق، والرماة. أتراهم؟ انظر..

وأشارت بيدها إلى تلة خلف السور الذي نجلس عليه حيث بدا بوضوح صف من الخوذات الحديدية لرماة يراقبون باب الكنيسة. بدأت ألاحظ فعلاً أن المكان أشبه بساحة معركة ذات جيش واحد فقط

وكأن الجيش الآخر لم يصل بعد. ولكن أحداً من الناس لم يبد مترقباً لأمر ما سوى بانديكا. الجميع يهزجون ويمشون ويستعدون لاحتفال قد توزع فيه الملكة الجديدة طعاماً ونقوداً. شعرت أن بانديكا تخبئ سراً ما، فسألتها:

- ما الذي يحدث يا بانديكا؟ هل تنشب حرب؟

ابتسمت ولم تجب. نظرت في وجهي مثل أم فاجأها أن صغيرها كبر فجأة وصار يطرح أسئلة كبيرة، ثم قالت:

- ألم تقل لي إنك جئت إلى الماغوصة هرباً من حرب؟

- أجل.

- يا مسكين يا جرما. ستلاحقك الحروب أينما ذهبت.

- أي فأل سيئ هذا يا بانديكا.

- ليس فألاً سيئاً إنها نبوءة. عرافتي المفضلة أخبرتني أن هذا ما سيحل بك. كما أخبرتني أنك لا تزال في الماغوصة.

- بالطبع لا أزال في الماغوصة. الأمر لا يستدعي أن تسألي عرافة. لقد تركني أبوك دون قرش واحد في جيبي. كيف سأرحل؟

تنهدت بانديكا وهي تشيح بنظرها باتجاه الكنيسة وقد فاضت عيناها بحماسة غريب وهي تنتظر حدثاً كبيراً يدفع عنها الملل. بدا وجهها شديد البياض مائلاً للصفرة، وشفتاها اللتان تكادان تتماهيان مع بقية ملامح وجهها من فرط نحافتهما ترتعشان من حين لآخر، ووجنتاها قد برزتا بعض الشيء رغم سمنة لغديها. وقبل أن أكمل

تأملي في ملامح وجهها الذي لم أره منذ أشهر بعد أن اعتدته سنوات طويلة قالت لي:

- أشعر بالرضا أني علمتك الإيطالية يا عزيزي جرما. فسوف تصبح قبرص جزيرة بندقيّة قريباً.

- أنا أتعلم الفرنسية الآن في الدير.

همت أن تقول شيئاً قبل أن تقاطعنا أجراس الكنيسة وهي تدق بقوة تصم الآذان ونحن نجلس قريباً منها. ضحكت بانديكا وقالت بصوت عال لأسمعها:

- ها قد أصبحت ملكة، ولم يقتلها أحد. يمكنني أن أعود إلى البيت الآن.

- أتمنى أن أمشي معك إلى الحقل ولكني لا أرغب في رؤية أبيك!

- لا داعي لذلك. سأذهب وحدي، ولكن عليك أن تزورني يوماً ما.

- لن أزورك، ولكن ستزورينني في دير القمص بولس شمال الميناء.

- ربما أفعل يوماً ما. رغم أني لاتينية ولكني أتواضع أحياناً للهراطقة الطيبين أمثالكم.

وضحكت بصوت عال وترجلت من السور، ومشت وهي تضم يدها إلى صدرها في حين الأخرى تتأرجح مع حركة جسدها السمين. راقبتها حتى غابت في آخر الطريق. ثم، دون أن أدري لماذا، تبعتها.

تركت بيننا مسافة بعيدة فلم تشعر بي مع ازدحام الطريق بالمارة، ولكني علقت عينيّ بها وانهمرت في عقلي أفكار كثر. تمشي بانديكا وكأنها لا تبالي إذا عاشت أو ماتت، وصلت أو تاهت. تحاذي البيوت ثم بلا سبب تلامس جدرانها بإصبعها وترسم خطاً وهمياً حتى ينتهي الجدار. ثم تركل أمامها حجراً صغيراً مسافة طويلة ثم تقترب منه وتربت عليه بقدمها بوداعة. مشيتها تلك، لا مبالاتها الصارخة، هي التي دفعتني لأقترب منها أكثر. حتى خلا الطريق وصار وقع خطاي واضحاً. فالتفتت وراءها لتجدني واقفاً وأنا أبتسم. ابتسمت أيضاً ثم تابعت مشيتها حتى وصلت الحقل، واتجهت إلى البيت، ودفعت الباب وتركته مفتوحاً، وراءها دخلت، ووراءها مشيت، وفي حجرتها التي دخلتها من قبل مع بقية عمال الحقل ونحن نلاحق ثعباناً تسلل إلى البيت صرنا معاً وحدنا وقالت بانديكا:

- ظننتك لن تجرؤ أبداً.
- ظننتك لا تريدين البتة.
- كان بوسعك أن تسأل.
- وكان بوسعكِ أن تسألي.
- عندما تكون بلا أم فإنك تتعلم ألا تسأل أبداً.
- وعندما تكونين أجيرةً بالسخرة فإنك تتعلمين ألا تسألي أيضاً.
- هل رأيت ما الذي فوتّه علينا جبنك طوال سنوات؟
- لا، في الواقع أنا لم أر بعد، ولكني سأرى الآن.

مكتبة
t.me/t_pdf

وعندما خرجت من الحقل عائداً إلى الدير تمنيتُ لو أني لم أتبعها. شقّ عليّ أن أضربها كل هذا الضرب وهي التي كانت ترعاني مثل طفلٍ صغير، ولكن هي التي أرادت. أنا لم أرد سوى أن أجعلها تشعر بأنها جميلة ومطلوبة مثل الملكة كاثرين التي توجوها في الكنيسة، وهي أرادت أن تشعر أنها مهانة وملعونة مثلما يليق بابنة عاهرة تعيش في حقل بطاطس وشعير، وقد حدث هذا فعلاً، بعدد الخطوط التي تركها السوط الصغير الذي أعطتني إياه في ظهرها وكتفيها وعجيزتها. إلى جوار خطوط أخرى باهتة وقديمة لا أدري من الذي أحدثها من قبلي. ثم بعد ضربات عديدة، تناولت لحافها، وغطت نفسها به، وتكورت مثل جنين، وارتجفت. ثم نامت.

تقيأت عند باب البيت بعد أن خنقتني رائحة العرق داخل الحجرة المكتومة، ومشيت باتجاه الدير وأنا أشعر أن سنوات من السخرة في هذا الحقل لا بد وأن تنتهي بهذه الطريقة العجيبة. السنوات التي بدأت بسوط أبيها في ظهري وانتهت بسوطي في ظهر ابنته.

شيئاً فشيئاً عاد إلى ذهني صفاؤه مع نسمات الليل الوادعة، وهدوء الطريق إلى الدير الذي لا تقطعه سوى أصوات ثغاء بعيدة. وعندما دخلت والجميع نيام، تذكرت نذوري! ألم أنذر نفسي لحياة بتولية قبل أشهر قليلة فقط؟ لماذا لم أتذكر هذا إلا الآن؟ هل لأنها بانديكا؟ أم لأني لم أكن أعني ما يقول عندما تلوت النذور أمام الجميع؟ يبدو أني لست رجل دير ولم أخلق لهذا. ولم أسمع أي طرق في ضميري وقد كسرت رهبنتي أسرع مما توقعت.

حلب

١١

مرت الأيام الأربعة بسلام عندما قسّم سيمون ثرثرته على أهل السفينة ولم يقصرها عليّ. ظل البحر هادئاً والنسيم عليلاً والخبز الذي جلبناه معنا طازجاً. على ظهر السفينة، وفي طرفه الأخير، موقدٌ من الحديد محاطٌ بصفيح وافق ربان المركب أن نوقد فيه ناراً صغيرة نشوي عليها السمك الذي نصطاده. وفي صباح اليوم الخامس، استيقظت من النوم على صراخ الحجاج عندما تراءت لهم أرض كنعان. اصطفوا شطر اليابسة وركعوا جميعاً واختلطت الصلوات بالبكاء لقرب وصولهم إلى أرض الرب، وصلى سيمون معهم رغم أنه يقيم في هذا الجزء من العالم طوال عمره ولم يحج قط.

ولما كان ركوبنا البحر مريحاً وعظامنا بلا آلام، قررنا أن نباشر المسير إلى حلب فور نزولنا في طرسوس. استعاد سيمون بغلة أبي التي أعطاه إياها من حيث تركها في مربط البهائم في الميناء، وتناوبنا ركوبها طوال الطريق، وعلى أعتاب حلب بدأنا نرى الجراد. «يا رب حلب!». هتف سيمون وكأنه فوجئ بالجراد باقياً بعد. ثم أطرق وداعب رأس بغلة أبي وقال بحزن:

- كأن هذا ما ينقصها. حصارات وطواعين وغلاء ومجاعة وجراد.

شعرتُ بحرقته فعلاً رغم أن كلانا لم يكن قد ولد بعد عندما كانت أحوال حلب أسوأ. أبت أن تستعيد عافيتها بعد تيمورلنك وهي على حافة الحدود بين سلطان المصريين وسلطان الترك، وقبائل التركمان التي لا يشبعها شيء، وقطاع الطرق الذين يترصدون الحجاج المسيحيين والمسلمين في طريقهم إلى أورشليم ومكة. هكذا تركت حلب، وهكذا أعود إليها. لم يتغير شيء وكأني رحلت البارحة.

قال سيمون وهو يهشُّ من ثوبه جرادة عالقة:

- لا بد أن السمرمر لم يصل بعد!

التفتّ إليه مستفهماً فاستطرد بحماسة:

- أرسل المسلمون وفداً من الصالحين إلى أصفهان ليجلبوا طائر السمرمر، لا يبدو أنهم قد عادوا بعد. أو أنهم عادوا ولم يعد معهم الطائر.

- ربما لم يكونوا صالحين بما يكفي!

- أنت لا توافق. نعم. إنهم يسخرون منهم كثيراً، ولكن لعلمك لم يذهب المسلمون فقط. لقد رافقهم بعض المسيحيين.

- مسيحيون؟ وما الذي يذهب بهم؟

يهزّ سيمون كتفيه بلا دراية ويقول:

- لا أدري! ربما ليختار الطائر الدين الذي يريد. المهم أن يعود معهم ويأكل هذا الجراد اللعين.

- سيرحل الجراد عندما ينتهي الموسم. هذا كل شيء.
- وما أدراك أنت؟ تقول إن الجراد لا يأتيكم في قبرص.
- بل يأتينا. ولكن لا يجب أن أقول لك كل شيء.

هذا ما لم أجد داعياً لأن أفسره لسيمون الثرثار، ولم أخبره أيضاً عندما كنا في الدير أن ليس لدينا سلطان بل ملكة، وأنها تأخذ نصف محصول الأرض كضريبة كل موسم. لا يكاد يطلّ علينا يوم الخريف الأول إلا ويكون الجباة في الحقل قبلنا بعربات فارغة تنتظر أن نملأها لهم بالحنطة والشعير والزبيب وما عصرناه من نبيذ طوال الربيع والصيف، وعندما نتحسر على مرأى العربات الممتلئة وهي تغادر على وقع أنين العجلات والسياط التي تلهب ظهور البغال نتبادل كلاماً مؤنساً مثل هذا «كل هذا ليس لها منه إلا القليل. سيبيعونه في السوق وتذهب النقود إلى جيوب تجار البندقية، وما تبقى إلى سفينة الجباة المصريين الذين يأتون أيضاً كل خريف ليقبضوا ضريبتهم».

ولكننا في الدير نتسلى بالمحبة التي توحد قلوبنا وتنسينا أن جهد كل يوم من أيامنا يتقاسمه البنادقة والمصريون إلا قليلا. كل هذا من أجل أن تظل قبرص آمنة مثل غزال ضعيف ترصده عيون الوحوش الثلاثة المصريون والأتراك والجنويون. فهذه السواحل التي نتنزه حولها كل عيدٍ سبق لها أن رأت كل ألوان السفن الممكنة. غزاة وقراصنة وتجار ومتطفلين وجواسيس، وفي كل يوم تلوح فيه صارية سفينة على بعد يبتهل القبرصيون ألا تظهر إلى جوارها صوار أخرى. صارية واحدة هي

سفينة بريد أو جباة. صاريتان أو ثلاثة هي سفن تاجر ما. خمس صوار أو ما دون ذلك لا بد أن يكونوا قراصنة. عشر صوار فما فوق هو جيش من لا يريد بنا خيراً.

أطرق سيمون بصمت. ثم قال فجأة وكأنه نسي ما كنا نتحدث عنه:

- هل تبدو لك الأشياء أصغر؟ يقولون إن الذي يغادر المكان صغيراً ويعود كبيراً يتخيله أكبر مما كان؟ هل حدث هذا معك؟

تأملت الطرقات والحوانيت والبيوت والأسواق من حولي فلم أشعر أنها صارت أصغر ولا أكبر، ولكنها صارت أكثر خواءً.

- أين يذهب الناس يا سيمون؟

- أين يذهبون؟ أنظر إليك.. أين ذهبت أنت؟ إنهم يرحلون. من حجّ لا يعود، ومن غادر في تجارة يعود ويأخذ أولاده.

كان صوته حزيناً وهو يقول ذلك، ولكن حزنه لا يطول، وسرعان ما تمسحه عن وجهه الفكرة القادمة التي تطرأ على ذهنه مثل موجة تمسح الرمال وتعيدها كما كانت، وهذا ما حدث فعلاً بعد ثوان قليلة عندما هتف فجأة:

- أتعرف؟ يقولون إن البغال لا تنسى. لندع بغلة أبيك تتجه إلى بيتكم وحدها.

- ولكني أعرف الطريق إلى بيتنا.

- دعها دعها.. لنرى فقط. سيكون شيئاً طريفاً!

سارت البغلة في اتجاه بيتنا قليلاً من الوقت ثم تبعت خيطاً ضئيلاً

من العشب ينمو على جانب الطريق في اتجاه آخر وهي تهش بفمها الجراد العنيد. فالتفتُّ إلى سيمون الذي بدا مستاءً من فوات فرصة حكاية طريفة سيحكيها للناس. أما أنا فقد نهضت ملامح حينا المقترب بذاكرتي الكسيحة.

فارقني سيمون فنزلت عن بغلتي وسحبتها ورائي داخل الحي. تناهى لسمعي أصوات جارات يتحدثن من وراء سجف: «جرمانوس عاد!»، وتراءى لي أخيراً باب بيتنا الموصد وعليه جرادة بائسة تحركت من مكانها وأنا أدفع الباب وأدخل البيت. زوجة أبي طابيثا واقفة في صحن الدار وفي يدها إناء مملوء بالماء إلى منتصفه تنظر إليّ بوجه مندهش.

في الليل أشعلت طابيثا ناراً في فناء البيت الضيق وجلس أبي متشحاً بالصوف لا يظهر منه إلا رأسه الصلعاء وقد بدت عيناه أكثر غوراً من أن تلمع فيهما ألسنة اللهب كما تفعل في عيني طابيثا الدامعتين دائماً. اقتسمنا الخبز الذي خبزته طابيثا على النار وصلينا معاً وأكلنا ونحن نتكلم كلاماً كأنه الصمت، وبعد أن ابتلع أبي لقمته الأخيرة قال:

- عليك أن تلتقي الأخ طونيوس. إنه يعدك بعمل.

- ألهذا أرسلت في طلبي؟

- أجل.

- ألم يكن من الممكن أن تذكر لي ذلك مع رسولك الأبله؟

صمت أبي ولم يجب، وتوقفت طابيثا عن جمع فتات الخبز في

كفها ونظرت في وجهي بدهشة. ثم التفتت إلى أبي وقالت بحنق مشوب بالخيبة:

- ألم تخبره؟

أطرق أبي وعقد حاجبيه وقال:

- ماذا أخبره؟ هاهو يرى بعينيه.

نظرتُ إليها مستفسراً فأشاحت بوجهها ثم زفرت والتفتت جهتي وقالت:

- هذا البيت لم يعد لنا.

مدّ أبي رجله ببطء وركل طابيثا في جنبها. قامت من مكانها وغابت وراء باب غرفتها. ثم قال أبي:

- الأمر كما قالت. ليس عندنا بيت. إنه مرهون.

- ولم رهنته؟

- ما شأنك أنت؟ أبيتي هو أم بيتك؟

- ولماذا تجلبني من قبرص إن لم يكن هذا من شأني؟

- كم أنت وقح وجاحد. أتطيب لك الحياة وأبوك بلا سقف؟

- لم رهنت البيت؟

- لا يهم. مرهونٌ لرجلٍ صالح. لقد أرجأنا حتى تعود، وها قد عدت. ستذهب إلى طونيوس فور عودته من حمص، وسيخبرك ما يجب عليك فعله.

اتكأ بيديه على الأرض ووقف بصعوبة، ولما اعتدل واقفاً قال:

-   أحقاً أنك كنت تعيش في دير؟ أرسلتك لتعمل وتتولى شؤوننا فعشت تأكل وتنام مثل البهائم المريضة؟

تجاهلت عبارته وقلت له:

-   سأنتظر عودة طونيوس من حمص، ولكن عليك أن تعلم أنه لا يجب عليّ أي شيء.

-   جاحد. قلت لك إنك جاحد!

قفزت من مكاني وحلت بينه وبين غرفته وقلت:

-   أين ذهب المال الذي قبضته من دنيانو؟

-   لم أقبض مالاً.

-   حقاً؟ تعني أني عملت في الحقل لخمس سنوات دون مقابل؟

حاول أن يميل قليلاً ويتجاوزني ثم عاد ونظر إلى وجهي وقال:

-   أي مال؟ أتسمي تلك الحفنة مالاً؟

-   لماذا عقدت معهم تلك الصفقة الخاسرة إذن؟

فرك رأسه الصلعاء بيديه وهو يصرخ:

-   أجننت! أأتركهم يزجون بك في حربٍ بين المسلمين بلا جدوى؟

صرخت بأعلى من صوته:

-   ولماذا لم تخبرني بما كنت تنويه؟ لماذا؟

-   ولدٌ طائشٌ مثلك ينام حتى الظهيرة. كيف أقنعك بالعمل مزارعاً؟ ها أنت وقد كبرت خمس سنوات ما زلت عاجزاً عن الفهم.

شعرت برغبة عارمة في ضربه ولكني تحركت ورحت أدور في فناء البيت وقد تحجرت الغصة في حنجرتي وبدأت دموعي تسيل. أكمل هو طريقه باتجاه غرفته وهو يغمغم:

- ما أتعسني في هذا العمر! لا مال يكفيني ولا ولد يعينني على هذه الحياة..

ثم التفت نحوي وصاح ملوحاً بيده قبل أن يدخل غرفته:

- اذهب إلى طونيوس أو لا تذهب. لقد فعلت لأجلك كل ما بوسعي.

- لقد فعلته لنفسك.

ألقى عليّ نظرة أخيرة قبل أن يبصق على الأرض ويغيب داخل غرفته ويغلق الباب.

١٢

وصلت قافلة السمرمر. خرج في استقبالها جموع الذين يؤمنون بالطائر والذين لا يؤمنون. يتقدمهم شيوخ المسلمين ثم فرق صغيرة من حملة الأعلام والمزاهر والمباخر وطبول الباز. خرجتُ مع زمرة من رجال حينا نتفرج على ما يحدث، وكنت سأخرج وحدي لولا أنهم أخبروني أن ضرب المسيحيين في الشوارع صار يحدث كثيراً هذه الأيام، لاسيما والأنفس في شحناء والنفوس في حزن والجراد يأكل كل شيء.

في القافلة بضع عشرات من الرجال يحملون فوق رؤوسهم أواني مختلفة الأشكال كلها مليئة بماء السمرمر. هذا يحمله في إبريق وهذا في طست وأغلبهم في قِربٍ من الجلد، ولما اقتربوا من وسط المدينة حمل فارسان إناءً فوق رمحيهما ورفعاه عالياً. وأمست حلب وفوق كل مئذنة من مآذنها إناء من ماء السمرمر، ولم يأتِ الطائر ولا رآه أحد، ولكن الجراد انقشع ببطء بعد أن أكمل دورة حياة كاملة وظن الظانون أن السبب في ماء السمرمر وأن الطائر يأتي ليلاً.

يؤمن طونيوس بذلك، وأبي يقول إننا سنصبح يوماً ونجد طونيوس مسلماً لكثرة ما يتفق معهم في معتقداتهم. بل إنه يعيش بينهم وبيته محفوفٌ ببيتين مسلمين وهو أقرب للجامع من الكنيسة، وبالتأكيد لم

يلبس طونيوس صليباً منذ سنوات، ولا نراه في القداس الأسبوعي إلا لماماً، وكل ما حصرته أسئلة المتطفلين من المسيحيين أو المسلمين تملص منها بسلاسة الصابون الذي يتاجر به بين أضنة ودمشق مع تجار مسلمين بعقود إسلامية.

ولكنه رغم هذا كله ظل يحتفظ بمكانته بين المسيحيين، رغم أن عددهم القليل يجعل من السهل أن يحوز أي رجل يملك قليلاً من التجارة المكانة التي يريد. الكنائس قليلة والصدقات أقل. بالإضافة إلى أن حذقه وتجارته الجيدة نالت إعجاب المسلمين ومكنت له صداقات عديدة بينهم، وصار نائب السلطان يعرفه شخصياً، ويستحم بصابون معطر فريد يعده له طونيوس خصيصاً.

تأملته وهو يفاوض زبائنه في محله بأطيب ما يكون من الكلام. لا يمدّ إليه أحدٌ نقوداً إلا قال «آه. إن فضلك عظيم. ليتك لا تدفع!»، وعندما تشتري منه امرأة يضع في زنبيلها لوح الصابون الذي اشترته مع حفنة من الزوائد الصابونية التي تتساقط أثناء التقطيع. فيجمعها ويضعها في صرر قماشية صغيرة، ويقول لها «انقعيها في ماء مخلوطٍ به قليل من المسك واجلسي عليه جلسة الدجاجة على بيضها»، والتفت نحوي وكأنما يعرف أني سأتساءل عن ذلك. فقال:

- أنت لم تتزوج بعد. ستعرف عندما ترتكب هذا الفعل الشنيع أن لا مناص من صابون طونيوس.

ارتفع أذان المسلمين من الجامع القريب فأسدل طونيوس ستارة

على مدخل محله وجذب سلال الصابون إلى الداخل. ثم جلس إلى جواري أخيراً يفرك كمّ قميصه بكمّه الآخر من أثر اتساخ طفيف لا يرى. علمت أنه قد حان الوقت ليحدثني بالشأن الذي استدعاني أبي له من قبرص. فثبّت نظري على وجهه وانتظرت أن يتكلم. فقال:

- أخبرني. كيف كانت أحوالك في قبرص؟

- أحوال ناسك في دير. نزرع ونقرأ..

- لا شك. انظر إلى ساعديك المفتولين. لم تكونا هكذا عندما تركت حلب، وانظر إلى كفيك. كفا فلاح قوي.

نظرت إلى كفيّ وكأني لم أرهما من قبل. ثم ابتسمت وقلت:

- لعل الرب ينظر إليّ بعين لطفه وبركة إحسانه.

- لقد فعل.. لقد فعل.. اسمع يا ولدي. هل تعرف أني أعدّك ولداً لي؟ لم أرزق بأولاد، ولكن البنات خير ذرية لتاجر الصابون. إنهن يبتكرن أصنافاً ما كنت أعرفها عندما بدأت في تجارتي. لو جئت مبكراً لرأيت كيف ينهرنني في هذا المحل وكأني صبي يعمل فيه لا أباهن!

وارتفعت ضحكاته مع نهاية الجملة، وفي الوقت نفسه، انقبض قلبي خشية أن يكون سيعرض عليّ إحدى بناته للزواج. إن كان هذا ما أخرجني لأجله من ديري الوادع في قبرص وعاد بي إلى حلب فسيكون عسيراً عليّ أن أقسم غضبي بينه وبين أبي. من يستحق أكثر؟ عقدت حاجبيّ وبدا واضحاً أنه لاحظ ملامح الانزعاج على وجهي. فاستدرك سريعاً بحذق التاجر:

- لقد وضعني الرب في طريق تجارة حوالي أضنة، وتعرفت إلى أناس من علية القوم هناك وصار بيننا مودة وألفة، وقريباً جداً ربما يزورونا في حلب..

- وما علاقتي أنا بالأمر؟

زمّ طونيوس أطراف أنامله الخمسة مع بعضها وهز يده حاثاً إياي أن أصبر ولا أتعجل الكلام، وقال:

- إنهم من علية القوم يا جرمانوس. افهمني جيداً عندما أقول لك من علية القوم، وإن العمل معهم كفيل بأن يجلب لك الخير والرزق فتساعد أباك في محنته.

- تريدني أن أعمل معهم؟ ماذا أعمل؟

- هل فكرت أنك تملك في عقلك أكثر مما تملك في يدك؟ لقد مضى الزمن الذي تولت فيه يداك إطعامك وحان الوقت يا بنيّ أن يتولى عقلك المهمة.

الطريقة التي يتكلم بها طونيوس غريبة حقاً. له تأثير عجيب. إنه يستحق الآن أن أنفجر في وجهه غضباً على ما فعله بي. كيف يستدعيني من قبرص ليعرض عليّ عملاً لا أحتاج إليه بصحبة أناس لا أعرفهم؟ وكيف أقنعَ أبي بهذا؟ وكيف تسنى لأبي أن يبعدني عن حلب حين لم أرد ويعيدني إليها حين لا أريد؟

ولكن طونيوس يعرف كيف يكون مؤثراً ومقنعاً، وهذا لم يخفف من غضبي الذي يتزايد في داخلي ولكنه بالتأكيد جعلني أؤجل ثورتي

حتى أستزيد مما لديه. ففي هدوء كلماته وضغطه بإصبعه على ركبتي وهو يتكلم ما جعلني أشعر أن ما يثير اهتمامه إلى هذا الحد سيثير اهتمامي أيضاً.

- حياة الدير هادئة ووادعة. أعرف ذلك. لقد جربتها بنفسي عندما كنت في عمرك، بل ربما كنت أصغر منك، ولكن يا بنيّ أتعلم أن...

قاطعته قبل أن يكمل الكلام الذي أتوقعه منه وقلت:

- وماذا يريدونني أن أعمل معهم؟

- ترجماناً..

- بأي لغة؟

- من التركية إلى العربية.

نهضت واقفاً وقد حان وقت ثورتي وصحت به:

- أنت تتحدث اللغتين ونصف من يعمل في هذا السوق أيضاً، وصبية المسلمين يتحدثونهما. أيعقل أن تجعلني أقطع بحراً وبراً من أجل أن أترجم لتركٍ لا أعرفهم؟

هب طونيوس واقفاً واقترب مني وهو يقول صاراً على أسنانه:

- يا بنيّ. قلت لك من علية القوم.. من علية القوم!

- حتى ولو كان سلطان الترك نفسه!

أوليته ظهري وطوحت بالستارة التي تغطي باب المحل خارجاً وسط دهشة امرأة تهمّ بالدخول. تبعني طونيوس وصاح بي:

- جرما.. جرما.. جرمانوس!

مضيت في مشيي السريع أكاد أترك حفراً صغيرة في مواطئ قدميّ من فرط الغضب، في حين لحقي بي طونيوس وهو يناديني. ومع رجرجة جسده الضخم وانقطاع نفسه بدت نبرة الرجاء واضحة في صوته وهو يقول:

- أرجوك! اسمع مني آخر كلمة فقط..

التفتُّ إليه وصحت بغضب:

- نعم!!

وقف طونيوس، والتقط أنفاسه قليلاً وأنا أنظر إليه بنفاد صبر. ثم فرج ذراعيه باستسلام وقال:

- إنه كما قلت.. سلطان الترك نفسه!

١٣

حين لاحت قلعة حلب عن بعد شممت دماء السلاحف وسمعت نقيق الضفادع. ذلك لأن أقرب ما كنته منها كان في تلك الأيام التي ينحسر فيها الماء عن قاع نهر قويق وتنكشف السلطعونات والضفادع والأسماك النهرية والسلاحف، وتلك الأخيرة كنا نجمعها في الزنابيل ونبيع العشرة منها بدرهم على عجائز حي الاسفرس حيث يتبرك في عموده المصابون بعسر البول، وعندما أستبدل ما في زنبيلي بحفنة الدراهم القليلة كنت أقف قليلاً لأشاهدهم يكسرون صدفاتها ويفصدون دمائها ليعالجوا بها المصروعين.

هذه المرة تجاوزت النهر باتجاه القلعة أنا وأبي وطونيوس من أجل حفنة دراهم أخرى. لم أدخل القلعة من قبل غير أني -كسائر أهل حلب- أكاد أعرف كل ركن داخلها من فرط ما نتحدث عنها صباح مساء. حكاياتنا كلها في القلعة وعنها وأيضاً أحلامنا ومخاوفنا. عبرنا البوابة وقد أرهق المشي أبي الذي أصر على التنازل عن عكازه. حاول أن يبدو نشيطاً فحرك يديه أثناء المشي أكثر من قدميه فبدا وكأنه يركض ماشياً. قبل خروجنا من المنزل حممته طابيثا وكحلت عينيه وألبسته ثوباً نظيفاً ومنطقته بحزام لم أره عليه منذ سنواتٍ طويلة، وعندما خرجا من الحمام وهو بهيئته الجديدة قال لي:

- أبقيت لك ماءً كافياً. ادخل.

ناولتني طابيثا ما تبقى من قطعة الصابون ودخلت.

هناك في القلعة قادنا الحارس إلى المكان الذي يستقبل النائب فيه ضيوفه، ومذ اقتربنا منه لاحت لنا حاشية سلطان الترك بستراتهم المطرزة القصيرة وأحزمتهم القماشية المنتفخة وخليط قبعاتٍ وعمائم. وقفنا قريباً منهم في غرفة تطل على غرب حلب أكاد أرى حينا منها، ورحت أسمع كلماتهم التركية التي تتناهى إلى سمعي رغم انخفاض أصواتهم فإذا فيها سفينة وخريطة ومماليك. لم يبد أن أحداً انتبه لدخولنا بعد أن غادر الحارس الذي قادنا. تقدم طونيوس حتى صار قريباً من حاشية السلطان ليسألهم عنه في حين جلس أبي الذي أنهكه التعب على الأرض، ومد ساقه وراح يدلك ركبته بيده، وتند من فمه أنات خافتة.

تمكن طونيوس أخيراً من لفت انتباه أحد الحاشية بعد أن نقر على كتفه وسأله بالتركية عن السلطان. خفتت أصوات الحاشية فجأة وتوقفوا عن الكلام والتفتوا جميعاً جهة طونيوس الذي ما زال ينتظر جواباً لسؤاله، ثم نظروا إلى أبي الجالس على الأرض وهو يمرر يديه على ساقيه معاً، ثم تراجعوا جميعاً خطوات عن الدائرة التي كانوا منكبين عليها ليظهر من بينهم وجه شابٍ شديد البياض يرتدي عمامة ضخمة كأنها سحابة حطت على رأسه. نظر إلى أبي كأن ليس في الحجرة إلاه. انتبه أبي لنظرات عينيه الزرقاوين وهي تخترقه فكفّ عن التأوه ونظر

في وجه الرجل الجالس، ومرت ثوان قبل أن يتقدم طونيوس ويتناول كف الشاب بين يديه ويقبلها قائلاً «مولاي السلطان».

في تلك اللحظة شعرت أن الزمن عاد بي إلى حين دخولنا من باب الغرفة. نعم، إنه مجلس السلطان، وبين يديه حاشيته يحدثونه في شؤون رحلته، وما إن لفتنا انتباههم حتى فوجئوا برجل مسنّ يجلس على الأرض، وشاب آخر يقلب وجهه في المكان بتوجس وحذر، والشخص الوحيد الذي يعرفونه يقبل يد السلطان. أيعقل أن يكون الوصول إلى سلطان الترك بهذه السهولة؟

وقف السلطان وهو يسحب يده ببطء من يد طونيوس ويحدق إلى أبي ببرود ثم مشى ببطء تجاهه. تجمد أبي في مكانه للحظات قبل أن يحاول الوقوف بسرعة، وضع يديه على الأرض ورفع عجيزته عالياً وثبت على حاله للحظة، ثم أكمل وقوفه بأن أسند كفيه على ركبتيه واستوى قائماً أخيراً ليجد وجه السلطان على قيد أنملة من وجهه. فارتد إلى الوراء بلا وعي حتى التصق بالحائط الذي وراءه وكأنه شعر أن السلطان على وشك أن يصفعه، ولكن السلطان أمسك كف أبي وصافحها وقال بلغة عربية ذات لكنة تركية ثقيلة:

- أأنت الترجمان؟

لم يبد أن أبي سمع ما قاله السلطان. ظلّ يحدق إليه وظهره ملتصق بالجدار ويده في يده وعيناه الكحيلتان مفتوحتان على اتساعهما. ثم قال بوجل:

- أنا؟

أومأ السلطان برأسه، وأعاد سؤاله:

- نعم، أنت. أأنت الترجمان؟

- لا لا، أنا أبوه.

وهنا تحرك طونيوس من مكانه السابق، ومشى بخفة وقد حنى ظهره قليلاً وتحرك كعصفور يقفز حتى وقف بين أبي والسلطان وقال وهو يشير بيده جهتي:

- ترجمانكم يا مولاي السلطان. جرمانوس.

ترك السلطان يد أبي فسقطت إلى جواره وكأنه لم يعد قادراً على حملها واتجه ناحيتي وحدق إلى وجهي باهتمام شديد ثم قال فجأة:

- بونجور!

- بونجور مولاي السلطان!

ابتسم عندما سمع إجابتي الفرنسية وربت على كتفي وكأني قمت بعمل جليل. بدت أسنانه صغيرة ومنتظمة وشفتاه صغيرتين ذات لون ليس ببعيد من لون بشرته البيضاء حتى لا ترى بسهولة ذلك الخط الذي تبدأ منه الشفة في وجهه الحليق بعناية. أنفه دقيق وطويل مثل سيف مع احمرار طفيف حوالي منخريه. أما عيناه فزرقاوان كما لم أر زرقة كهذه من قبل. مشى عائداً إلى كرسيه ثم التفت قبل أن يجلس وقال باسماً بالتركية:

- أنا لا أعرف من الفرنسية إلا هذه الكلمة.

افتعل بعض أفراد حاشيته ضحكات مكتومة وقصيرة لمجاملته في حين أكمل كلامه قائلاً:

- ولولا السلطانة الوالدة لما كنت تعلمتها.

ساد الصمت بعد أن استوى السلطان على كرسيه ثم قال لي:

- ماذا تتحدث غير الفرنسية؟

- العربية والإيطالية يا مولاي.

هتف أبي قائلاً:

- والسريانية أيضاً، وهاهو يتحدث التركية...

قبض طونيوس على كف أبي واعتصرها وهو يقطع كلامه قائلاً:

- مولاي السلطان يسأل جرمانوس.

امتقع وجه أبي وهو يلاحظ أنه ارتكب الخطأ الثاني منذ دخوله إلى هذه الحجرة وبعد جلوسه على الأرض. طأطأ رأسه وسكت. في حين لم يلتفت السلطان إلى هذا كله، وظل ينظر جهتي باهتمام. فقلت له:

- أنا أتحدث العربية والتركية والسريانية منذ طفولتي.

- وأين تعلمت الفرنسية؟

- في قبرص تعلمت الفرنسية في دير رهبان، والإيطالية في حقل إيطاليين.

- تقرأ وتكتب؟

أومأتُ برأسي علامة الإيجاب وبقيت صامتاً. علق السلطان عينيه على وجهي وكأنه لم يفهم. لكزني طونيوس في ساعدي برفق وهمس:

- أجب.
- أجبت!
- أجب بلسانك لا برأسك!

نظرت إلى السلطان الذي بدا وكأنه يتفق مع طونيوس رغم نظراته الجامدة التي لا توحي بشيء وقلت:

- نعم. أقرأ وأكتب

هز السلطان رأسه بقبول وهو ينقل بصره بين حاشيته الذين كرروا هزة رأسه تماماً. ثم أشار إلى أحدهم فحمل صندوقاً صغيراً من الأرض وفتحه وقدمه للسلطان الذي مد يده داخله وأخرجها برقعة مطوية من الورق وقد بدا عليها آثار ختم شمعيّ مهتوك، ولوح بها أمامي لكي أتقدم. فمشيت جهته محاولاً تقليد مشية طونيوس السابقة دون أن أدري لماذا حتى وقفت قريباً منه. ناول الورقة لرجلٍ مسنٍّ يقف إلى جواره وقال:

- اقرأ بصوت عال، نصوح باشا.

فضّ نصوح باشا الرسالة وبدت أحرفها اللاتينية واضحة وكبيرة لي من حيث أقف، وقرأ بصوت متهدج متلاحق الأنفاس:

«السلطان المجيد جم. مع مقدارٍ لا يمكن تمثيله من المودة الخاصة لك، فقد كان لنا عظيم الشرف أن أتحت لنا سماع رغباتكم، وسيكون لنا أضعاف هذا الشرف إذا أنت سمحت لنا أن نلبي طلباتكم...»

أشار السلطان بيده فتوقف نصوح باشا عن القراءة. ثم أشار مرة أخرى بيده نحوي وقال:

- هيا. ترجم.

التفتّ جهة أبي وكأني أنتظر موافقته. نظر إليّ برجاء لم أره في وجهه منذ عرفت أنه أبي وأني ابنه. أما طونيوس فقد ابتسم ابتسامة واسعة وكأنه على يقين من نجاحي في هذا الاختبار المفاجئ. رفعت رأسي ونظرت إلى السلطان. فوجدت وجهه جامداً لا تقرأ فيه علامة سخط ولا رضى. فترجمت له ما سمعته بالتركية، فأومأ برأسه وابتسم ابتسامةً طفيفة، وأمر نصوح باشا أن يتابع القراءة فقرأ:

«إن مملكتنا في رودس سيكون لها شأنٌ عظيم إذا وطأتها حوافر خيلكم بعيداً من أولئك الذين يبحثون عن اقتناص روحكم من الظالمين، أمثال أخيكم. لقد ضاعت روائح سمعتكم حتى بلغت جزيرتنا، وصارت رغبتي في صداقتكم وخدمتكم أكبر من البحار والبلاد التي ستقطعها في طريقكم إلينا، ومن أجل الله ولك سوف نكون في غاية السعادة إذا رست سفينتكم في مينائنا بسلام. صديقكم المخلص لك. بيير ديبواسون».

١٤

تجنب طونيوس التقاء أعيننا طوال الطريق مذ غادرنا غرفة السلطان بعد أن قبلنا يديه الناعمتين حتى بلغنا حجرة أبي وأضجعناه في فراشه وهو يتأوه من قدميه المتورمتين، والحقيقة أنه لم يكن لديّ ما أقوله له في أول الأمر. ذهني مشتتٌ ومشاعري مختلطة. أبهرتني أناقة السلطان وبذخ الحجرة التي لقيناه فيها. حتى الجدران ألبسوها ستائر مطرزة تشبه ثيابهم، والآنية التي يشربون منها مزخرفة بألوان وطيور، ورائحة السلطان لم أشمّ مثلها منذ ولدت. هل يعني عملي لديه أني سألبس ثياباً كثيابه وأشرب في آنية كآنيته؟ وسيكون لي غرفة بستائر وتضوع من ثيابي رائحة لا تذهب؟ إن حاشيته لا يقلّون عنه في لباسهم، ولكن هل أصير من حاشيته الأقربين أو الأبعدين؟

وعندما بلغت أفكاري هذا الحد شعرت بالحنق على طونيوس الذي لم يتح لنا أن نتحدث مع السلطان مدة أطول. كنت لأسأله عن طبيعة هذا العمل. ثم عن هذه الرسالة التي قرأتها. هل يريدني أن أرحل معه إلى رودس؟ هكذا يبدو الأمر واضحاً. إن فرسان الهيكل يدعونه إلى جزيرتهم وهو يسألني إن كنت أتحدث الفرنسية. هو لم يجلبني من قبرص لأترجم له رسالة واحدة؟ وأين تقع رودس هذه؟ كم سفينة وكم بحراً؟ وفي أي اتجاه؟ ومتى سنعود منها؟ كل هذه الأسئلة كان

يمكن أن أحظى بإجابتها لولا أن طونيوس قطع ذلك كله وانكب على يد السلطان يقبلها ودفع بنا إلى خارج الغرفة وكأنه يخشى أن نقول ما يكره السلطان فيؤاخذه بكلامنا.

قبل أن يغادر بيتنا قال:

- حسناً يا ولدي جرمانوس. لقد قمت بما عليّ أن أقوم به. القرار لك الآن.

وهمّ بالانصراف ولكني تشبثت بعضده ليتوقف وقلت له وأنا أحاول أن أكتم حنقي:

- لقد قلت إنه سلطان الترك!

أفلت طونيوس عضده من يدي وتنهد بعمق ثم قال وهو مطرق:

- لقد كان سلطان الترك فعلاً.

ثم فتّش في جيوبه فجأة وكأنه تذكر شيئاً. أخرج صرة نقود وفتحها وفتش في النقود التي بداخلها حتى التقط أحدها بين إصبعيه ورفعه في ضوء النهار وأغلق إحدى عينيه وحدق إلى القرش بعناية ثم مده جهتي وقال:

- انظر! هذه عملة سُكَّت باسمه في بورصة قبل سنة واحدة فقط. هل صدقتني الآن؟ حتى خطب المسلمين في الجمعة كانت باسمه هو، وليس باسم أخيه.

- كان بوسعك أن تقول لي ببساطة إنه كان سلطان الترك، ولم يعد سلطانهم الآن.

أعاد القرش إلى صرته وأحكم إغلاقها، وبدا أنه استسلم وارتسمت على وجهه ملامح من لا يبالي وقال:

- إنه سلطان بلا سلطنة يا جرمانوس، ولكنه قد يعود في أي وقت. المصريون سيدعمونه بجيوشهم وفرسان الهيكل أيضاً. ألم تقرأ رسالتهم بنفسك؟ غداً يصبح سلطاناً في إسطنبول ولن ينسى الذين وقفوا معه في محنته.

ثم أولاني ظهره وهو يقول:

- .. وربما لن ينسى أولئك الذين رفضوا العمل معه!

بقيت أتأمل ظهره وهو يبتعد حتى اختفى في آخر الطريق. ثم دخلت البيت وقصدت حجرة أبي لأجده يأكل في حين طابيثا تفرك قدميه بالزيت، وفمه يتأوه ويمضغ في الوقت نفسه. جلست إلى جواره وأسندت ظهري على الجدار، وقالت طابيثا:

- هل تريد أن تأكل يا جرمانوس؟ يوجد خبز وزيت.

- نعم، شكراً طابيثا.

انصرفت فوراً وعادت بقطعة خبز وإناء الزيت ووضعتهما أمامي، وضع أبي نصف خبزته فوق خبزتي وقال:

- أكمل هذه. لقد شبعت.

رحت آكل وأمضغ ببطء وعقلي يعمل بسرعة. هل يجب أن أقبل بهذا العمل؟ تبخر حنقي على طونيوس ولم أعد أشعر أنه خدعني. ماذا كان ليفعل؟ لو أنه أخبرني منذ البدء أنه سلطانٌ مخلوع وطريد

لما كنت سأقبل بالذهاب إليه مهما كان الأمر. لا أشعر بالحنق حتى تجاه أبي، ولو أخبرني بما يريد برسالة يحملها سيمون لما كنت عدت. الآن يبدو الأمر مستحقاً للتفكير. إنه سلطانٌ سابق بالفعل ولكنه لا يزال يملك أموالاً طائلة وسيعطيني ما أطلبه، وسيعود البيت إلى أبي، ولكنه سيرحل الآن إلى رودس؟ ما الذي ينتظرنا هناك؟ مسيحيون أهلها كما أعلم ولكن هل يكفي هذا؟

انصرفت طابيثا إلى الداخل في حين غرقتُ في التفكير. يبدو أن أبي أومأ لها لتنصرف. جاء صوته ضعيفاً وواهناً ولكنه عميق وهادئ وهو يقول:

- اسمع يا ولدي!

رفعت إليه عينين حائرتين، فأكمل كلامه:

- لقد نشأت فقيراً وكبرت فقيراً، وما عدت أهتم لو مت في مكاني هذا أو فوق جبل من الذهب..

ثم أسند ظهره على الجدار ومد رجله الأخرى إلى جوار الأولى وقال:

- ولكني كنت أتمنى أن أورثك شيئاً من المال كما يفعل الآباء وما استطعت. حتى هذا البيت لن يبقى لك. حتى بغلتي ستموت قبلي أو بعدي. لا شيء يا ولدي. لو لم يكن لك أب.. ربما كنت أفضل حالاً..

واستعبر وهو ينطق جملته الأخيرة. تهدج صوته وخفت، وقفزت

من عينه دمعة سريعة لتسيل بشكل غير منتظم بين أخاديد وجهه المتغضن. وضعت يدي على ركبته التي ما زالت مدهونة بالزيت ورحت أفركها له بلطف وقلت:

- لقد فعلت كل ما بوسعك وكنت خير أب، وسيجزيك الرب على ذلك خير الجزاء.

تنفس أبي بعمق وتمالك نفسه واستعاد صوته وقال:

- لم يكن بوسعي أن أفرط في هذه الفرصة عندما حدثني عنها طونيوس. نعم، لقد تعمدت ألا أخبرك سبب طلبي لك حتى لا ترفضه. كنت أريد منك أن تلتقي بالسلطان أولاً ثم تقرر بنفسك، وكنت أريد أن أراك أيضاً..

صمت قليلاً ثم أكمل كلامه:

- .. والآن، الأمر لك. إن شئت أن تعود إلى قبرص فعد، وإن شئت أن تجرب هذا العمل مع السلطان التركي فجرب. قلبي راض عنك في كل الأحوال، وصلواتي لك لا تنقطع.

في الليل، وضعت رأسي على فراشي وأنا أستعيد كلمات أبي. اشتعل في داخلي شيء مثل بيت من القش عندما لمست ضعفه، وشيء آخر تجمد مثل قطعة من الثلج عندما فكرت أنه لا يمكن أن يكون صادقاً في كل ما قاله. إنه يريدني أن أعمل لدى السلطان حتى يموت في حال أفضل، ولن يكون سعيداً بعودتي إلى قبرص كما يدعي. الأمر عنده ليس سيّان بل شتّان، وفي اللحظة التي أغادر فيها هذا المنزل نحو

الدير سيلعنني في كل صلواته. إنه أبي، وأنا أعرفه جيداً.

قضيت نهار اليوم التالي أمشي في طرقات حلب محاولاً أن أخرس ذلك الضجيج الذي في عقلي وقلبي. خلصت بعد مشي طويل إلى أن كل ما أنا بصدده هو خيار بين المال وعدمه. أن يكون عندي مالٌ وأعيش بقدر ما أملكه منه مثل الناس، أو لا يكون عندي مالٌ وأعيش في الدير بقية عمري. كل ما عدا ذلك هو تفاصيل لا تغيّر شيئاً من حقيقة الأمر، وعندما وقف عقلي عند هذه الحافة الواضحة، قفز قلبي دون تردد. نعم، من الممل جداً أن أموت في دير لم أحترم نذوري فيه ولا أرى رودس.

عندما عدت إلى البيت مساءً وجدتُ طونيوس جالساً مع أبي في الفناء. دخلت عليهما وهما صامتان وكأنما استنفدا كل الكلام في انتظار عودتي. جلست أمامهما بعد أن ألقيت التحية ثم لاحظت فوراً صرة نقود على الأرض. تناولها طونيوس فور أن لاحظ انتباهي لها وقدمها لي مباشرة:

- السلطان جم اختارك من بين تراجمة آخرين التقى بهم هذا الصباح، وأرسل معي هذه النقود مقدماً لك.

- لا بد أنك أخبرته أني موافق.. وإلا لماذا أعطاك هذه النقود؟

لوح طونيوس بيده بعصبية وقال:

- لا يهم. دعك مني فقد أشغلك التفكير بشأني أكثر من شأنك! إذا شئت فسيرحل السلطان بعد أسبوع وعليك أن تستعد للرحيل معه، وإن لم تشأ، فأنت حر.

نظرت جهة أبي فإذا هو صامتٌ ومطرق. في حين وقف طونيوس استعداداً للذهاب، وقال قبل أن يتحرك:

- .. ائتني غداً وأخبرني ماذا ستفعل.

وفور انغلاق الباب وراء طونيوس استعد أبي للوقوف والذهاب إلى حجرته. مشى خطوتين وهو قابض على طرف ثوبه من جهة الجيب بحرص. لم يفتني وهو يمر من جواري أن أسمع رنيناً طفيفاً في ثيابه. لا أدري إن كان في جيبه الآن صرة أكبر من تلك التي أمامي أو أصغر منها، ولكنه قبض الثمن على كل حال. استوقفته قائلاً:

- .. أتريدني أن أقبل يا أبي؟

استمر في مشيه دون أن يرد حتى اقترب من باب مخدعه ثم التفت إليّ وقال:

- ما بالك تتحدث كذاهب إلى حرب وليس إلى عمل؟ أنت حر كما قال لك طونيوس، وإذا لم تكن سعيداً مع السلطان فعد إلى حلب أو قبرص أو أي جحيم آخر.

ثم هم بدخول غرفته قبل أن يتراجع ويستطرد:

- وحتى رودس هذه لا أظنها تخلو من دير ما تكمل فيه حياتك إذا شئت. لن تحتاج إلى سفينة تعيدك إلى هنا!

ودخل أبي غرفته وأغلق الباب وراءه، وبدا ضوء الشمعة في غرفته يتراقص من تحت الباب تخاتله حركات قدمي أبي حتى سكن فجأة. حملت صرة النقود التي أمامي وفتحتها. أحصيت خمسين أقجة من الفضة. ياللهول!

١٥

وهبني الرب هدية غير متوقعة كنت في أمسّ الحاجة لها: شهرٌ وزيادة من الوقت أتخذ فيه قراري على مهل. في مجمل بركاته ومستهل رحماته وصلت إلى حلب جماعات من المقاتلين من حماة وحمص ودمشق أوعز إليهم السلطان المملوكي بذلك. ارتبك الناس في حلب أول الأمر، مدفوعين بذلك الخوف الذي أورثهم إياه تيمورلنك جيلاً بعد جيل، عندما رأوهم ينصبون خيامهم خارج السور، ثم عندما بدؤوا يتجولون في الأزقة بسيوفهم ودروعهم، ثم عندما بدؤوا في شراء الأشياء من السوق بالأجل دون أن يجرؤ أي بائع على الاعتراض، ولكن لأن الأبواب لم تغلق والنفير لم يعلن فقد اطمأن الناس أنهم سيكونون بخير. رغم ذلك لم يحضر القداس أكثر من ثمانية أشخاص.

علمت من طونيوس أن السلطان جم سيخرج على رأس هؤلاء ليقاتل أخاه بايزيد ويستعيد عرشه. فهتفت وأنا أتحسس كيس النقود الذي في جيبي:

– إذن، لن يذهب إلى رودس؟

فتح طونيوس ذراعيه علامة التسليم وقال بصوت خفيض:

– قد لا يذهب إلى أي مكان سوى باطن الأرض!

– ولكنه أعطاني مالاً.

ضحك طونيوس وقال:

- حتى لا تنسى فضلي عليك يا شقيّ! هاقد ملأت جيبك فضة دون أن تضطر لأي عمل. إذا انتصر السلطان فسيصبح مالك الدنيا والناس، ولن يلاحقك ليستعيد نقوده.. وإذا..

أكملت كلامه بجذل:

- .. وإذا هزم لن يستعيدها.

يا له من حظ سعيد! أخوان تركيان يتقاتلان على عرش سلطنة بعيدة فيترتب على ذلك أن يمتلئ جيب مسيحي فقير في حلب نقوداً فضية. يا لبركاتك يا أبانا الذي في السماء ويا لمجدك. ليس هناك أفضل من تقديرك وإرادتك.. ولكن..

- ولكن ماذا لو هزم ولم يمت؟ سيعود إلى حلب؟

فتح طونيوس عينيه وكأنما فاجأه الاحتمال. فقال:

- هذا بالتأكيد ممكن. لقد حدث ذلك معه في العام الماضي.

- إذن هذه ليست الحرب الأولى بينهما؟

- لا، لقد تحاربا في قونية قبل عام، وانهزم جم وجاءنا في حلب مع قلة من خدمه وأطفاله، وكان ذاك حين عرفته أول مرة.

هممت بالانصراف دون أن أبدي اهتماماً ولكن طونيوس استمر في الكلام وبدا أن القصة تروقه:

- لم نكن نعرف أنه سلطانٌ آنذاك. قالوا إنه تاجرٌ تعرض له قطاع الطرق قبل وصوله إلى حلب. فأمدّه التجار بالبضاعة، وأقرضه اليهود

المال، وكذلك نفعل عندما يتعرض أحدنا للسرقة، وقد أخذ كل ما أعطيناه، ثم غادر بعد أيام قليلة إلى حماة ثم إلى القاهرة.

ثم ضحك طونيوس وقال:

- وعندما عاد هذه المرة في حال مختلفة، وموكب عظيم، واستقبله النائب عند أبواب حلب. عرفنا نحن التجار أننا قد جمعنا صدقاتنا ومعوناتنا وأعطيناها لسلطان الترك!

- أظنه أعاد لك ضعف ما أخذ يا طونيوس.

- لم أكن أنتظر منه أن يعيدها. إنها صدقة كما قلت. لو لم يأخذها لخرجت إلى شأن آخر..

ووقف ليعيد ترتيب ألواح من الصابون مرتبة فعلاً ويقول:

- عندما تكون تاجراً مسيحياً في بلاد ليست مسيحية فإنك تعرف أن علاقة وثيقة مع أناس أوفياء أثمن بكثير من الذهب والجواهر.

ثم التفت جهتي وختم حديثنا:

- على كل حال، لو قدر له أن يعيش فلن يعود قبل أشهر، وربما لا يعود، ولكن لو أخذت بنصيحتي، نصيحة طونيوس الذي ملأ جيوبك فضة، فلا تغادر حلب حتى تعرف ماذا حل به.

- لست على عجل. لا أظن الدير سيخرب من دوني.

هم طونيوس بالوقوف ثم تذكر أمراً ما فجأة، وعبس وجهه قليلاً وبدا أنه سيبكي ثم وضع يده على كتفي وقال:

- وأبوك يا بني.. أبوك..

- ما به؟

- أعلم أنه يكابر كثيراً ويدعي القوة، ولكنه ضعيف ومسنّ. لا تتخل عنه.

أزعجني أن يتدخل طونيوس في شأن أسرتنا. فأطرقت وزممت شفتيّ محاولاً أن ألمح له بانزعاجي، ولكنه أمعن في ذلك. قبض بيده التي على كتفي بقوة وتحدث قريباً جداً من أذني:

- لا أعلم ما الذي حلّ بينكما، وربما يزعجك ما سأقول ولكن يجب أن تعرفه على كل حال. في السنوات التي كنت غائباً فيها اضطر أبوك أن يأخذ من صدقات الكنيسة أكثر من مرة.

- وماذا في ذلك. نحن فقراء. من أين تظننا نأكل في ديرنا في قبرص؟

شعر طونيوس أني أتحداه فحسب. فأنزل يده وهز رأسه في أسف وقال:

- أغنانا الرب ورزقنا يا ولدي.

في الطريق إلى البيت ثقبتني كلمات طونيوس مثل المسامير. لم أعرف أن أبي اقتات على الصدقات طوال هذه السنوات، وهذا يجمع في قلبي خليطاً من الشفقة والحنق في آن. لماذا لم يخبرني؟ لماذا لا يعتمد عليّ؟ لماذا لا يثق بي؟ لماذا يدعي هذه الصلابة الزائفة دائماً؟ حتى عندما استدعاني من قبرص، ليته قال: إني أحتاج إليك يا بنيّ. إني كبرت. ابق معي، ولكنه لم يفعل، وتظاهر أنما استدعاني ليقوّم حياتي

ويدلني على عمل. يقول لي بوضوح: ما زلت أعتني بك!

على كل حال، ها قد قبض صرة من النقود ستكفيه عاماً أو عامين وبسببي أنا. لقد قمت بما عليّ تجاهه. كيف أساعد أباً لا يريدني أن أساعده؟ لا يهمني كلام طونيوس. سأقرر ما أريد كما أريد وحسبما أريد. أذهب مع السلطان، أو أعود إلى قبرص، أو أهيم في الأرض. هذا شأني.

كنت أحدث نفسي وأنا أمشي حين انتبهت أن السائرين من حولي صاروا أكثر سرعة. التفت فإذا هم يركضون تجاه الأسوار. تلفتُّ يمنة ويسرة لأعرف ما يحدث ثم رحت أتبع الناس الذين تباطأ سيرهم مع اشتداد الزحام. رأيت مجموعة يتسلقون برج البوابة على عربة حطب عالية فتبعتهم، وجدت نفسي معهم نشرف من فوق السور ونرى بوضوح كوكبة الفرسان التي تحيط بالسلطان جم وقد أحاطت بها فرق جيشه المختلفة الألوان والثياب والرايات. اختلط بعضهم ببعض. رماتهم وفرسانهم ومشاتهم، واختلطت صيحات قادتهم إذ يحاول كل منهم تنظيم صفوف فرقته أمام السلطان الذي سيصبح قائدهم منذ اليوم وهو الذي يرونه لأول مرة.

وصفت المشهد الذي رأيته لطابيثا وهي تخبز في التنور وتتوقف كل وهلة لتنظر إليّ بعينين امتزجت فيهما الحماسة بالقلق. أخبرتها بالغبار الذي أثارته الجحافل المتحركة شمال الغرب. أصواتهم. صرخاتهم. خليط لغاتهم العربية والكردية والتركمانية. صوت سيوفهم

وهم يقرعون بها دروعهم ليثيروا الرعب في القلوب المرعوبة أساسا. قالت طابيثا:

- عجيب هذا الذي يحدث. لماذا يعطي السلطان المصري جنوده للسلطان التركي ليقاتل أخاه. ما شأنه هو بين الأخوين؟

فاجأني سؤالها. حاولت أن أعجّل لها بإجابة سريعة ولكني اكتشفت أني لا أعرف السبب.

- ربما كان بينهم ثأر يا طابيثا. لا أدري.

أخرجت أول رغيف من التنور ورمت به فوق الصحفة المنسوجة من قش تآكلت أطرافه وهي تردد:

- ربما، وليحفظنا الرب من ثأرهم ومشكلاتهم.

شمّ أبي رائحة الخبز وخرج من غرفته. ثوبه محشور في حزامه وتبدو ساقاه النحيلتان عاريتين. اقترب من الصحفة وتناول الخبزة الساخنة ومشى بتؤدة إلى مكان جلوسه المعتاد دون أن يقول كلمة واحدة. قالت طابيثا:

- في زمن أبيهما كان الناس يقولون إن سلطان الترك لو أخذ حلب لكان خيراً لنا.

تكلم أبي فجأة:

- لا يحدث في حلب إلا النكبات.

شعرت أني أشرح جملة أبي القصيرة وأنا أقول:

- نحن في آخر حدود المصريين وآخر حدود الترك. أياً كان

سلطاننا سنظل في أقصى أرضه بعيداً من اهتمامه وعنايته.

- لو أن أباك يطيعني ونرحل معك إلى قبرص. حدثته كثيراً في هذا. ملوكٌ مسيحيون وجزيرة آمنة.

أجاب أبي بلا مبالاة وهو يمضغ خبزته:

- لن يكون حالنا أفضل، وقبرص هذه لن تلبث أن تقع في يد الترك أو المصريين قريباً. اسألي جرما.

شعرت برغبة في أن أقول شيئاً مغايراً لكلامه ولكنه أدقّ من أن أخالفه. لا بد أنه ظل يلتقط أخبار قبرص بعناية طوال مقامي هناك، ويبدو أنه يعلم ما أعلمه أنا ويعلمه أغلب القبارصة. غزو الترك أو غزو المصريين هو هاجسهم الذي يراودهم في يومهم ويبيت في فرشهم ويرونه في مائهم وطعامهم. ليس بوسعي سوى أن أقول:

- هذا لو تخلى عنهم البنادقة، ولكن لا يبدو ذلك ممكناً. كل يوم يزداد نفوذهم في الجزيرة حتى النقود التي نتداولها صار أغلبها دوكات بندقيّة.

قال أبي:

- وحتى البنادقة لا يطيقون كنيستنا!

١٦

مرّت أيامٌ هادئة لم يبد معها من المناسب أن يمرّ بنا أسبوع الآلام. فبخلاف يسوع الرب، مرّ أسبوعي والأسابيع التي سبقته هانئة على بيتنا الصغير. في جيوبنا أموال ومحاصيل الربيع وافرة. يرتدي أبي حذاءً جديداً وطابيثا ثوباً قشيباً، وفور انتهاء الصوم سوف تكون الخراف سمينة والجزارون متلهفون لبيع لحومها بعد كساد الشهرين. هذه المرة سيكون مصدر رائحة الشواء المسافرة في أرجاء الحيّ هو بيتنا، ولولا مهماز العقب الذي يعاود أبي من حين لآخر لكنت أقول إن هذه الأيام هي الأكثر بركة في تاريخ هذا البيت مذ ماتت أمي.

- لعنات! ما هذا الذي أصاب قدمي يا ترى.

تنظر طابيثا في عقبه وتقلبها وهي في حجرها قائلة:

- إنه الحذاء الجديد.

- لا، ما هذا الكلام التعس، وما أدراكِ أنت يا طبيبة! لقد بدأت الآلام قبل الحذاء.

- ربما يجدر بك أن ترى طبيباً إذن.

يسحب أبي رجله من حجرها وكأنه يسلبها ذلك المجد ويقول:

- طبيب؟ هل سمعتِ بطبيب لا يتقاضى المال، ولم؟ إنها قدمي وليست رأسي.

قلت دون أن أرجو أثراً لكلامي:

- ربما صرت تكثر الوقوف.

- ربما..

حدست أنه سيوافقني فيما أقول. فهذا دأبه في الأسابيع التي مضت. يتجنب استفزازي ويعاملني بشكل أفضل. لا أعني أنه يحترمني أو يكلمني بلطف، ولكنه لا يسخر من كلامي ولا يلقي عليّ شتائم معتادة. تقول طابيثا أنه يكرر دائماً عليها أني كبرت ويجب أن أهتمّ بكل شيء. فتجيء إليّ لأبتّ في أصغر الشؤون وأكبرها، ولكن الأمر بالتأكيد متعلقٌ بالسلطان التركيّ الذي خرج لحرب أخيه ولم نسمع عنه شيئاً بعد وربما لا يعود، وبهذا يكون قد أعطانا أجراً بلا عمل، وديناً لا يستحق الرد. عطاءٌ جميل بالفعل لو أنه لا يعود إلينا مرة أخرى.

ولكنه عاد. أيقظتنا عاصفة من الطبول التي تقرع بشدة حتى جفلت منها البغال التي لا تجفل من شيء. فتح الحراس باب أنطاكية قبل موعد فتحه المعتاد، وخرج الناس وأنا معهم في بصيص ضئيل من ضوء الفجر. تصاعدت تكبيرات بعض المسلمين ووقف أحدهم فوق ظهر آخر وصاح بصوت عال لنسمعه بين قرع الطبول: «وما النصر إلا من عند الله»، وبعد دقائق قليلة أصبح أغلب أهل المدينة يحتلون الساحة التي أمام الباب بأكملها وقد جلب بعضهم أواني من الخشب وأكياساً من الجلد وخرقاً قماشية مربوطة لجمع النقود التي يوزعها الغانمون على الناس.

وعند منتصف النهار أصبح اليقين جماعياً بأن السلطان هزم وفرّ عائداً إلى حلب، وأن أهلها احتفلوا منذ شروق الشمس بهزيمة لا بنصر، وانقلبوا جميعاً إلى بيوتهم ودكاكينهم بأوان خالية لا نقود فيها، ولم يشتر التجار غنائم جنود منتصرين، ولم يرقص أحد في ساحات السوق، ولم نر أطفالاً ولا حلوى ولا جياداً تجوز الطرقات بهامات مرتفعة وأعلام عالية. صعد السلطان مع فرقة من الفرسان إلى القلعة مباشرة، وتفرق الجنود في داخل الأسوار وخارجها، ودفن القتلى على عجل، وقرر بقية المصريين أن يواصلوا السير إلى حمص ليكونوا في مأمن من غارة أخرى تقضي على من بقي منهم، وأغلقت أبواب حلب واختفى المارة من الطريق.

وفي الليل، شمر أبي عن ساعديه وحفر في ركن البيت حفرة ضيقة وعميقة دسّ نقوده فيها بكل حرص ثم أهال عليها التراب ووضع فوقها جرة الماء الفخارية مقلوبة، وعندما دخلت عليه فجأة وهو يقوم بذلك أولاني ظهره وكأنه يحاول أن يخفي الأمر عني أنا أيضاً. أما طابيثا فقد تشبثت بذراعي فور دخولي البيت وسألتني بخوف:

- ما الذي يحدث؟ هل هزمنا يا جرما؟
- ما دخلنا نحن يا طابيثا! حرب بين الترك. لم ننتصر ولم نهزم.
- ماذا تقول؟ ألم يحارب جنودنا معه؟
- بلى.
- إذن سيغيرون علينا ويحاصرون حلب مرة أخرى.

شعرت بالخوف والضيق من كلامها ولكني استجمعت قواي ورحت أضحك بسخرية محاولاً طمأنتها:

- فليفعلوا! هل بقي شيء في حلب ليحاصرونا طمعاً فيه؟

- أنت تمزح يا جرما! ألا تشعر بالخوف؟ ربما يأخذون النساء. هل تريدهم أن يأخذوني؟

التفتّ جهة أبي الذي جلس قريباً من حفرته واتكأ على الجدار وراح يلتقط أنفاسه وقد مدّ ساقيه النحيلتين مثل عودين من الخشب أمامه، وهممت أن أقول لطابيثا شيئاً يشبه أنها ستكون أفضل حالاً كجارية عند الترك من حالها زوجةً لأبي، ولكني تراجعت عن ذلك لأني لن أتحمل بكاءها إذا بكت. فهززت رأسي وتملصت من ذراعها المتشبثة بي وقررت أن أخرج وأجلس أمام الباب، وفعلت، وبقيت متكئاً أراقب أوراق الشجر التي لا تتحرك مع سكون الريح المهيب، وبدا الجو خانقاً ورائحة الخوف تعمّ المكان، وفكرت في أمي التي ماتت في يوم خانق يشبه هذا، وتخيلتها تجلس فوق أريكة مريحة في هضبة خضراء من هضاب الجنة. تنظر إليّ بحب وتبتسم ابتسامة واسعة.

هدأت حلب بعد مغادرة العساكر المملوكية كلٌّ إلى محروسته، وآن للمسيحيين في حيّهم الصغير أن يحتفلوا بأحد الشعانين دون أن يقلقوا مما يدور خارج الأسوار، وجاءت الأخبار أن بطريرك أنطاكية سوف يزور حلب في الفصح المقترب، وشعر الناس أنها بادرة طيبة وبركة قادمة. تضاعف عدد الأطفال الذين يطوفون الحيّ وفي أيديهم أغصان

الأشجار التي لا يدري أكثرهم أمن شجرة زيتون هي أم غير ذلك. حمل أبي الشمعدان المتوّج بشمعة منطفئة وسار في صف الخارجين من كنيستنا عكس الاتجاه الذي يخرج منه المصلون الأرمن. اعتدنا ألا نمشي معاً حتى لا يبدأ الأطفال في التراشق بالألفاظ وينتهي الأمر بعراك موصول بالشمعدانات يلهب فيه الرجال ظهور بعضهم بأغصان الزيتون مثلما حدث وأنا طفلٌ عندما خرج الأرمن من كنيستهم في صف طويل وكلهم يرفع إصبعاً واحدة تعريضاً بطريقة رسمنا نحن السريان للصليب، وحينها راح بعضنا يعترضون صفهم مؤدين اهتزازات اليهود الذين يكره الأرمن تشبيههم بهم. اشتبكت الأيدي بعد قليل وفقدتُ سناً لبنية كانت تهتزّ في فمي وأنا أركض خائفاً من لسعات الأغصان وصياح الرجال وولولات النساء، وهنا، أمام باب بيتنا تحديداً، أتذكر أني مددت يدي إلى فمي لتسقط في راحة كفي الصغيرة تلك السن.

الآن وقد امتلأ فمي بالأسنان الكبيرة، أجلس أمام عتبة البيت لساعاتٍ يوماً بعد يوم، لا أجد ما أقوم به سوى التمطّي كمن يملك النهار والليل، وعلى بعد خطوات من بيتنا، حيث يجتمع أهل الحيّ بعد تناول العشاء للهو والمسامرة، يلعب عمانويل وداود بالنرد على ضوء شمعة توشك أن تضمحل، يحفّ بهما أطفال ليس لهم إلا الفرجة. آكل كل يومٍ فاكهة جديدة مع وفرة المعروض في السوق كما يحدث أيام الصوم دائماً. لقد كنت فرحاً ومبتهجاً بهذا الفراغ الممتد بلا نهاية. ثم بدأت الرتابة تدق على باب صدري، وعندما قرعت الكنيسة جرسها

الصدئ كنت أردد معهم «مباركٌ الآتي باسم الرب» دون أن أشعر بأي بركة.

في إحدى تلك الليلات كنتُ جالساً ككل ليلة لا أنتظر شيئاً. تجاهلت حوافر الحصان التي اقترب صوتها، وبقيت مطرقاً لا أشعر بالرغبة في تفقد ما حولي، ولكني، في إطراقتي تلك، لمحت الحافر أمامي، وداهمتني رائحة الحصان القوية، وأخيراً ترجل الرجل ووقف أمامي مباشرة. رفعت بصري إليه فإذا ملامحه حائرة ويكاد يهوي من فرط التعب. قال أخيراً بالتركية:

- أين بيت جرمانوس. هل تعرفه أيها الشاب؟
- أنا هو جرمانوس.

حدق إلى وجهي بعض الوقت وهو لا يصدقني ثم هز رأسه بلا مبالاة وقال:

- هيا بنا.
- إلى أين؟
- السلطان سيرحل بعد قليل.
- إلى أين؟

انفجر الرجل بغضب وهم أن يصيح ثم كتم صيحته فجأة قبل أن تنطلق من فمه وقال وهو يضغط بكلماته بين أسنانه:

- وما شأنك أنت أيها الملعون! قلت لك هيا بنا وإلا وطئتك بحصاني هذا.

وقفت اقتربت بوجهي من وجهه وقلت له بغضب:

- إذا وطئتني بحصانك سيطؤك السلطان بحصانه. أنت تعلم أنه لن يرحل دون ترجمان.

تراجع الرجل واختفت من وجهه ملامح التحدي وقال:

- أنت الترجمان؟

- نعم. أنا الترجمان.

تراجع مرة أخرى ثم دار حول حصانه وقال وهو يهمّ بركوبه:

- جرمانوس أفندي. سيغادر السلطان بعد قليل إلى وجهة لا يعرفها أحد ويجب أن تكون معه. إن شئت أن تتبعني فافعل أو اتبعني لاحقاً. سأخبر السلطان أني بلغتك الرسالة.

- انتظر قليلاً سأتبعك.

وعدت إلى البيت لأجد أبي قد نام قريباً من حفرة نقوده وإلى جواره آنية خالية من نقيع الخس البري الذي يخفف به آلامه وقد شرب ماءها وبقيت الأوراق المبتلة في القعر في حين طابيثا جالسة على الأرض تحدق إليّ بشفقة. بدا واضحاً أنها سمعت كل ما دار بيني وبين الفارس من وراء الباب. حملت أغراضي القليلة وعانقت طابيثا. همت أن توقظ أبي فأوقفتها بإشارة من يدي. نظرت إليه وهو نائمٌ كأنما لم ينم قط في حياته. ثم أوليته ظهري وغادرت المكان.

ومن جنوب حلب، غادرت مع السلطان مدينتي القديمة وأنا لا أعرف وجهتي. تماماً كما فعلت قبل سنواتٍ مع التاجر الجنوي،

ولكني هذه المرة أشعر بشيء من الخلاص. لست خائفاً ولا أشعر بالحيرة وفي جيبي بعض المال. ثمَّ سلطانٌ يدبّر الأمور هنا وعنده حاشية وفرسان وأدلاء وأموال كثيرة. سأكون معهم في مأمن أكثر مما ستكون أحوالي في حلب. إن الرب يلطف بي حتماً. فهو لا يريدني أن أكون في حلب عندما يستولي الغزاة عليها مرة أخرى. لا يريدني أن أرى طابيثا إذا أخذوها معهم بضاعة في سوق بعيد، ولا أن أرى أبي وهو يستخرج كنزه الصغير ويمده إليهم بكل هوان. أو ربما لا يحدث هذا كله، ولكني سأظل أترقبه، وترقب الشيء أفظع من تلقيه. فلأذهب مع هذا السلطان التركي إلى حيث يريد. فعلى الأقل، لن أرقب شيئاً، حتى لو لم أتلقّ شيئاً.

مكتبة
t.me/t_pdf

رودس

١٧

فكرت أن الأعين الزرقاء تجيد إخفاء الحزن، فعيناه كما رأيتهما أول مرة: قطعتان من الثلج مثبتتان في محجريهما، ولكن بدا أنهما اتصلتا بالبحر مذ تحركت السفينة وظلّ يحدق إلى المرفأ الذي غادرناه حتى اختفى في الأفق. أُمرتُ أن أظل ملازماً له مذ صعدنا سطح السفينة واستقبله فوقها ربانها الفرنسي ألفارو. ترجمت بينهما كلاماً منمقاً عبر فيه الأخير عن احترامه الشديد للسلطان وتشرفه بأن يقود سفينة هو على متنها، وفي المقابل قال السلطان إنه يشعر أنه فوق سفينته وبين أهله وشعبه، وأنه يشعر بارتياح شديد في هذه اللحظة.

وكنا أيضاً، نحن أتباعه السبعون الذين توزعنا على السفن الأربع التي انطلقت من أنامور، نشعر بارتياح أكبر وقد نجونا بأعجوبة! فبعد وقت قليل من انسحاب السفينة من مرساها رأينا على البعد جحافل الجيش التركي تتقاطر على المرفأ وهم يلوحون بسيوفهم ويرمون السفينة بالحجارة التي تهوي في الماء قبل أن تصل. ثم انغرزت سهامهم في الصاري وخرقت شراعها، وهنا تمتم السلطان بصوت خافت سمعته جيداً:

- في كل زاوية! في كل مكان! هناك جاسوس ملعون زرعه بايزيد! كم يدفع لهم؟

ومنذ بدأت في ملازمته لم أكن قد تعلمت أي العبارات يتطلب الأمر أن أجيب عليها وأيها أسمعها صامتاً ولا أعقب، ولذلك أجبته بعفوية:

- ربما الكثير من الأموال يا سلطان.

فنظر جهتي بعينيه الزرقاوين نظرة الذي يشعر بالأسى أن انتهى به الأمر لهذا المستوى من الحاشية غير المدربة. ثم قال بجفاء:

- اذهب وناد النيشانجي.

أسرعت إلى جوف السفينة حيث شُغِل الحاشية بترتيب حاجيات السلطان في الغرف القليلة التي أسندت إليه في مؤخرة السفينة، وجدت النيشانجي المسنّ نصوح باشا متعرق الجبين متلاحق الأنفاس يلقي أوامره على العبيد والخدم. صحت به:

- السلطان يريدك!

لوّح بيده منزعجاً من هذا الطلب الذي يأتي في وقت انشغاله. ثم عاد إلى ما يفعله حتى ظننت أنه سيتجاهل السلطان ولن يحضر، وقفت أنظر إليه جامداً حتى انتبه لي وصاح:

- ماذا تفعل! اذهب وأخبر السلطان أني قادم في الحال.

أمر السلطان النيشانجي أن يحضر قلمه وأوراقه فعاد ومعه أدوات الكتابة والطاولة الصغيرة، وتربع على الأرض قريباً من قدمي السلطان الذي أملى عليه بالتركية وقد تهدج صوته بين الغضب والألم:

.. لأنك الأخ الأقسى والأفظع على وجه الأرض، ها أنا أخرج من ديار آبائي وأجدادي وأرمي بنفسي بين يدي المسيحيين. لأنك بلا قلب، وبلا رحمة، وبلا أخلاق هاهو أخوك على سفينة أعدائنا الأزليين، أعداء الدين، وأعداء الأمة، وأعداء بني عثمان. أنا مجبر على ذلك في وجه كل محاولات النيل مني رغم المآسي التي أعيشها، ولكن سيأتي اليوم الذي أحمل آماله في داخلي بكل يقين، التي سيدفع فيها فاعل هذه الخطايا وأطفاله الثمن العادل لهذا الطغيان...

وكنت أسمع هذه الكلمات المزدحمة بالشتائم ضد ديني وأفكر: أيجبرني السلطان يوماً على الإسلام؟ إنهم يفعلون ذلك مع جواريهم ولكن لا أدري عن تراجمهم. سيكون ذلك فظيعاً! ولكن لا أظنه يجرؤ على ذلك ونحن متجهون إلى رودس. رغم أنهم لاتينيون إلا أنهم بالتأكيد لن يسمحوا لأحد أفراد الأمة المسيحية أن يتحول إلى الإسلام رغماً عنه.

ظلت هذه الأفكار تدور في رأسي وأنا أراقب النيشانجي يطوي الورقة التي انتهى من كتابتها، ثم يدسها في جرابٍ جلدي، ويعلقها في سهم ثقيل الجذع. ثم يسلمها لرامي السهام الذي يحمل قوساً هائلاً. اضطجع على الأرض، ثم شد القوس بقدميه، وأطلقه ليصدر عن وتر القوس طنينٌ ضعيف. ثم دارت رؤوسنا الأربعة أنا والسلطان والنيشانجي والرامي ببطء وهي تراقب السهم في رحلته من ظهر

السفينة راسماً قوساً منتظماً في السماء حتى وقع أخيراً داخل قلعة أنامور التي غادرناها للتو، وكالنمل رأيناهم يجتمعون حول السهم.

قال النيشانجي:

- بعد يومين على الأكثر ستكون بين يدي با يزيد.

جزّ السلطان على أسنانه وقال:

- أتمنى أن يموت قبل أن تصل إليه.

قبيل الغروب، أقام الربان مأدبة للسلطان. حشروا في قمرته الضيقة طاولة طعام تسع ستة أشخاص. جلس السلطان في طرفها وإلى جواره نصوح باشا بينما أنا خلفه. في حين في طرفها الآخر ألفارو مع أحد مساعديه، ولأن نصوح باشا ضعيف السمع أوعز إلي منذ البداية أن أتولى الترجمة كلها. فقام ألفارو ورحب بالسلطان. ثم رحب السلطان بألفارو. ثم تحدثوا قليلاً عن البحر وأحواله. ثم انتهى العشاء الذي لم أذق منه لقمة. مشيت مع السلطان حتى أول الغرف المخصصة له حيث ينتظره آغا الحريم لينتهي دوري أنا ويبدأ دوره هو.

أويت إلى غرفتي الصغيرة التي يشاركني فيها ثلاثة من خدم السلطان. حائك ملابسه، وذائق طعامه، والحلاق، وفكرت في جدوى أن يقوم واحد منهم بهذه المهام معاً ويوفر شيئاً من أموال السلطان، وككل الأفكار التي تصبح هزيلة ومضحكة مع خدر النعاس فكرت أن هذا غير مجد بالتأكيد. ماذا لو مات ذائق الطعام من أول لقمة. من سيحلق رأس السلطان ويشذب لحيته؟ وفكرت قبل أن أغمض عينيّ

أن عليّ أن أستيقظ مبكراً لأشذب لحيتي فالسلطان لا يحب الوجوه الشعثاء، ولا يحب رائحة العرق ولا الأسماك البائتة ولا يحق لي أن أطلب تقبيل يده إذا كانت خلف ظهره أو أتكلم معه دون أن ينظر جهتي وبقية الأوامر والتدابير الذي علمني إياها أفراد حاشيته في طريقنا من حلب إلى أنامور والذي قطعناه في خوفٍ وحذر شديدين. نسير ليلاً ونهجع نهاراً خشية أن تقع علينا عيون بايزيد الذين نشرهم في كل مكان، ومن فرط حيطتنا بدا لي أن رأس السلطان جم هو أثمن شيء في هذه البقعة من العالم الآن. فلقد كاد أن ينتزع من بايزيد نصف السلطنة.

وفي خيمة النوم التي أتقاسمها كل يوم مع نفر مختلفين من حاشيته كنت أسمع حكايات مكة ومصر ودمشق التي زارها السلطان في رحلة هروبه الأولى، وهذه رحلة هروبه الثانية، ويبدو مما سمعته منهم أن الرحلة الأولى أفضل حالاً بكثير وهو في حماية السلطان المصري قايتباي الذي بعث مع السلطان جيشاً صغيراً ليحجّ معه. الرجال المضطجعون يصبحون أقلّ حذراً عندما تلتصق رؤوسهم بوسائدهم، ويقولون كلاماً كنت أظنني لا أستطيع أن أقوله وإلا أخرجوني من الحاشية فوراً وتركوني وحيداً في البرية. أحدهم، عرفت فيما بعد أنه من الطهاة، قال إن السلطان لا يجدر به أن يهرب إلى البحر:

– ... أنا لا أفهم لماذا لا نعود إلى مصر! كل شيء معدّ لنا هناك. قصر وطعام، وقايتباي سخيّ وكريم ويحب سلطاننا كثيراً ويعامله كابنه!

ويجيبه أحد الرجال الذي لم يبدأ في الشخير بعد من بقعة لم أميزها جيداً من الظلمة:

- أنت لا شك تحب امرأة مصرية.

- أنت لا شك لم تنجح في لفت انتباه أي امرأة مصرية.

وتتصاعد بعض الضحكات من المستعدين للنوم في أطراف متفرقة من مضجعنا. ثم يجلس الرجل الذي لا يلفت انتباه المصريات ويقول بصوت يسمعه الجميع:

- حسناً! هذا الذي يتحدث وكأنه يملك حريماً مصرياً لم يلمس امرأة قط في مصر. أقسم لكم! ليس لأنه أخرق وقبيح ولكن لسبب آخر تماماً. هل تعرفونه؟ لا بد أنكم تعرفونه إذا كانت لكم أنوف. إنه لا يستحم البتة! لم يلمس جسده ماءٌ قط سوى قطرات المطر.. هيه أنتم الذين بجواره. أشعر تجاهكم بالشفقة. قد لا تستيقظون صباح الغد. فليرحمكم الله.

- سوف يرحمك الله قريباً إذا لم تنم الآن يا وغد. أنت تعرف من الذي لا يستحم إطلاقاً.

استيقظنا مع شروق الشمس ولم يمت أحد. مشيت إلى غرف السلطان وجلست أنتظر خروجه. هذا يومنا الأول في السفينة ولم يتسن لي أن أعرف عاداته البحرية بعد، ولذلك جلست على الأرض وأسندت ظهري وغفوتُ مكاني بعض الوقت قبل أن يوقظني الآغا:

- السلطان جاهز.

خرج السلطان من غرفته بملابس خفيفة، وصعدنا إلى سطح السفينة لنجد بعض خدمها منهمكين في أعمالهم اليومية. أفسحوا المجال للسلطان ليمر من بينهم ويتجول فوق سطح السفينة حتى وقف عند مقدمتها متأملاً الأفق، وقفت وراءه أنظر حيث ينظر. خلع عمامته الثقيلة وحملها بين عضده وجسده، ومرت دقائق ثقيلة وهواء البحر يحرك خصلات شعره الطويلة الناعمة، قبل أن يقول لي:

- هل رحلت بهذا الاتجاه من قبل يا جرمانوس؟

- لا يا مولاي، إن أقصى ما بلغته غرباً نيقوسيا.

استأنف السلطان حواره دون أن يرفع عينيه عن الأفق:

- صحيح، ماذا كنت تفعل في قبرص؟

- كنت أعيش في دير.

- وماذا كنت تفعل؟

- نعمل في النهار ونقرأ في الليل.

صمت السلطان قليلاً ثم قال:

- لطالما وددت أن أخلو بنفسي عن الناس على طريقة مولانا الرومي، ولكن حياتي لا تسمح بذلك.

إنه مثل هذا الحوار الذي لا أعرف كيف أقوم به مع السلطان. إذا سألني أجبت، ولكن ماذا لو قال عبارة كهذه؟ هل أعلق على كلامه؟ هل يحق لي أن أطرح عليه سؤالاً؟ اللعنة، لماذا لم يدربوني على الكلام معه بدلاً من هذه الحيرة؟ هل أصمت، فيظنني بليداً، فأفقد أي فرصة

لنيل حظوته؟ هل أتكلم، ليظنني ثرثاراً، فيأمرهم أن يلقوا بي في البحر؟

- هل تعلم من مولانا؟
- لا يا مولاي.
- أوه، بلى. أنت تعرفه بالتأكيد. إنه جلال الدين الرومي.

لم أكن قد سمعت به من قبل، ولكن السلطان يقول إني أعرفه فأومأتُ برأسي موافقاً إياه فيما قال، ولزمت الصمت. فاستطرد بعد قليل:

- تعرفه إذن. كيف يعرف مسيحي مثلك عن الرومي؟
- لقد عشت في حلب يا مولاي، وكلها مسلمون.
- وتعرف نبينا وصحابتنا إذن.

ترددت في أن أفصح له عن أمر أمي قليلاً. ثم فكرت أنه ربما لا يبالي بذلك. فقلت:

- وأحفظ بعض سور القرآن.

ابتسم السلطان وهو لا يزال ينظر في البحر وقال:

- حقاً؟ كيف تسنى لك ذلك.
- كانت أمي مسلمة.

نظر السلطان جهتي لأول مرة منذ أن بدأ حوارنا وقال بتعجب:

- مسلمة؟ وكيف صرت مسيحياً؟
- ولدت مسيحياً. أبي مسيحي.

انعقد حاجباه وقال بصوت فاتر بعض الشيء:

- ومن هذا المعتوه الذي عقد هذا الزواج؟

ضحكت بحرج شديد، وحاولت أن أشاركه التعجب، وقلت:

- لا شك أنه معتوه فعلاً يا مولاي. كما تقول تماماً.

ابتسم السلطان وقال:

- أنا أمي مسيحية. من صربيا، ولكن هذا جائز في ديننا، ولكن لا يجوز أن تتزوج المسلمة من مسيحي، وأولادهم..

وبدا لي أن الكلمة التي توقف قبل نطقها قد خرجت من فمه بالفعل، ولذلك تجمدت ملامحي وأنا أدرب نفسي على تلقي أول إهانة من السلطان، وهي من المهارات التي يجب أن أتقنها، ولكن السلطان استدرك وقال:

- أعني، هذا زواج مخالف للشرع. هل أنت متأكد أن أباك لم يكن مسلماً أيضاً؟

- في الحقيقة يا مولاي السلطان أني لا أعرف التفاصيل جيداً، ولكن أنت تعرف حلب. منذ تيمورلنك والأمور فيها فوضى، ويحدث فيها عجائب.

زم السلطان شفتيه ثم استدار وخلفني وراءه.

قبيل النوم سألني ذائق الطعام عن يومي مع السلطان فأجبته وأنا أخلع نعلي استعداداً للنوم:

- رائعٌ بلا شك. لقد تمكنت من إقناع السلطان بأن زواج أبويّ باطل.

ضحك بتعجب وقال:

- ماذا؟

- نعم، يظنني ابناً غير شرعي من زواج باطل، وربما أكون أول من يغادر هذه السفينة إذا وصلنا.

قاطعنا الحلاق قائلاً:

- هذا رائع. لم تقض معه أكثر من بضعة أيام وتركت لديه هذه الفكرة البديعة عنك!

قال ذائق الطعام بجدية:

- ولكن لماذا قال عنك ذلك؟

- لم يقل ذلك، ولكنه يشكك في صحة زواج أبي من أمي.

- ولكنك مسيحي!

نظرت إليه باستفهام، فقال الحلاق موضحاً كلام ذائق الطعام:

- يعني أن دينكم كله مشكوك فيه، وليس زيجاتكم فقط!

اضطجعت في سريري ورحت أحاول إيجاد الحال المريحة للنوم وأنا أقول:

- جميل. ليت أحدكم يوضح ذلك للسلطان.

قال الحلاق:

- لا تقلق، إذا لم يعجبه أمرك فالماء ليس بارداً في البحر.

- أتمنى أن يقرر ذلك سريعاً ما دمنا قريبين من قبرص. قد أبلغها سباحة إذا كنت محظوظاً.

١٨

مر أسبوع هادئ في البحر. لا عواصف فيه إلا ما يدور في عقل السلطان الذي بدا كل يومٍ أقل صبراً وأكثر غضباً. صفع من صفع من عبيده وخدمه، وشتم من شتم من موظفيه وحاشيته، ولم ينلني من ذلك كله شيء حتى الآن، ولكن شيئاً في داخلي ينبئني أن هذا سيحدث يوماً ما. إما على هذه السفينة أو على تلك اليابسة التي لاحت لنا عن بعد. أسوار عالية لقلعة رودسيّة تستقبل كل السفن المقبلة عليها بتوجّس وارتياب. هذا ما فكرت فيه وأنا أترجم بين السلطان والقبطان ألفارو الذي مدّ ذراعه بطولها وهو يشير إلى أسوار القلعة ويقول للسلطان بلهجة باردة لا يمكن أن أستشف منها شيئاً:

- أترى تلك الثلمات والثقوب في أعلى الأسوار أيها السلطان؟

وكنت أمدّ يدي وأشير إلى حيث يشير، ثم أترجم سؤاله بالتركية. فتضيق عينا السلطان الزرقاوان وهو ينظر إلى حيث تشير يدانا معاً ثم يومئ برأسه علامة الإيجاب. فيقول القبطان بهدوء:

- إنها آثار الدمار الذي سببه الحصار العثماني قبل سنتين.

شدّ السلطان قامته وبدا كأنه يفكر سريعاً في إجابة تليق. شعرت بالحيرة ورحت أنظر إلى وجه السلطان محاولاً التنبؤ بإجابته. لماذا يحاول ألفارو الإشارة إلى ذلك وهو يحمل سلطاناً في سفينته لاجئاً

إليها؟ عندئذ وضع السلطان يده على كتف القبطان، وقال بصوت هادئ وهو ينظر مباشرة في عينيه:

– أيها القبطان ألفارو. إن هذا لم يكن حصاراً عثمانياً بل عدواناً آثماً على أصدقاء وحلفاء، وإذا استعدت العرش المسلوب فلن تأتيكم سفننا إلا محملة بالهدايا والتجارة ومشاعرنا الودودة.

شددت قامتي حتى أصبحت وقفتي تشبه وقفة السلطان، وربما في لحظة سهو لكنت وضعت يدي على كتف القبطان أنا الآخر وأنا أترجم من فرط انفعالي. أما القبطان فقد أومأ برأسه باحترام شديد وقال:

– لا شك لدينا في ذلك أيها السلطان. أنت تعرف موقفنا جيداً من العرش العثماني، وأنا أثق أني أقف الآن أمام صديق وحليف أبديّ.

ألقوا المرساة أقرب ما يكون إلى ممرٍ خشبي ممتدٍ في البحر. تناوب الخدم على حمل ألواحٍ خشبية مسطحة استخرجوها من جوف السفينة ليصلوا سطحها بالممر الخشبي ويدقونها بالمسامير ويربطون أطرافها بالحبال الغليظة حتى صار بمقدور السلطان أن ينزل من السفينة إلى البر راكباً فوق حصانه الذي زُيِّن بالسلاسل المعدنية وضفائر الجوخ وسرجٍ من خيوط الذهب. عبر أمامه حارساه بحصانيهما ليجربا متانة الممر الخشبي. ثم عبر السلطان ومشيت وراءه مشياً، ولم يعبر بعدنا أحد حتى بلغ السلطان البر ووطئت حوافر حصانه السجاد الموشى بخيوط فضية من حافة الممر وحتى قدمي قائد الفرسان: بيير ديبوسون.

عند طرف السجاد أمسك أحد فرسان رودس بخطام حصان

السلطان بعد أن انحنى أمامه باحترام، ومشى ببطء شديد بين صفين من الجنود في بزاتهم المعدنية وخوذاتهم التي رسم في منتصفها صليب الفرسان الأحمر ويمتد من مقدمتها لسان معدني بطول الأنف ليقف عن أول الفم، ومن ورائهم شاطئ مفروش بالحصى تتناثر فوقه العشرات من بتلات الورد الصغيرة، ومن وراء ذلك كله بدت حشود الأهالي تراقب اليوم وصول سلطان الترك الذي حاصرهم أبوه بالأمس.

أوقف الفارس حصان السلطان على بعد خطوات من قائده، وانطلق من حناجر الجنود في اللحظة نفسها هتاف عالٍ تبعه نقر تصاعديّ على الطبول من الجوقة التي تقف خلف القائد، وفور أن بلغ صوت الطبول أعلى درجة ممكنة قاطعه صوت البوق الحاد وهو يرتفع بنغمة عالية عدة ثوان. ثم دوى صوت قذائف المدافع تباعاً ليصم الآذان. وما أن توقف حتى اندفع أحد الفرسان بعتبة من الخشب مزخرفة وملونة ليضعها قريباً من قدم السلطان. فوطأ عليها وترجل من حصانه.

كنت أراقب هذا الاستقبال الحافل بدهشة وأنا أقف على بعد خطوات خلف السلطان، ولم أنتبه أن السلطان وقف أمام ديبوسون بالفعل ويوشك أن يصافحه، ومع خروج الكلمات الأولى من فم ديبوسون أفقت فجأة، ومشيت بخطوات سريعة باتجاه السلطان لأترجم له، فأثارت مشيتي المفاجئة ريبة الفرسان المصطفين على جانبي السجاد حتى تحرك أحدهم وصلصلت بزته المعدنية رغم جمودهم الحاد، ولما صرت قريباً منهما أنهى ديبوسون كلامه ولم

أسمع ما قال، وقفت لثوان في حال لا أحسد عليها. تثاقلت قدماي حتى شعرت أني سأسقط، وفي هذه الهنيهة تخيلت أن السلطان الذي ينتظر ترجمتي لما قاله ديبوسون سيصفعني، وفكرت أن أقول أي كلام يعبر عن الترحيب. ماذا يمكن أن تكون جملة ديبوسون الأولى على أي حال؟ لا بد أنها شيء من قبيل: مرحباً بك في رودس. فقررت أن أقول ذلك فحسب، وقبل أن أنطق بترجمتي المزيفة، ارتفع صوتٌ من خلف ديبوسون يتحدث بتركيّة سليمة:

- إنه لشرفٌ عظيم أن نستقبلكم في جزيرتنا المتواضعة أيها السلطان جم.

أومأ السلطان برأسه إيجاباً وقال وهو يشد على يد ديبوسون باللغة العربية:

- السلام عليكم ورحمة الله. إني أشكرك أيها القائد والصديق على كرمكم وترحيبكم.

نظرت إلى وجه ترجمان ديبوسون الذي برز من فوق كتف الأخير فوجدته صامتاً لا يحير جواباً. فعلمت أن السلطان قد تعمد الكلام بالعربية حتى أترجم له أنا. أو هكذا تخيلت. نعم، يبدو أني تخيلت هذا. فربما قد اختار العربية حتى يتاح له أن يحييهم بتحية الإسلام. المهم أني تقدمت خطوة وترجمت ما قاله كأدق ما يكون، ولم أنته من ذلك إلا وقد اتسعت ابتسامة ديبوسون الذي نظر جهتي وأومأ لي محيياً وابتسم لي في حين يده في يد السلطان.

بدا ديبوسون شيخاً في الستين من عمره على أقل تقدير. له لحية طويلة بيضاء تنقسم قسمين حتى يبدو الفراغ بينهما مثل زاوية مفتوحة إلى الأسفل. عيناه سمحتان وحاجباه كثّان أبيضان ولا يمتدان فوق عينيه كقوس، بل يرتكزان في أعلاهما مثل نقطتين من الشعر الأبيض، وبدا وهو يستقبل السلطان ذا الوجه الأمرد والشارب الخفيف والعينين الزرقاوين والبشرة الصافية مثل جدٍ يستقبل حفيده، ولكنه في المقابل يبدي احتراماً عميقاً للسلطان، ويحني رأسه عند الحديث معه عدة مرات، ويتنحى جانباً حتى يتاح لبقية الفرسان من مستقبليه أن يصافحوه، ولم نلبث طويلاً حتى اعتلى السلطان وديبوسون صهوتي جواديهما وخاضا شوارع رودس وميدانها الواسع بتؤدة وسط هتاف الأهالي حتى بلغا المبنى المعدّ لإقامة السلطان.

وافانا في القصر بقية الحاشية الذين استقلوا سفناً أخرى والتقيت بهم للمرة الأولى. فسفينة السلطان اقتصرت على من يحتاج إليهم بشكل ملحّ من حاشيته، ولهذا وجدت نفسي معه. أما في هذا القصر الواسع فقد كان الجميع هنا. الخازن والحاجب وقيم الإسطبل وأمين الصدقات والأغوات والكتبة، وبالتأكيد كان هناك ست عشرة امرأة يسلين السلطان عن زوجته وأبنائه الذين خلفهم في مصر، وأمام باب القصر تراصت الصناديق الخشبية التي جلبت من السفينة على عربات، وبدأ الخدم في توزيعها على الحجرات المخصصة لنا.

جفاني النوم في ليلتنا الأولى في رودس. تقلبت في فراشي

وتأملت على ضوء الشمعة المتسلل من خصاص الباب أجساد موظفي السلطان الأربعة الذين يشاركونني هذه الغرفة الواسعة، ويتقلبون في فرشٍ وثيرة أفضل بكثير من تلك التي في السفينة. الهدوء الذي يغلف المكان يثير أعصابي بعد أن اعتدت ضجيج السفينة. طقطقة الخشب وصفير الريح الذي يعبر بين شقوقها وخطوات البحارة على سطحها وضربات الموج وكائنات البحر على جانبيها. شعرت بالوحشة. رتلت صلواتٍ خافتة وفكرت في أشياء جميلة ولكني لم أجد الكثير. ماذا حدث في حياتي؟

شعرت بحركة ورائي. التفت لأجد مراد، أحد حاشية السلطان الذي انتهى به المطاف معي في الغرفة، يجلس القرفصاء ويهزّ رأسه في إحباط. تبادلنا النظرات وفهمت أن النوم قد استعصى عليه مثلي، وقف. فتح الباب وخرج. شعرت أن النوم بعيدٌ عن عينيّ بقدر ما أنا بعيدٌ من الماغوصة. فقررت أن أخرج بدوري لأمشي قليلاً في الحديقة التي تحيط بمبنانا الحجري الصغير الذي احتلته حاشية السلطان بأكمله، وفور خروجي من الباب الذي يجلس أمامه حارسان يتبادلان الكلام بالفرنسية وجدت مراد يتأمل المكان من حوله ويتنفس بعمق ويفتح ذراعيه في الهواء وكأنه يسبح فيه.

بالتركية سألته:

- لا نوم إذن! ظننت أني سأنام بعمق بعد هذه الأيام الطويلة على السفينة.

حكّ مراد شاربه الكث وأرنبة أنفه وهو يقول:

- لا أنام في الأماكن الغريبة، وهذا أكثر الأماكن التي وطأتها غربة في حياتي.

- لماذا؟ ألم تكن مع السلطان في القاهرة ومكة وعكا؟

- بلى، ولكنها ديار مسلمين. نحن هنا في أرض مسيحية. كيف يستطيع الإنسان أن ينام بين فكي أسد؟

ابتسمتُ وأنا أسمع منه هذا الكلام. يبدو ألا شيء في هيئتي يشي بكوني مسيحياً. منذ أن دخلت في خدمة السلطان أخبروني أنه لا يحقّ لي ارتداء الصليب في حضرته فلم أفعل البتة، وقد كسا السلطان جميع حاشيته ثياباً جديدة قبل أن نخرج من حلب، وأصبحنا جميعاً متشابهين في الزيّ والهيئة. لا تختلف إلا ألوان ملابسنا، والعمائم الكبيرة التي يلبسها موظفو السلطان المقربون منه فقط. أحببت أن أمازحه فقلت له:

- لا عجب أنك لم تنم إذن. ففي الغرفة التي أنت فيها أسد لم ينم أيضاً.

استغرقه الأمر هنيهةً حتى انتبه إلى ما أعنيه. ثم نظر إلى وجهي ببلاهة وقال:

- أوه! أنت مسيحي.. لا. عذراً لم أقصد.

ضحكت بدوري ضحكة مفتعلة ليرى أني لا أشعر بالإهانة واستمر هو بالتبرير لنفسه بصوتٍ خفيض:

- هؤلاء.. الرودسيون. هل تظن مشاعرهم صافية تجاه سلطاننا؟ أنت لا تعلم ماذا فعل بهم السلطان الفاتح، والسلطان بايزيد.

- ظننت أنه من الخطأ أن نطلق اسم السلطان على بايزيد! أليس كذلك؟

- أوه.. بالتأكيد. بالتأكيد. أنت تتحدث مع رجلٍ نصف نائم. هو ليس سلطاناً بالتأكيد. إنه سارقٌ مغتصب خبيث.

شعرتُ بعلو كعبي عليه. رغم أنه هو التركيّ القديم في خدمة السلطان، وأنا الترجمان المسيحي الذي دخل في خدمته منذ أشهر قليلة فقط، هأنذا أصحح له أخطاءه وأثبت له إدراكي العميق لطبيعة الظروف التي تحيط بسلطاننا هنا في رودس. فقلت له وأنا أسحبه من ذراعه برفق لنمشي معاً:

- إن مخاوفك يا عزيزي مراد ليس لها معنى. فالرودسيون لا يكنون لسلطاننا إلا الاحترام العميق، ولا ينوون له إلا الوفاء والصدق. هل تعرف أنهم على صلة به منذ عشر سنواتٍ أو أكثر؟

هرش مراد رأسه وهو يفكر قائلاً:

- عشر سنوات؟ عشر سنوات.. تعني قبل وفاة الفاتح. أوه.. كان السلطان في قونية.

- أجل.

- وكيف تعرف هذا؟ منذ متى وأنت في خدمة السلطان؟

- ذلك ما أخبرني السلطان بنفسه على ظهر السفينة. على الترجمان أن يكون مطلعاً على بعض الأمور حتى لا تغيب عنه إشارة أو واردة لها معنى خطير أحياناً.

- صحيح. صحيح..

- كما أني قرأت كل الرسائل القديمة وأعدت ترجمتها للسلطان قبل أن نصعد على سفينتهم. لقد كان السلطان حريصاً على التأكد من صفاء نياتهم طوال السنوات الماضية.

بدا مراد غير راغبٍ في التنافس معي على علو المكانة. هزّ رأسه بإعجاب واهتمام ومشى معي في الممرات الحجرية الضيقة المحفوفة بأحواض خزفية يعلو كل منها ورد منسق بعناية. قررت ألا أتمادى وأحول الكلام إليه. فسألته:

- لم أرك طوال رحلتنا في السفينة. لا بد أنك كنت في السفن التابعة.

- أجل. كنت في السفينة ذات الشراع الأصفر.

- وماذا تعمل لدى السلطان؟ هل أنت من الطهاة؟

- لا، أنا لا أعرف كيف أخبز رغيفاً.

- ماذا تعمل إذن..

ضحك مراد وكأن التفكير في عمله مع السلطان يثير سروره، وقال:

- قل لي. من الذي يستدعونه عندما يكون السلطان مريضاً؟

- الطبيب.

- ومن الذي يستدعونه عندما يكون السلطان.. احم.. أعني.. يشتهي..

- آغا الحريم.

- حسناً. أنا الذي يستدعونه عندما يكون السلطان معكر المزاج.

فمن أكون؟

- الساقي؟

- لا..

- هل أنت إمام أو قارئ قرآن؟

- لا لا.. أنا أهم من ذلك بالنسبة لسلطاننا الجميل.

ضحكت بفتور وقلت:

- احترت. ماذا تعمل؟

نظر مراد في وجهي مباشرة وافتعل حولاً شديداً بعينيه وقال:

- أنا الذي يضحك السلطان!

١٩

صباح اليوم التالي اقترح ديبوسون على السلطان أن يصحبه في جولة حول الجزيرة. أبدى السلطان موافقته على ذلك وأبدى ديبوسون في المقابل سعادته بهذه الموافقة. كل هذا التواصل كان مكتوباً في رسائل يبعثها كل منهما إلى الآخر وهما يقيمان على مقربة من بعضهما حتى أني أفضّ رسالة ديبوسون لأجد أطراف الكلمات ما زالت سائلة الحبر توشك أن تسيل فوق كلمات أخرى. اهتم الفرسان بالسلطان جداً حتى لا يغادر سكنه أو يدخله إلا بين صفين من الفرسان في زيّهم العسكري كاصطفافهم حين نزوله من السفينة. يتأنق السلطان في كل خروج كما لو كان جالساً فوق عرشه المفقود في أدرنة أو إسطنبول، وصار من الواجب علينا نحن الحاشية أن نكون على قدر ذلك كله. فنغسل ثيابنا كل مساء ونجففها ونعطرها وإلا أسمعنا نصوح باشا ما نكره.

امتطى السلطان وديبوسون جواديهما من مقر إقامة السلطان وحتى اقتربا من أسوار المدينة، وهناك دعا ديبوسون السلطان إلى الترجل لكي يدخلا إلى غرف المدافع الضيقة المصطفة بامتداد السور السميك. تبعتهما وانحشر ثلاثتنا في إحدى الغرف خلف مدفع متوسط الحجم بدت آثار النيران واضحة على فوهته وتكدست إلى جواره مقذوفاته

الحديدية الثقيلة إلى جوار أكياس البارود والفتائل. ورغم هدوء صوته ونبرته الخافتة عجّت كلمات ديبوسون بغرورٍ لا يمكن تجاهله:

- أيها السلطان، لن تجد مكاناً فوق هذه الأرض أكثر تحصيناً من رودس..

ثم افتعل ضحكة ممزوجة بسعال طفيف وقال:

- .. وربما لم يكن ذلك في صالح والدك بالتأكيد، ولكن الآن، الآن أيها السلطان، لا بد أن حصانة هذه الأسوار تصبّ في صالحك كي تنام آمناً مستقراً بعيداً من أعدائك.

كنت أترجم كلماته بدقة وأنا أستشعر الحساسية العالية لما يقوله، وليس هذا وقت ارتكاب أخطاء في الترجمة قد تحشرني في فوهة المدفع الذي أمامنا. راقبت وجه السلطان وهو يحتفظ بجموده ثم ارتجفت شفته العليا شبه رجفة لم تخطئها عيناي. تنحنح بعد انتهائي وقال:

- .. لقد كانت إسطنبول أشد تحصينا ورغم ذ...

ثم قطع كلامه فجأة، والتفت جهتي وأمسك برسغي خفية وضغط عليها قبل أن يستأنف كلامه:

- إنها بالتأكيد جزيرة منيعة أيها القائد. من الضروري جداً أن يكون لك حلفاء أقوياء في وسط هذا البحر.

أهملت عبارته الأولى كما أوحى إليّ، وتابعت الترجمة وأنا أراقب تلك الابتسامة التي طفت على وجه ديبوسون. لم يفته بالتأكيد أن

السلطان نطق كلمة إسطنبول بكل وضوح في حين لم يرد نطقها في ترجمتي. عمل عقلي بسرعة وقررت أن أتدارك الأمر فكررت ترجمة العبارة:

- من الضروري جداً أن يكون لإسطنبول حلفاء أقوياء في وسط هذا البحر.

أومأ ديبوسون برأيه موافقاً، فتنحنح السلطان واستعد ليقول مزيداً من الكلام:

- أيها القائد. دعني أخبرك الآن أن السلطنة التي سأستعيدها لن تأتي إلى هذه الجزيرة إلا بالتجارة النافعة. ولن تخرج منها إلا بالبضائع التي يجلبها التجار إلينا ولا نجبي منهم أي ضريبة.

- كم هذا القول كريمٌ أيها السلطان.

وأشار للسلطان باحترام لمتابعة جولتهما. رمقني السلطان بنظرة جامدة وهو يحني رأسه لئلا تصطدم عمامته بقوس غرفة المدفع. مشينا قليلاً وتابع ديبوسون كلامه:

- لم تكن أسوار الجزيرة كما تراها الآن أيها السلطان. لقد ضاعفنا تحصينها حسب الطرق التي لم يكن يفكر فيها أسلافنا القدماء. مم كانوا يحصنون المدينة؟ من الرماح والسهام والمحاربين الذين يتسلقون الجدران. لم يدر بخلدهم أنه سيكون هناك مدافع تقذف كرات الحديد من السفن وتدك أسوارهم الضعيفة. انظر ماذا فعلنا..

ثم تجاوز السلطان بخطوتين ودار على عقبيه ليواجهنا وفتح ذراعيه باتساعهما وهو يشرح تصميم السور:

- إن ما تراه أيها السلطان هو فخر العقول الأوربية. حصونٌ جديدة تقاوم ضربات المدافع. كل ما كان السور قصيراً تسنى للجنود أن يروا المدافع المنصوبة قريباً من السور، وكلما كان عريضاً ازداد تحمله لضربات المدافع.

ثم اقترب من السور داعياً السلطان أن يقترب هو الآخر وقال وهو يشير إلى الخارج:

- أما هذا الميل الذي تراه فحتى يصمد أمام أشد ضربات المدافع، ولكن ماذا لو لم يصمد؟ ثم سور خفي خلفه وبينهما ممرات تجعل من اختراق السور الآخر أمراً شبه مستحيل أيها السلطان.

ظلّ السلطان يومئ برأسه وهو يتبع ديبوسون ويستمع إلى ترجمتي بعناية دون أن يعلّق عليها، وبدا أنه اقتنع بالفعل أن كل هذه التحصينات ستصب في صالحه لو جنّ جنون بايزيد يوماً وقرر أن يعيد تجربة أبيه في حصار رودس. إنما فعلها أبوه ليسيطر على البحر، ولكن بايزيد يملك سبباً إضافياً هذه المرة وهو رأسه تحديداً. كل هذا قرأته في وجه السلطان الجامد وعليّ أن أتوقف عن هذه العادة لأني كلما أوغلت في التفكير تفوتني بعض العبارات فأنفض رأسي وأحاول الاعتياد على هذا الدور الجديد الذي لم أمارسه في حياتي.

- وعلينا ألا ننسى أيها السلطان مدفعيتنا نحن. انظر إلى هذه الغرف المحفورة بعناية في أركان الحصن. ألا تبدو رائعة؟ بهذه الطريقة يمكن لغرفة واحدة أن تغطي جهتين وأن تطلق قذائفها بمحيط

شبه دائرة كاملة بدلاً من نصف دائرة. كل هذا دون أن يضطر الجندي أن يطل برأسه فتطير به قذيفة لعينة..

وترتفع ضحكات ديبوسون فيبتسم السلطان إزاءها نصف ابتسامة مشدودة إلى زاوية شفته اليمنى ويسبق ديبوسون في سيره وكأنه يعجل بانتهاء الجولة التي لم تمض بضعة أيام منذ عدنا منها حتى سقط مريضاً. لا أدري أمن تعب الإبحار أو من قهر الحوار مع ديبوسون. لم يترك الأخير فرصة ليستعرض بطولاته أثناء الحصار والتعريض بتراجع العثمانيين مدحورين أمام تحصيناته العظيمة إلا وانتهزها، واستنفد السلطان كل ما في جعبته من الكلمات القليلة التي يمكن أن تقع في المنتصف بين الاعتزاز والاهتزاز، وأنا أترجمها بصعوبة. كم هو صعب أن تنتهي لاجئاً عند أعداء أبيك، والأصعب أن تنتظر منهم الدعم في حربك القادمة ضد أخيك. بالتأكيد أنه حان للسلطان أن يمرض.

انتقل طبيب السلطان إلى غرفته وصار ينام عنده. جلب معه صندوق الشرابخانة وسقى السلطان منها أدوية غير تلك التي ادّهن بها وغرغر واشتمّ واكتحل. انقطعتُ عنه طوال مرضه الذي استمر عشرين يوماً فلم أره إلا حينما زاره ديبوسون. دخلت لأترجم وأنا أظنّه جاء شامتاً لا عائداً، ولكنه في الحقيقة أبدى اهتماماً كبيراً بصحة السلطان وبدا قلقاً ومنشغل البال بشكل كبير، وقريباً من سريره قال:

– أيها السلطان. إن أسعد المرضى حظاً هم الذين يمرضون في كنف الفرسان. إننا نمارس الطبابة منذ خمسة قرون، وفي كتبنا أنجع

الأدوية، وفي مشفانا أذكى الأطباء. اسمح لي أن أبعث إليك منهم من يفحصك ولن تندم على هذا.

أومأ السلطان بالموافقة، وبعد وقت قليل من انصراف ديبوسون استأذن أربعة أطباء للدخول على السلطان. أقاموه وأقعدوه. قلّبوه وأضجعوه. نظروا في عينيه وحلقه ومنخريه وأذنيه. حركوا مفاصله كلها وكأنهم يتأكدون من وجودها، وجسّوا نبضه واستحثّوا سعاله، وشمّوا رائحة فمه وضغطوا على بطنه في موضع كل عضو، ونظروا في إناء بوله، وقلّبوا خصيتيه وهزّ أحدهم رأسه من الرقبة وهو يقول:

- أتشعر بدوار أيها السلطان؟

وهممت أن أجيبهم بالإيجاب قبل أن يتكلم السلطان من فرط يقيني بأنه يشعر بالدوار فعلاً، ولكن السلطان أغمض عينيه ثم فتحهما وقال:

- إنها حمى فحسب.

قال أعلاهم شأناً:

- إنها حمى بالتأكيد أيها السلطان، ولكن الحمى لا تصيبك دون سبب، ونحن نفتّش عن السبب.

- وهل وجدتموه؟

تبادل الأطباء الإيماءات فيما بينهم قبل أن يستطرد الطبيب:

- ما نرجوه هو أن تكون حمّى طارئة من التعب والسفر، وما نخشاه هو أن تكون طاعوناً.

لم أترجم. نظرت في وجه الطبيب برجاء لعله يستدرك قبل أن أترجم كلامه للسلطان ولكنه لم يفعل. فترجمت ما قاله وأنا أراقب وجه السلطان الذي تعلوه رجفات طفيفة من أثر الحمى. لم يقل شيئاً بل أغمض عينيه وتمتم بآيات من القرآن. التفت أحدهم إلى طبيب السلطان وأشار إليّ بيده لأترجم وقال:

- سيكون بخير إذا انتهى هذا الأسبوع دون أن تظهر عليه قروح أو انتفاخات، أو يصاب أحد منكم بالعدوى. عليك أن تراقب جلده وأطراف أصابعه جيداً وباطن فخذيه كل يوم، وإذا رأيت أي شيء غير معتاد فأخبرنا فوراً قبل أن تتفاقم حالته.

ثم أشار الطبيب إلى خدمه الواقفين قريباً من الباب فدخلوا وهم يحملون جراراً ثقيلة وأوانٍ نحاسية عميقة وضعوها حيث أشار لهم الطبيب قريباً من الشرابخانة التي تصطف فوقها قوارير الأدوية وصحون الأكل وقال:

- هذه الأشياء يجب أن تغسل كل يوم ثم تنقع هكذا..

وسكب الطبيب من إحدى الجرار ما ملأ نصف آنية ثم ألقى فيها صحناً فضياً بعد أن نفض عنه فتات الخبز، ثم التفت إلى طبيب والسلطان وقال بنبرة جادة وهو ينقل نظراته بينه وبين السلطان:

- إلا تفعلوا ذلك يشتدّ مرضه.

ولم يشتدّ مرضه برحمة الرب. أبلّ سريعاً وتناوب على زيارته الأطباء الأربعة كل يوم حتى شعر طبيبه بالحنق ثم ارتهن إلى ما

يقومون به بعد أن أشركوه معهم فيما يفعلون. شرحوا له ما في قنانيهم التي يدهنون منها جسد السلطان كل ليلة. علموه كيف يخلط هذا بذاك ليستمرّ في علاج السلطان، وشعر طبيبه بالاطمئنان عندما أبقاه السلطان على عمله، وعندما زاره ديبوسون أهداه السلطان خنجراً مطعماً بجوهرتين وأكثر من مديح أطبائه الأربعة أمامه وقال:

- إننا نلقى منكم كل عناية واحتفاء. من كل فردٍ منكم.

٢٠

علم السلطان بعد شفائه أن آغا الحريم قد تعرض للضرب من أحد الفرسان. لم يكن مهماً إبلاغه بذلك وهو ينتفض محموماً، ولكن أخبروه بعدها بما حلّ بالآغا المسؤول عن ست عشرة أمرأة يتحاشى الجميع النظر إليهنّ وهن يتحركن في القصر ويتوزعن في الحجرات الخلفية قريباً من مخدع السلطان، والآغا المسؤول عنهن يراقب حركة كل منهن مثل كلب الراعي وينبح، أجل ينبح، في وجه من كل يقترب منهن.

سبّب إخلاصه أول أزمة نتعرض لها في رودس بعد أن ترددت إحدى النساء في النزول من العربة فحاول أحد فرسان الهيكل الموكلين بالحراسة مساعدتها. فأمسك بيدها حتى وطأت قدمها الأرض. ثم انحنى وقبّل يدها قبل أن يفلتها لتفرّ من أمامه مثل فراشة. اقترب منه الآغا وقد انتفخت أوداجه ودفع الفارس وهو يصرخ في وجهه بالتركية.

لم أر بداية ذلك بعيني ولكني رأيت آخره عندما أسرعت إلى حيث يقفان بعد أن تعالت الأصوات، ورأيت الآغا الذي يبلغ طوله ثلثي طول الفارس معلقاً في الهواء بقبضة الأخير، وملتصقاً بجدار المبنى وقدماه تركلان خاصرة الفارس بيأس وقد ازداد صوته المخنوق اختناقاً، وأصبحت صرخاته أشبه بمواء قط غاضب. نظر الآغا جهتي بعينين

جاحظتين تكادان تقذفان من محجريهما فعرفت أنه يلجأ إليّ. قلت للفارس بالفرنسية:

- ما هذا؟ ما الذي تفعله؟ اتركه فوراً.

ولكن الفارس لم يلتفت جهتي وواصل النظر شزراً في وجه الآغا وهو يطبق على رقبته ويقبض بالأخرى على مقبض سيفه. ثم نطق أخيراً بضع كلماتٍ لم أفهمها وأطلق رقبة الآغا فسقط على قدميه وترنح قليلاً قبل أن يتلقى بصقة وقعت على كتفه. نفض ثيابه سريعاً ثم دخل القصر راكضاً مثل طفلٍ يبحث عمن يشكو إليه، في حين أولانا الفارس ظهره وعاد إلى المكان الذي كان يقف فيه إلى جوار آخر.

قررت أن أبادر بنفسي لحل هذه الإشكال قبل أن يتفاقم. فاتجهت إليه وقلت بصوت هادئ:

- سيدي. هل كان ضرورياً ما فعلته؟

نظر الفارس إليّ وظل صامتاً. توجست خيفة من أن يعتدي عليّ أنا أيضاً فتراجعت إلى الوراء خطوة قصيرة، وقلت:

- إننا نكنّ لكم كل الاحترام ولا ريب أن...

قاطعني الفارس الذي يقف إلى جانبه قائلاً بالفرنسية:

- إنه كتلاني. لا يفهم ما تقول.

- وهل بوسعك أن تترجم له؟

- لا أعرف لغته أنا أيضاً ولكن من الأفضل أن تبقى بعيداً منه.

وكأن الفارس الكتلاني فهم العبارة الأخيرة التي قالها رفيقه فنظر

إليّ وعلى فمه ابتسامة ساخرة. غادرتهما بعد أن ألقيت تحية مهذبة. في الغد، صرف الفرسان ذلك الكاتلاني من حراسة مسكن السلطان بعد أن تسلموا شكوى الآغا، واستبدلوه بآخر فرنسيّ. انتظرت حتى بدؤوا يتناولون طعامهم ويشربون معه أقداح المزر، ثم خرجت إليهم وأخرجت الصليب المعلق في عنقي من تحت ثيابي ثم اقتربت منهم وألقيت تحية فرنسية.

- مساؤكم سعيد يا إخوتي.

تعلقت عيونهم في الصليب ثم في وجهي ثم عادت إلى الصليب مرة أخرى قبل أن يجيبوا التحية بارتياب:

- مساؤك سعيد.

قلت بمرح:

- كم أحب التحدث بالفرنسية! هذا أفضل. ما الذي جاء بذلك الكتلاني ضمن الفرسان؟

أجابني أحدهما بجفاء الذي يرفض الانتقاص من زميله:

- الفرسان ينتمون إلى كل أمة مسيحية في أوروبا.

- في قبرص لا نعرفهم إلا قراصنة. يتسللون ليلاً وينهبون الميناء ويثيرون الذعر.

تبادل النظرات مع الحارس الآخر ثم الضحكات وقال:

- صدقني! ما زالوا يثيرون الذعر هنا أيضاً.

مرت لحظة صمت قبل أن يقول أحدهم بنبرة ماكرة:

- وما الذي جاء بك أنت مع السراسنة؟

أدركت مغزى سؤاله فافتعلت ضحكة قصيرة وقلت:

- أوه. لا بد أن هذا يبدو لكما غريباً. ولكني مجرد موظف. أنا ترجمان السلطان.

شرب أحدهما ما تبقى في قدحه ووقف وهو يقول لصاحبه:

- غريب؟ من قال أن هذا غريب. هل تجد هذا غريباً يا غارنيه.

أجابه صاحبه بمكر مماثل:

- ليس غريباً على الإطلاق!

حاولت أن أجاريهما في الكلام وأقول:

- المعذرة. لماذا سألتني إذا لم يكن الأمر غريباً.

أجاب غارنيه:

- أنتم وهم سواء. بل أنتم أسوأ.

أولياني ظهريهما لينتهي الكلام. وخلفتهما ورائي وأنا ألوم نفسي على هذه المحاولة الغبية. أعدت صليبي إلى الداخل وأنا أفكر أنه سيجرّ عليّ الويلات. خير لي أن يظنني الجميع مسلماً من أن يعرفوا أني مسيحي مشرقيّ متحالف مع المسلمين. مهرطق خائن لدم يسوع مطرود من ملكوته. هؤلاء الملاعين، لماذا يظنون أنهم أقرب منا إلى يسوع وهم يعيشون في أقاصي الأرض وأنا ولدت على بعد أيام من أورشليم؟

في الأسابيع التي تلت ذاك الموقف لم أر من الفرسان في حراسة

السلطان إلا فرنسيين، وأحياناً بعض الإيطاليين، ولكني التقيت في إحدى المرات بإنجليزيين وألماني. ولأن ثيابهم واحدة، وخوذاتهم وأسلحتهم ودروعهم كلها موشومة بالصليب الأحمر تعيّن عليّ أن أفرق بينهم بملامحهم أو ألسنتهم إذا تحدثوا. الحديث معهم أحياناً أشقّ من الحديث مع السلطان. فكثيرٌ منهم لا يرتاح لوجود سلطان الترك فوق أرضهم فضلاً عن أن يسهروا على حمايته، ولكن تعليمات ديبوسون إليهم كانت واضحة: الحراسة المشددة ليلاً ونهاراً. فاحتمال أن يبعث بايزيد من يغتال أخاه كبيرٌ، ولهذا تعرض بعض موظفي السلطان الأتراك الذين لم يألف الحراس وجوههم للاستجواب أمام الباب طويلاً حتى يخرج من القصر من يسمح لهم بدخوله مرة أخرى.

استقرت شؤوننا في رودس وأخذ نظامنا اليوميّ في التشكل. يستيقظ السلطان ضحىً كما توحي به الجلبة التي تحدث في هذا الوقت كل يوم. يخرج ليتمشى على حصانه الجديد الذي أهداه إياه ديبوسون مع ثلة من الفرسان في الحدائق القريبة من مقر الإقامة، ثم يتجه إلى البحر. يخلع ملابسه ويسبح فيه بعض الوقت، ثم يعود ليغيّر ملابسه ويجلس في قاعة واسعة ويلتف حوله موظفوه الكبار. يقرؤون عليه الرسائل القليلة التي تصل إليه مع السفن، ويردّ عليها مملياً على النيشانجي الذي يتربع تحت قدميه أمام طاولة عريضة يصفّ عليها أوراقه ومحابره وأقلامه، وأنا أقف من ذلك كله غير بعيد حتى إذا جاءته رسالة بالفرنسية أو الإيطالية قرأتها له. رغم أن وزيره المقرب نصوح

باشا يتحدث الفرنسية ولكنه يحجم عن الترجمة ويرى شأنها أقل من أن يقوم به موظف في مقامه، وعلى كل حال، فإن بصره ضعيف ولا يستطيع قراءة الحروف اللاتينية الصغيرة المشبعة حبراً حين تتداخل مع بعضها.

ولم تكن الرسائل الفرنسية كثيرة على كل حال. جلّ الرسائل بالتركية من القبائل التي ما زالت تدين له بالولاء في قلب الأناضول، أو بالعربية من مصر التي لا تزال عائلته تقيم فيها، وبعضها من بلاط السلطان المملوكي، ولكني أسمع وأرى، حتى إذا لم أترجم. رسائله إلى الأناضول تبشرهم بقرب النصر والتمكين، وأنه سيعود إليهم على متن سفينة يتبعها أسطول، فيستعيد عرش أبيه ويهب القبائل ما يليق بوفائهم وولائهم. أما رسائله إلى السلطان قايتباي في مصر فمليئة بالشكر والعرفان والامتنان على رعاية السلطان لعائلته، ويبشره أن النصر قريب، وأن الله سيعزّ الإسلام بالسلام الذي سيحلّ بين السلطنتين، وفي رسالة قال: إن حدود سلطنة أجدادي أيها السلطان المجيد تقف عند الأناضول، وكل ما دون ذلك فهو ملكك الذي أعطاك الله.

٢١

أحيٌّ أنا أم ميت؟ إذا كنتُ حياً فلماذا تبدو الأشياء مموهة ودخانية وتدور تدور مثل رؤوس الهندباء في يوم عاصف؟ إذا كنتُ ميتاً فما هذه الآلام الشديدة في بطني وأضلاعي وأظافر قدميّ؟ وإذا كنتُ في البرزخ فمتى سأنتقل إلى الملكوت؟ يبدو أني قضيت ساعاتٍ لم يتحرك فيهما سوى جفناي وأنا أتأمل السقف الذي يبدو سقفاً، والحيطان التي تبدو حيطاناً، وكل شيء من حولي لا يبدو حقيقياً مثل كابوسٍ فشلت في الاستيقاظ منه. عقلي يسبح في بحيرة من الزيت الثقيل المتسخ. أصداء أصواتٍ لم أسمعها منذ سنواتٍ تتناهى عن بعد. حوافر خيل. طنين أذن. أجراس كنيسة. خوار ثور. صياح أبي. لسعة سوط، وصلصلة سلاسل، وشلالٌ هائل من المياه ينهمر من أعلى نقطة في السماء على رأسي، وأنا أركض باتجاه أنفاسي الهاربة من صدري لألتقطها أخيراً في شهيق كبير.. ثم وجهه.

على كرسي من الخشب له مقابض من حديد جلس مثل إلهٍ مزيف في يوم قيامة لم تقم بعد. استرجعت ذاكرتي ملامح وجهه. شاربه الأشقر. حاجبه المشقوق. ذقنه المربعة. عينيه القاسيتين. معطفه الأسود، وصليبه الأحمر. هربت من وجهه إلى الأرض. مقراض الحديد، وذيل السوط، وأغلال معدنية، ودماء. دمائي الجديدة، ودماء قديمة. ثم جاء صوته الهادئ وكأنه يخرج من بوق:

- أفق. ليس يوماً جيداً للموت!

تخيلت أن هناك من يمنعني من رفع رأسي. كلما حاولت أن أقيمه بين كتفي وفوق رقبتي كالمعتاد شعرت بقوة خفية تجره إلى الأسفل ليظل متدلياً من كتفي وكأنه صار أثقل من قدرة رقبتي على حمله، ولكني نجحت في مقاومة تلك القوة الخفية، وارتكز رأسي أخيراً، وتوقف عن الترنح من أعلى إلى أسفل، وبدأ في الترنح من اليمين إلى اليسار، واتخذت الحجرة شكلاً أكثر منطقية. هناك سقف فوق جدران. هناك جدران في أحدها باب. هناك أرض حجرية، وهناك رجلٌ تعرفت إليه أمس إذا كانت معرفتي بالوقت سليمة، وظلّ يضربني لساعاتٍ كأنها أيام. أظنني هددته. أظنني بكيت. أظنني توسلت. أظنني وعدته بهجر الكنيسة الشرقية وأعلنت أمامه ولائي لبابا الفاتيكان إلى الأبد. نعم. لقد ضربني الضرب الذي يغير الأديان. الآن أتذكر. أستعيد كل شيء، وأقول له أول كلماتي:

- أرجوك. سأفعل ما تريد..
- لا يكفي أن تفعل ما أريد. بل يجب أن تريد ما أريد.
- أنا أريد ما تريد.
- هذا جيد، وماذا أريد؟
- تريد أن يذهب السلطان إلى فرنسا.
- وإذا لم يوافق السلطان على الذهاب إلى فرنسا؟
- لا أدري. سيوافق. سيوافق.

- لا لا، قل لي ماذا سيحلّ بك إذا لم يوافق السلطان على الذهاب إلى فرنسا؟

- ستقتلونني. سأموت.

قام من كرسيه وانحنى ليلتقط المقراض الحديدي من الأرض واقترب مني وقال:

- ستكون هذه عاقبة رحيمة جداً.

- سيوافق. سأجعله يوافق.

- أتعلم يا سيد جرمانوس؟ قبل سنواتٍ حاول أحد السفلة من اليونانيين الذين يتبعون مذهبك المهرطق أن يتهجم على أحد الفرسان. الفرسان الذين جاءوا من الأرض المقدسة. كنت آنذاك لتوي أنضمّ إليهم، ولكني أذكر جيداً ماذا حلّ به..

- سيوافق.

- ... انتزعنا إحدى عينيه وجعلناه ينظر إليها بالعين الأخرى.

- سوف أجعله يوافق.

- .. وأصبحت هناك فجوة مضحكة مكان عينه المخلوعة.

- سوف يكون في فرنسا متى أردتموه أن يكون في فرنسا.

- .. وبالمصادفة كان في الجوار حدادٌ يصهر حديداً ثقيلاً سائلاً ملتهباً أصفر مثل الشمس.

- أرجوك يا سيدي. أنا ترجمان متواضع ولكني سأفعل ما بوسعي لأجعله يقتنع بالسفر إلى فرنسا. أنا رجلٌ من حلب. راهبٌ من الماغوصة. لم أعرف هذا السلطان إلا من أشهر قليلة فقط.

- أنت تكرر كلامك. هل نعيد الكرة من جديد؟
- لا لا يا سيدي. أمهلني بضعة أيام وسأجعله ينقاد إليكم حتى لو أرسلتم به إلى الجحيم.
- أحدكما سيذهب إلى الجحيم على كل حال.

لبست ثيابي التي جئت فيها إلى هذا المكان. كانوا قد أمروني بخلعها كاملها، وأبقوها نظيفة ومطوية بعناية خارج الحجرة، وبقيت عارياً كما ولدت، وكان هذا آخر عهدي بجسدي كما عرفته. الآن ماذا يشبه؟ كل شيء يمكن أن تغطيه الملابس أصبح حقلاً حرثه ثورٌ مجنون لا يعرف كيف يمشي على خط مستقيم. آثار السوط لها خطوط من الدم الأحمر المائل للزرقة كما تفعله لسعة متوسطة لا يراد بها أن تشق الجلد بل تؤلمه فحسب. أربعة من أظفار قدمي منزوعة. أظفران من كل قدم. يا للعدل، والإصبع الصغيرة من كل قدم، تلك العظمة الصغيرة مهشمة تماماً، ولكن وجهي سليم، وأيضاً ذراعي حتى المرفقين. حتى إذا لبست ثيابي مرة أخرى لم يبد لأحد أني قد قضيت الليلة الماضية كلها في قلب العذاب.

قبل هذا كله بيومين كنا في الميناء، نودع نصوح باشا الذي لوح لنا من السفينة التي ستحمله إلى صقلية، وعندما غاب عن سطح السفينة واتخذ مكانه داخلها تحركت المجاديف على نسق الصيحات الحماسية للجادفين، وكنت أشعر بالسعادة لسفره. أخذتني بعض تلك المشاعر الحاسدة التي تسود في قصور السلاطين. فغيابه الذي سيستغرق شهراً

حتى يجلب بقية حاشية السلطان التي تركها في الأناضول عن طريق صقلية تعني أني سأكون الوحيد في حاشية السلطان الذي يتحدث بالفرنسية، ومن دوني، فإن السلطان أصم وأبكم. لا أحد يريد أن يكون أصم أبكم، لاسيما إذا كان سلطاناً. سوف تحدث أشياء جميلة حتماً. سأكون مقرباً منه. سأطلب منه غرفة وحدي فأتخلص من شخير مراد. سوف تكون لي حظوة عنده قد تجعلني أطلب منه أشياء ثمينة. من يدري؟

ثم قبل هذا بيوم، كنت أقف بكامل زينتي مكسواً بالثياب التي وزعها علينا السلطان أمام ثلاثة من فرسان الهيكل. وصلت إلى المكان فوق حصان رغم أنه لا يبعد كثيراً عن مقر إقامتنا لو أني مشيت، ولكنهم جلبوا حصاناً من أجلي! ألم أقل أن غياب نصوح باشا سيجعلني الأهم في حاشية السلطان؟ ها هم الفرسان ينتبهون لذلك ويرسلون في طلبي لنقاش أمر بالغ الأهمية في مقر قيادتهم. أجل، بالغ الأهمية، وكنت أنا الوحيد في حاشية السلطان الذي سيناقشون معه هذا الأمر.. بالغ الأهمية، وحول طاولة خشبية مزخرفة الأطراف في قاعة فسيحة يقف عند بابها حارسان بأوشحة موشاة بخيوط من الفضة جلست أمام اثنين من موظفي القائد الكبار رأيتهم كثيراً بصحبته، وبدأ الكلام بلا مقدمات عندما قال أحدهما:

- سيد جرمانوس. شكراً لحضورك في هذا الوقت المبكر. لقد علمنا أن السلطان لم يستيقظ بعد ولن يحتاج إليك الآن.

أومأت برأسي وهممت بالرد إلا أنه تابع حديثه مقاطعاً محاولتي للكلام:

- يوجد أمور استجدت علينا، وللسلطان علاقة مباشرة بذلك.

عقدت حاجبيّ علامة الاهتمام، ورسمت على وجهي ملامح الإصغاء. أما هو فتنهد وأسند ظهره على الكرسي وقال:

- لن أطيل عليك بتفاصيل أنت في غنى عنها، ولكن باختصار السلطان في خطر.

- في خطر؟ أي خطر؟

- لدينا أخبارٌ شبه مؤكدة أن السلطان سيتعرض للاغتيال، وأن هذا سيحدث هنا. في رودس.

- الاغتيال! يا إلهي، ومن من؟

ابتسم الرجل الآخر وأسند ذقنه على يده المسندة على الطاولة ونظر في وجهي مباشرة وقال:

- من تظنه يريد اغتيال السلطان يا سيد جرمانوس؟

- ليس سوى المجرم بايزيد.

وقف الرجل الآخر ومشى خطوات قليلة حتى صار ورائي وقال:

- السلطان يجب أن يذهب إلى فرنسا.

- ولكن لا أظن السلطان يرغب في الذهاب إلى فرنسا. ليس هذا ما يدور في ذهنه.

- إلى أين سيذهب إذن؟

- يعود إلى الشرق. إن جميع مراسلاته...

ثم قطعت كلامي فجأة عندما انتبهت أني قد أبوح بأسرار لا ينبغي لهما أن يعرفاها، وعدت أوليه ظهري وأنظر إلى الرجل الآخر:

- أظن أن هذا الاقتراح لا يناسب السلطان ولا أظنه يوافق عليه.

وضع الرجل الذي يقف خلفي يده على كتفي ودلكها برفق وهو يقول:

- نحن نشاركك ظنونك يا سيد جرمانوس، ولهذا قررنا أن نفاتحك في الأمر قبل أن نعرضه للسلطان.. نحتاج إلى أن..

ثم رفع يده عن كتفي وارتسمت على وجهه علامات التفكير، وبعد هنيهةٍ قال:

- نحتاج إلى من يقنعه بذلك. من يمهد لنا الأمر قبل أن نعرضه عليه.

استعدت ثقتي بنفسي بعد أن اهتزت قليلاً، وأطرقت بدوري مفكراً بعمق قبل أن أفتح يدي وكأن ليس من جدوى للنقاش وأنا أقول:

- إذا سألني السلطان عن رأيي فسأجيبه بكل صراحة. أنا لا أظن أن في مصلحته الابتعاد أكثر عن المشرق.

ابتسم الرجل الجالس على الطاولة مرة أخرى ابتسامة أوسع من سابقتها حتى كأنه يهم أن يضحك وقال:

- مصلحته؟

- أجل مصلحته.

- أنت تعرف مصلحته؟

- كل فرد في حاشية السلطان يضع مصلحة سلطاننا نصب عينيه.

قهقه أخيراً ثم اختصر ضحكته وقال:

- أنت؟ صوبني إذا كنت مخطئاً. ألست ترجمان السلطان؟

- نعم.

- وهل يستشيرك السلطان في أمر غير ترجمة الكلام؟

وقفت أخيراً وقد غضبت، وقلت لهما:

- هذا ليس من شأنك. كيف يدير السلطان أموره ليس من شأنك. ما دوري وعملي وشؤوني مع السلطان ليس من شأنك.

وضع الرجل الآخر يده على كتفي مرة أخرى وجذبني إليه حتى صار صدري حذاء صدره وقال:

- يا سيد جرمانوس. كل ما يحدث في رودس.. هو من شأننا. كل شيء.

أفلت نفسي منه وسرت باتجاه الباب معتزماً الخروج، ولكني لم أخرج.

٢٢

اقتربت من السلطان دون أن يأذن لي. رمقني بوجه بارد لا ملامح فيه جزمتُ أنه يخفي وراءها تعجباً من اقترابي غير المبرر ونيّة مسبقة بمعاقبتي إذا ثبت أن الأمر لا يستحق ذلك. قلت له بالعربية التي أعرف أن حاجبه لا يتحدثها:

- مولاي السلطان. هناك أمرٌ مهم جداً أستميحك عذراً في قوله لك دون أن يسمعنا أحد.

كان لغيابي عن القصر يوماً كاملاً تأثيرٌ كبير على السلطان ليأخذ طلبي على محمل الجد. فعندما عدت قريباً من الفجر استقبلني حراسه الذين يجوبون ردهات القصر باستغراب شديد، وسألوني بفظاظة عن سبب غيابي، ولم أحر جواباً. فتجاهلت السؤال وحاولت أن أتجه نحو غرفتي مباشرة، ولكن أحدهم جذبني من ياقة ثوبي بقسوة تضاعفت معها آلام ظهري المتورم من جلد السياط، وزمجر في أذني بصوت مكتوم:

- قلت لك أين كنت؟ كيف تجرؤ على العودة في هذا الوقت؟
- حدثت أمور مهمة. لا وقت للكلام عنها الآن.
- لن تدخل حجرتك حتى تتكلم أو تعود من حيث أتيت.
- إنها أمور سرية تخصّ السلطان. لا أستطيع أن أبوح بها لغيره.

أفلت ياقتي ونظرت إليه فإذا عيناه قد جحظتا من الغيظ، وقفت لهنيهةٍ لا أدري إذا ما كان بوسعي أن أنصرف. فتحركت ببطء، واتجهت إلى الدرج وصعدت بصعوبة شديدة. لاحقتني نظرات الحراس المرتابة في أمري. دخلت غرفتي ونزعت ملابسي ولم أبق إلا ثوبي الداخلي القصير. وضعت ركبتي على الفراش ثم ركبتي الأخرى ثم استندت إلى يدي، وبقيت هكذا على أربع بعض الوقت وبطني يكاد يتمزق من آلامه. وضعت جنبي برفق ثم اضطجعت على ظهري قبل أن أقفز من فراشي كالملدوغ من شدة الألم الذي أحدثته ملامسة ظهري الملتهب للفراش القاسي. أدرت نظري في الغرفة أبحث عن وسادة أو حشية تلين لي فراشي فلم أجد. وقفت مرة أخرى واتجهت إلى الركن الذي أطوي فيه ثيابي. فرشتها على السرير واحداً فوق الآخر، واضطجعت عليها أخيراً، وبكيت.

ما هذا الذي ورطت نفسي فيه؟ ما هذا الذي ورطني فيه أبي. هو يقبض المال في حلب آمناً مطمئناً وأنا أُضرب طوال الليل بهذه القسوة! ترددت في ذهني العبارات التي ودعني فيها موظف الهيكل قبل أن أخرج: «إما أن تخرج من رودس حياً إلى فرنسا أو ميتاً إلى قبرص». ولسبب ما، لسبب غامض لا أفهمه في طريقة تفكيري، في خضم آلامي التي يضاعفها المشي، ظللت طوال طريق العودة أفكر في هذه العبارة السخيفة. كيف سيرسلون جثتي إلى قبرص؟ يا لهم من قتلة طيبين!

وفجأة فتح الباب، ودخل كبير حرس السلطان دون أن يستأذن.

يغطّ مراد في نومه العميق كعادته بعد أن يزور الطهاة ليشرب كل ما تبقى في الكؤوس من نبيذ. نظر إليه كبير الحرس بلا اكتراث ثم اقترب من فراشي. بقيت مضطجعاً على جنبي كطفل خائف وقد ضممت قدميّ على بطني، ونظرت إليه من فراشي وبقيت صامتاً. ظل ينتظر أن أقف بحضرته فلم أفعل. عقد حاجبيه وفكر قليلاً قبل أن ينحني قريباً من وجهي وقال:

- ما الأمور السرية التي ذكرتها للحراس؟
- لا أستطيع أن أقولها لك.
- لماذا؟
- ربما لا يريدك السلطان أن تعرفها.

استقام واقفاً مرة أخرى وبدا أن حجتي أسكتته ولا مجال للنقاش. فقال لي بصوت هادئ لا تخلو نبرته من بعض العصبية:

- وأين كنت؟
- هذا جزء من السر أيضاً.

هزّ رأسه وتنهد ثم استدار ليغادر المكان، وسمعته يقول للحارس:

- ابق واقفاً أمام حجرته، وأحضره إليّ فور استيقاظه.

مدّ الحارس يده ليغلق الباب. نمتُ لماماً وكأني داخل ناقوس يفزعني كل ساعة. وفي الصباح، مدّ حارسٌ آخر يده ليغلق الباب بعد أن أمره السلطان بذلك، وأصبحت واقفاً مع السلطان في إحدى حجراته الداخلية ولا أحد فيها سوانا. رحت أدور ببصري في أرجاء

الغرفة وكأني أتأكد من خلوها تماماً من حارس أو خادم. ثم نظرت إلى السلطان فإذا هو ينظر إليّ ببروده المعتاد وعينيه الزرقاوين مثل قطعتي ثلج. أنفه المستدق ولحيته المدببة. ودون أن أنبس بكلمة واحدة خلعت ثيابي، وعريّت ظهري ودرت.

- يا إلهي يا ستار. ما هذا! من فعل بك هذا؟

رغم أني أكبر السلطان بسنوات إلا أني شعرت برغبة عارمة في البكاء كطفلٍ صار في كنف أبيه وراح يستدرّ عطفه وشفقته. أجهشت وغطيت بإحدى يديّ وجهي ورحت بيدي الأخرى أنزع سروالي ليرى آثار السياط على أفخاذي، ونزعت الحذاء ليرى أظافر قدميّ المتورمة وفوق كل منها كتلة مزرقّة من الدماء المتجمدة. نظر السلطان إلى جسدي باشمئزاز ثم عقد حاجبيه وبدا غاضباً.

تخيلته يثور ثورة عارمة على فرسان الهيكل ويطلب لقاء القائد فوراً. تخيلته يطالب بحقي وينافح من أجله ويردّ لي اعتباري، وتخيلت جلادي يركع بين يديّ طالباً الصفح فيأمر السلطان بجلده قصاصاً لي. تخيلت كل هذا قبل أن يكرر السلطان سؤاله:

- من فعل بك هذا؟

- فرسان الهيكل

- متى؟

- البارحة. طوال الليل كنت سجيناً لديهم.

- ولماذا ذهبت إلى هناك؟

- هم استدعوني.
- ولماذا استدعوك؟ وكيف تذهب دون إذني؟

أطرقت في صمت ولم أجب. ما زال خيالي يحاول أن يرسم صورة منصفة ورؤوفة للسلطان وهو في صفي فإذا به يوبخني الآن. بالفعل، كيف لي أن أعقد اجتماعاً مع فرسان الهيكل دون إذن منه؟ آه، يا ويلي. من ينصفني الآن؟ من يحميني؟ كلهم غاضبٌ مني. دار السلطان في الغرفة وبدا عليه التوتر. ثم جلس على كرسيّ وقال:

- قل كل شيء.

سردت له كل ما حدث منذ استدعاني الفرسان حتى أصبحت الآن بين حضرته. حتى أني أخبرته بما قاله لي الحراس وكبيرهم في غرفتي، واستمع بصمت واهتمام دون مقاطعة، وهو يطوي شفته السفلى بين إصبعين من أصابعه ويطرق ويفكر بعمق. ثم أشار بيده إلى الباب لأخرج. فخرجت وأنا أمسح دموعي وأحاول أن أبدو خارجاً كما كنت داخلاً أمام حراس وحاشية لا ريب أنها تتقلب فضولاً خلف باب السلطان.

عدتُ إلى غرفتي لأجد مراد ينتظرني ومعه أحد خدم المطبخ الصغار. وقف فور دخولي وعانقني بحنانٍ جارف ثم أجلسني على سريري وخلع قميصي بلطف حتى عرى نصفي الأعلى. ثم أمر الخادم فقرّب آنية خشبية وأخذ منه كتلاً لزجة دهن بها ظهري. سألته بين تأوهاتي:

- من أخبرك بأمري هذا؟
- من أخبرني؟ الحاشية كلها تعرف يا مسكين.
- من أخبرهم؟
- أنا.
- من أخبرك.
- الحارس.
- لقد ضربوني ضرباً مبرحاً يا مراد!
- إني أرى ذلك جيداً على ظهرك يا مسكين. ما شأنك أنت لتتدخل بين الآغا والفارس الكتلاني؟
- لم يكن هذا هو السبب.

أدار مراد رأسه ونظر في وجهي مباشرة بعينين وسعتهما الدهشة ثم قال:

- ما السبب إذن؟
- سر من أسرار السلطان لا أستطيع أن أبوح به.

ضحك ضحكات خافتة ثم ارتفع صوته وقهقه بصوت عال. قلت:

- ماذا يضحكك يا مراد.
- إذن لم يكن هذا كله بسبب شجارك مع الكتلاني!
- لا، ليس له علاقة.

ارتفعت ضحكاته عالياً وجلس على الأرض وهو يرفع يديه الملطختين بالزيت. انقطعت أنفاسه تباعاً من فرط الضحك. فصحت به:

- ما الذي يضحكك!

- لأن الجميع يظن أن ما حدث لك بسبب الكتلاني، ولهذا فإن الآغا مختبئ في غرفته منذ الصباح!

٢٣

رغم أني أقتسم الغرفة مع مهرج السلطان إلا أن حزني كان بالفعل أكبر من تهريجه، وآلامي مستعصية على محاولاته البائسة ليخفف عني. أو أنه لم يكن يبذل جهده كله على أي حال، ولكنه لازمني طوال النهار والليل. يحدثني عن أشياء تهمني وأخرى لا تهمني، ويسيل أحياناً خيط من الدموع المريرة على وجهي كلما تذكرت مرارة تلقي الصفعات واللكمات، وكلما تذكرت أن السلطان لم يحتجّ على ذلك أمام ديبوسون بكلمة واحدة. وعندما تناولا العشاء معاً قبل ليلتين كنت أنا - ومن غيري! - من شكر القائد على ضيافته الكريمة التي كان من ضمنها ضرب الترجمان وتهديده بالقتل، وعندما وقفت لأقرأ الكلمة التي أملاها السلطان عليَّ مسبقاً كنت أرى بوضوح وجهي الفارسين اللذين أمرا بتعذيبي. أحدهما على بعد أربعة مقاعد من مقعد السلطان، والآخر في طاولة أخرى، وقف السلطان وقال كلمته بالتركية وجلس. ثم وقفت أنا لأقول بصوت تعبت في جعله يليق بترجمة حرفية من فم السلطان:

- أيها القائد المبجل ديبوسون. لقد كان لنا شرف النزول في ضيافتكم الكريمة على هذه الجزيرة التي تملأ الأسماع والأبصار، ولولا مسئولياتي التي أحملها تجاه شعبي وميراث أجدادي لبقيت

في ضيافتكم وقتاً أطول كما أفصحتم لنا عن رغبتكم بذلك، ولكن نداء الواجب يحتم علينا الرحيل إلى فرنسا لنبدأ رحلة استعادة الحق المسلوب..

واختلست النظر إلى الفارسين فما وجدت في ملامحهما ما يشي بأنهما يذكران من أكون فضلاً عن أن تعبر عن أي شيء، حتى لو كان شماتة وهزءاً. لا شيء على الإطلاق. نظرا في وجهي كما ينظران إلى الساقي والحارس والأطباق. إلى الحملين المشويين فوق الطاولة. إلى الشموع المنتصبة بين كل كرسيين. إلى السقف. إلى النافذة. إلى السجاد. ينظران إلى فمي لا عينيّ. يستمعان بإصغاء شديد واهتمام كبير إلى الكلمات التي تخرج من فم رجلٍ لم يرياه من قبل، ولم يأمرا بتعذيبه ليلة كاملة، ولم يهدداه بالقتل، ولم يبك بين أيديهما.

أما ديبوسون فاستمع إلى كلماتي وهو يهزّ رأسه معبراً عن أسفه. ثم وقف ووضع يده على كتفي بشكل مفاجئ، ولوهلة شعرت أنه يحاول أن يعترف بدوري في خطتهم المشئومة ويعيد إليّ بعضاً من كرامتي التي دهستها أقدام فرسانه واختلطت بتراب رودس إلى الأبد. تحدث إلى السلطان مباشرة ويده لا تزال على كتفي قبل أن يستخدمها في حديثه بعد هنيهة، ووجدتني متأثراً بلمسته الطفيفة تلك حتى أني أظنه لا يدري ما فعله فارساه، ولكن ماذا يجدي هذا كله؟ يجب أن أترجم ما قاله حرفاً بحرف. ليس بوسعي أن أدسّ مشاعري في هذه الكلمة مثلاً، ولذلك ترجمت بصوت واحد. لا يصعد ولا يهبط. نبرة لا تتغير كعواء طويل:

- أيها السلطان العظيم. لقد نالت هذه الجزيرة من المجد بوجودكم فيها أضعاف ما حققته منذ خُلقت في وسط هذا البحر، ولقد كنا نتمنى أن تستجيب لتوسلاتنا بأن تبقى فيها ما شاء الرب، وأن تهبنا شرف خدمتكم، ولكنا نعرف مسؤولياتكم الجسيمة ومهمتكم المقدسة، ولا نملك إلا أن نودعكم ونحن نتمنى أن يحقق لكم الرب مرادكم الأسمى، ويعيد إليكم عرش بلادكم العظيمة.

قال مراد ونحن نرتب حاجياتنا ونضعها في الصناديق:

- لا أعرف ماذا أقول لأخفف عنك يا صديقي. أنت لم تكمل عاماً واحداً في حاشية السلطان. أنا أعرفه مذ كان صوته رقيقاً مثل ناي صغير الثقوب. هل تعلم يا صديقي جرما أن السلطان رآني في حياتي أكثر مما رأى والده؟ نعم. منذ ولد ووالده في الغزو، وعندما كبر قليلاً صار والياً على كاستامونو ثم قرمانة بعيداً من والده في الأستانة. قل لي بالله هل يمكن أن يكون قد رأى والده أكثر مني وأنا أجلس في مجلسه كل ليلة؟ في الأناضول. في قونية. في القاهرة. حتى في مكة كنت أجلس أقرب إليه من نصوح باشا وغيرهم من الذين ينامون مبكراً. هل تعلم كم ليلة سهرت مع السلطان حتى طلع الصباح وليس معنا أحد؟ أنا وهو فقط. حتى الساقي كان ينصرف وكنت أكمل مهمته بنفسي.

أغلقت صندوقي وجلست فوقه ورحت أنظر إلى مراد وأنا أحاول فهم ما يرمي إليه. وقف في منتصف الحجرة التي بدأت تخوى وتعود إلى شكلها الحجريّ الكئيب ولوح بيديه قائلاً:

- ماذا يعني كل هذا؟ هأنذا أقتسم الحجرة مع ترجمان لا يكاد يعرف السلطان عنه شيئاً. هل يعرف اسم أبيك؟ أتحداك إن كان يعرف اسمه. هل تعلم كم مرة ألقى عليّ السلطان وشاحه أو عمامته أو حذاءه ليكونوا لي؟ مرات عديدة. انظر انظر..

وعادت يده لتغوص في الصندوق ليستخرج منه أخيراً ثوباً أزرق رفعه بين يديه وأسبله على جسده وهو يقول:

- ألا يبدو لك هذا الثوب أثمن من جسدي كله؟ نعم، إنه ثوب السلطان. لا يوجد أحد في هذه الحاشية بأكملها، بل في كل حاشية تبعت السلطان منذ طفولته يملك ملابس له أكثر مني. عندي صناديق كاملة في قونية لا أستطيع نقلها.

- هنيئاً لك يا مراد! أنا لا أريد ملابسه ولا أحذيته. أريد أن أقوم بعملي وآخذ أجري دون أن يضربني أحد.

طوى مراد ثوب السلطان بعناية وأعاده إلى الصندوق وهو يقول:

- لا يا عزيزي جرما. ما قلت لك هذا لأريك كم أنا محظوظ. قلت لك لأني أعرف كيف يكون القرب من السلاطين. إنهم يا عزيزي..

ثم صمت قليلاً محاولاً أن يستجمع أفكاره ونظر في السقف ورفع يده وكأنه سيلقي خطبة. ثم قال:

- إن السلاطين هم من يرفعون الناس ويخفضونهم. بوسعهم أن يجعلوا الخادم باشا، والجارية أميرة. بوسعهم أن يجعلوا الثريّ فقيراً وقائد الجيش سائس خيل. بل إن ذلك يمتعهم أحياناً. بل دائماً.

مثل الأطفال الذين يلعبون بالخنافس الصغيرة والضفادع. التحكم في مصائر الناس أمتع شيء في السلطة. ألذ من النبيذ وأنعم من الحرير وأثمن من الذهب، ولكنهم من فرط ما يقومون بها منذ نعومة أظفارهم، صاروا يتقنون هذه اللعبة جيداً..

ركل غطاء صندوقه ليغلقه، ودفعه بقدمه قريباً من باب الغرفة وقال:

- إن سلطاننا هذا. السلطان الذي لم يتجاوز عمره خمساً وعشرين سنة. الذي لم يجلس على عرش السلطنة سوى بضعة أيام فحسب لم يعلم خلالها بسلطنته أحد أبعد من أسوار أدرنة، يعرف جيداً أن المضحك يظلّ مضحكاً، والترجمان يظل ترجماناً، ويضعهما في غرفة واحدة. رغم أنه في هذه الجزيرة البعيدة ليس سوى شخص تعيس من دوني، وأبكم من دونك! رغم أهميتنا الكبرى في خدمته، ولكن لا أنا ولا أنت سنصبح وزراء له يوماً ما. أما نصوح باشا الذي ينام أكثر مما يستيقظ، ولا يحمل للسلطان إلا سيئ الأخبار وأفظع الإشاعات. فإنه وزير، وأراهنك أنه ابنه سيصبح وزيراً أيضاً، ولا أستبعد إذا استعاد السلطان عرش السلطنة أن يكون صدراً أعظم.

- أنا لا أريد أن أكون صدراً أعظم. أريد أن أعود إلى قبرص.

ضحك مراد، واتجه نحو النافذة وفتحها وقال:

- قبرص؟ من هنا. قف على حافة هذه النافذة. مدّ جناحيك. طر أيها اللقلق الحبيس. طر باتجاه الشرق، ولا تقف إلا فوق مدخنة الدير.

وظل يضحك بعدها حتى نمنا، وفي اليوم التالي ضحك مرة أخرى

وهو يشير إلى لقلق حلق فوق سفينتنا التي تستعد للإبحار غرباً وليس شرقاً. إلى فرنسا وليس قبرص. إلى مزيد من المجهول وقليل من المعلوم.

سرقوسة

٢٤

شهر في البحر أكثر مما يتحمله رجل مثلي ما زال جريح الروح والجسد. رغم أنها سفينة أكبر من تلك التي جاءت بنا إلى رودس أول مرة، والفرش التي في غرفاتها وثيرة وناعمة. إلا أني أشعر بالحزن والخوف وأنا أمعن في السفر غرباً ويبدو أن مغامرتي ستكون أخطر مما توقعت. لقد جئت إلى رودس بصحبة السلطان طوعاً، والآن أرحل من رودس إلى فرنسا كرهاً. يالهذه الورطة التي ورطني فيها أبي. ما تراه يفعل الآن في حلب؟ إما في البيت أو الكنيسة أو الشارع. أياً كان مكانه فهو بين أسوار، وأنا في خضم بحرٍ لم أخضه من قبل. مع قومٍ لا أعرفهم، وإلى بلدٍ لم أزره، ونحو مصيرٍ لا يتنبأ به أحد.

أرخت السفينة قلوعها في ميناء سرقوسة. نصب خدمها خياماً على شاطئ منعزل ومنعونا من دخول المدينة والاختلاط بالأهالي، وأرسلوا منهم مجموعة تشتري مئونة السفينة. نزل السلطان إلى الشاطئ سباحة. قفز من السفينة رغم برودة البحر في أوائل الخريف. بدا بحاجة ماسة لهذه القفزة. هل يشعر بالاختناق مثلي على ظهر السفينة؟ لا أعرف.

لم ألتق به طوال الأيام الأولى إلا لماماً عندما يحتاج ربان السفينة إلى الكلام معه، وهو لم يترك غرفه إلا لماماً أيضاً. أما بقية الحاشية فكل في شغل. بعضهم سعيدٌ بالرحلة الفارهة والهدايا الصغيرة التي وزعها الفرسان عليهم في رودس، وبعضهم الآخر قلقٌ من طول المسافة وهياج البحر، وبعضهم متبلدٌ لا يهمه أين تسوقنا الرياح. لا أحد خلاي أنا والسلطان يعرف ظروف هذه الرحلة واضطرارنا إليها. ربما من أجل ذلك تجنّب السلطان استدعائي. أنا الوحيد الذي يعرف أنه لم يختر هذا السفر.

لم يكتف السلطان بالسباحة بل طلب إنزال حصانه من السفينة ليقوم بالصيد، وهنا وجب أن أتدخل. ليس لأني أملك من الأمر شيئا، ولكن لأني الوحيد الذي قصده ربان السفينة الفرنسيّ لأبلغ السلطان أن هذا يشكل خطراً على حياته. همس بذلك في أذني همساً وكأن ذلك يجعلني آخذ الأمر بجدية أكبر، ولكن الجدية. أجل الجدية هي آخر ما يمكن أن أشعر به هذه الأيام. يريدونني ترجماناً؟ سأكون ترجماناً فحسب. فعندما حاولتُ أن ألعب دوراً أكبر عذبوني ليلة كاملة. الأمر لا يستحق العناء. سأترجم وآكل وأشرب وأتقاضى أجري، ويوماً ما سأعود إلى الماغوصة. هكذا ستكون حياتي. هل أستحق حياةً أفضل؟

تقدمت نحو خيمة السلطان وناديت الحاجب من وراء الباب بالتركية. وبعد قليل، استقبلني السلطان عارياً وذراعاه ممدودتان وكأنه مصلوب وخادماه يجففانه من الماء، ومن ورائه يقف خادم ثالث يحمل

ثيابه النظيفة. شعرتُ بالحنق وأنا أنظر إليه في هذه الهيئة، لا شيء يستر جسده إلا خرقة صغيرة بين فخذيه. ليس لأنه يقابلني بهذا الشكل بل لأنه يصرّ أن يجفف جسده خادمان ويلبسانه ويعطرانه ويمشطان شعره ويلفان عمامته فوق رأسه ويدهنان شاربيه بالعطور رغم أنه مسافر في جزيرة خاوية إلى بلد لا يعرفه رغماً عنه. ألا يتواضع قليلاً!

- مولاي السلطان. الربان بلانشفاغ يرى أنه من الخطر الشديد خروجكم للصيد في هذه المدينة.

- ولماذا؟ أين الخطر؟

كنت أهذّ عليه ما قاله لي الربان دون أن أزيد حرفاً أو أنقص حرفاً، ودون أن أبالي بفحوى الكلام أو تأثيره على السلطان. ما كنت أفعل هذا من قبل. مضى الزمن الذي كنت أظن فيه أن للترجمان دوراً كالجسر بين السلطان ومحدثيه. الآن لا أبالي لو هوى الجسر تحت قدميه وغرق في الكلام الذي لا يفهمه.

- إنهم يظنون أن جواسيس نابولي يراقبونك.

- وماذا يريدون مني؟

- سأسألهم وأعود بعد ثوان يا مولاي.

خرجت من الخيمة واتجهت إلى خيمة الربان ببطءٍ شديد. أمشي ولا أركض. لم يعد هناك ما يهم. سيغضب السلطان؟ فليطردني من خدمته. سيغضب الفرسان؟ فليخلفوني وراءهم هنا. سأجد حتماً سفينة تحتاج إلى جادفٍ شاب تأخذني إلى الشرق، وإن لم أجدها

فسأجد حقلاً يبحثون فيه عن مزارعٍ ذي خبرة، وإن لم أجده فسأجد ديراً يحب أهله المسيحيين الغرباء، وإن لم أجده فسأصيد السمك وآكل. اللعنة على كل شيء. ركلت التراب فتبعثرت ذراته أمامي قيد خطوة ثم وقفت أمام الربان وقلت دون أن أنظر جهته:

- مولاي السلطان يسأل عن السبب الذي يراقبه جواسيس نابولي من أجله.

تنفس الربان بعمق ثم التفت إلى أحد موظفيه وتهامسا بصوتٍ لا يصل إلي وأنا أقف في مدخل الخيمة. نظرت إليه فإذا هو يفرك جبينه ويفكر مستمعاً إلى الآخر، ثم أجابني بارتباك:

- الملك فيرانتي على علاقة جيدة بالسلطان بايزيد.
- حسناً.

أوليتهم ظهري عائداً إلى خيمة السلطان قبل أن يستدركني الربان قائلاً:

- هيه! مهلاً لم أكمل كلامي.

التفتُّ مرة أخرى فأكملت بذلك دورة كاملة حول نفسي وشعرت بالبلاهة. اقتربت منه هذه المرة ورحت أنظر فيه بعينين حرصت أن أجعلهما بليدتين، باردتين، وكأنهما لا تريان شيئاً.

- هل تعلم من الملك فيرانتي؟
- لا.

هزّ رأسه في استغراب غاضب وتبادل النظرات مع موظفيه ثم قال:

- فيرانتي هو ملك نابولي، وهو يخوض حرباً مع البنادقة. على السلطان أن يعي جيداً أن كلا الطرفين قد يلجآن للتحالف مع قومكم في أي لحظة، وأنت تعلم ماذا يعني هذا!

- مع قومكم؟ لماذا تقول قومكم؟ أنا لست تركياً، ولا، لا أعلم ماذا يعني هذا. أخبرني ماذا أقول للسلطان حرفياً. لا تفترض أني أعلم أي شيء. أنا لا أعلم أي شيء.

وقف الربان ورفع صوته بغضب وكأنه شعر أني أهزأ به، وصاح في وجهي:

- قل له أن كليهما، البنادقة والنابوليون، سيكونون على استعداد لتسليمه إلى بايزيد مقابل التحالف معه!

عدت إلى خيمة السلطان لأجده قد لبس ملابس الصيد وظل واقفاً أمام باب الخيمة نافد الصبر. حثتني نظراته أن أبدأ في الكلام فور وصولي إلى مسافة تتيح له سماع كلامي ولكني مشيت على مهل حتى وقفت أمامه ورفعت رأسي وقلت:

- يقول الربان إن النابوليّين والبنادقة سيحاولون خطفك وتقديمك لبايزيد مقابل تحالفه معهم في حربهم ضد بعضهم.

- فقط؟

- نعم.

- مكثت كل هذا الوقت في خيمتهم وهذا ما أخبروك به فقط؟

أطرقت ولم أجب فجبذ ياقة ثوبي وقال بنبرة غضب مكتومة وبالعربية التي لا يتقنها سوانا:

- هل تخفي عني شيئاً؟
- لا يا مولاي. لقد كانوا يتهامسون بعضهم مع بعض، وهذا ما استغرقهم وقتاً.
- يتهامسون! ولماذا لا تخبرني أنهم يتهامسون؟
- لأني لم أسمع همسهم يا مولاي.
- ولكنك رأيته! ألا يكفي؟ ألا تشعر أن الأمر مهم بما يكفي لأن تخبرني به؟
- أعتذر لك يا مولاي!
- أنت لست ترجماناً فقط. أنت عيني. أذني. لساني؟ أتفهم؟

ثم دفعني بيده في صدري فتراجعت إلى الوراء. ثم في هذه اللحظة لم أعد أتمالك نفسي. تراجعت خطوتين أخريين وكأني ثورٌ يستعد لهجوم ثم قلت بنبرة الغضب المكتوم نفسها التي خاطبني بها وبالعربية:

- إذا كنت عينك وأذنك ولسانك فلماذا تركتهم يعذبونني كل هذا العذاب؟ ولماذا لم تأخذ بحقي منهم أيها السلطان؟

نصب السلطان قامته وجمع الهواء في صدره ولكنه ظل صامتاً يحدق إلى وجهي وهو معقود الحاجبين واللسان أيضاً. نظر إلى الخادمين الذين يقفان غير بعيد منهما ثم عاد لينظر إليّ قبل أن يزفر الهواء الذي في صدره ويقول:

- أنت أحمق. أنت لا تفهم شيئاً.

قلدته. لا أدري لماذا كنت أقلده. ربما كنت أحاول أن يجعله يرى

كيف يبدو أسلوبه وكلامه مقيتاً ومزعجاً. نفخت صدري بالهواء. نصبت قامتي. ثم قلت:

- سنرى كيف ستفهم أنت من دوني!

واستدرت مولياً إياه ظهري، ومشيت. لم أختر جهة للمشي. كنت أمشي في الجهة المعاكسة للبحر فقط باتجاه المدينة. لا حاجيات معي ولا ملابس. لا مئونة ولا غذاء. باستثناء نقودي التي لا تفارقني. مشيت حتى انتهت الرمال وبدأ الحصى. ثم انتهى الحصى وبدأ الطريق الذي عبدته العربات والبغال. ثم دخلت من بوابة المدينة أخيراً واتجهت نحو المنارة التي تلوح عن بعد يعلوها صليبٌ نحيل. دخلت الكنيسة، وجدت شماساً كلمني بإيطالية تشوبها كلمات لا أفهمها، وحدثته بإيطاليةٍ لا تشوبها شائبة، واتفقنا أن أنام في الكنيسة تلك الليلة وأن يشتري لي طعام يومين بقرش رودسيّ. نمتُ في حجرة حجرية ضيقة ذات سقف مائل. حلمتُ بأمي.

٢٥

غادرت سفينة السلطان ميناءها أخيراً. صعدت إلى منارة الكنيسة ورحت أراقب إبحارها البطيء بعيداً مني. شعرتُ أن المرساة الثقيلة التي رفعوها من تراب المرفأ ظلت جاثمة فوق صدري طوال الرحلة، وأني لتوي أتنفسّ هواء الحرية رغم الغربة. وددت لو بوسعي أن أقرع الأجراس التي حولي الآن لتتنبه المدينة بأسرها لفرط سعادتي. ليس لأني تركت هذا العمل اللعين فحسب، بل لأني أشعر لأول مرة في حياتي أني أملك أمر نفسي. لا أبي يعرف أين أنا ولا أحد ممن كانوا معي على السفينة سيتذكر أين تركني. في جيبي أموال ولا شيء آخر. لا ملابس، ولا حاجيات، ولا حتى صليبي الصغير بقي معي. بوسعي في هذه الجزيرة الغريبة أن أكون ما أريد. أن أدّعي أي شيء. أن أبدأ أي حياة. أن أعمل مزارعاً أو راهباً أو ربما ترجماناً. أن أظل فيها أو أرحل عنها. أن أتزوج. أن أنجب. أن أزرع جذوراً أو أهيم في الأرض بلا نهاية.

نزلت من المنارة لأجد شمّاس الكنيسة الطيب لورينكو يقشّ مدخلها. عانقته وأنا أخبره عن فرط سعادتي فابتسم ليّ معبراً عن سعادته بسعادتي ورسم على صدره صلاة سريعة، وقال: «ليغفر الرب لنا» وضحك وكأنه يعرف أنه سيغفر له ذنب كذبته أمام الجنود الذين

بحثوا عني طوال يومين، وطرقوا باب الكنيسة، وقال لهم إنه يعيش فيها وحده، وفهمت ثلة الجنود الفرنسيين من كلامه أن ليس في الكنيسة الآن أحدا غيره. بين لغتين، أنقذني منهم دون أن يكذب. لقد قال إنه الوحيد الذي يعيش هنا، وأنا صدقاً لا أعيش هنا. أنا أقيم هنا فحسب منذ يومين!

لطيفٌ منه أن يفعل هذا من أجل عابرٍ غريب، ولكن الأمر استغرقني ليلة طويلة قبلها شرحت له فيها كيف أني هاربٌ من أسر سلطانٍ مسلم واقعٍ في أسر فرسانٍ مسيحيين، وأني راهبٌ جعلوا منه ترجماناً، وترجمانٌ جعلوا منه عبداً، ولم يبد أن لورينكو فهم شيئاً من هذه الحكاية المعقدة، ولكنه اقتنع في قرارة نفسه أني لست سوى رجلٍ فقير انقطع به الطريق، وألقى به البحر، ولا أبحث سوى عن حياة مسيحية هادئة لا يريدها له هؤلاء الذين يجوبون الطرقاتِ بحثاً عنه. فاكتفى بذلك، وابتسم لي ابتسامةً مضيئة في وجه مستدير وشاحب، ورفع حاجبيه الكثيفين وحرك كفه فوق رأسه الحليق تباعاً وهو خَجِلٌ من امتناني المفرط له.

الآن بوسعي أن أخرج من الكنيسة بعد أن بقيت حبيساً في قبوها ليومين وثلاث ليال. خرج لورينكو صباحاً ومشّط الأزقة القريبة من الكنيسة ثم قصد الميناء وسأل المارة عن سفينة الفرسان فأشاروا إلى واحدة تبتعد ببطء عن الشاطئ. فعاد إليّ من فوره وأخذني بيدي وأخبرني بما رأى. تنفست الصعداء وعانقت لورينكو، وصعدتُ إلى

منارة الكنيسة ورحت أراقب حريتي تتسع باتساع المسافة بين سقف هذه الكنيسة الصغير وشراع تلك السفينة المغادرة.

جالت عيناي في أرجاء المكان من حولي. أسطح البيوت المتلاصقة التي تتكئ جدرانها على الكنيسة وكأنها تحملها على الأكتاف. إنها كنيسة قديمة ويبدو أنها رممت عدة مرات من تعاقب طبقات الجير وبعض الطلاء وقد حال لونها في الأطراف والأسقف.

سألته وأنا أتناول معه العشاء عن سبب وجود منارة.

- هل كانت مسجداً؟

- لا، لا. بالتأكيد.

- ولكن المنارة طويلة فعلاً. كأنها مآذن المساجد.

- لم تكن مسجداً يوماً ما. إنها بيت الرب منذ الأزل.

غمست خبزتي السميكة في إناء الزيت الصافي حاشراً في وسطها حبتي زيتون وعوداً من البصل وقلت:

- حتى المسلمون يسمون مساجدهم بيوت الرب يا لورينكو. لقد عشت عمري كله في بلاد مسلمين.

استمع لي مطرقاً وبدا وكأنه يعيد ترتيب كلماتي المبعثرة رأسه ليتأكد من سلامة فهمه. ثم قال:

- هذا بيت الرب. هل تؤمن بالرب؟

- أنا مسيحي يا لورينكو. بالطبع.

- أي رب؟

اتسعت عيناي بالدهشة وكدتُ أضحك لولا أن ردعتني نظراته المتشككة الصارمة فقلت:

- ربي وربك. يسوع المخلص بالتأكيد.

فتح فمه ليتكلم ثم لم يقل شيئاً وظلّ فمه مفتوحاً بعض الشيء. نزلت نظراته من وجهي إلى صدري ثم أطرق وهو يفكر وقد بدا على وجهه بعض القلق:

- لورينكو. هل تظنني مسلماً؟

قال دون أن يرفع رأسه وإن حرك يده حركة تدلّ على تبرئة الذات:

- لقد جئت في سفينتهم!

- بل جئت في سفينة فرسان الهيكل يا لورينكو. هل يوجد مسيحيون أكثر مسيحيةً منهم!

وقهقهت قليلاً لأحاول أن أعيد الحوار إلى مساره الهادئ. نفض لورينكو يده من فتات الخبز وقال لي:

- ولكنك تعرف مساجدهم؟

- لورينكو. هل أنت جاد فيما تقول؟ أنا من حلب. حلب من بلاد المسلمين. بالتأكيد أعرف المساجد.

- هؤلاء المسلمون كما تسميهم أشرار. لقد كانوا هنا من قبل وقد فعلوا منكرات يكرهها الربّ.

- متى؟

- هنا. هنا في سرقوسة وكل صقلية..

استدركت سؤالي الخاطئ إذ قلت له «أين» بدلاً من «متى». أعدت صياغة السؤال فلوح بذراعه وكأنه يرمي شيئاً في يده خلف ظهره وقال:

- أوه! منذ زمن بعيد، ولكن الجميع يتذكر ما فعلوا، ولم يكن فعلاً طيباً. الأرض تكرههم والسماء أيضاً.

هممتُ أن أخفف بعض حقده على المسلمين وأتكلم عن خيرهم وشرهم ولكني آثرت أن أصمت الآن. أنا لا أعرف حجم غضبه بعد، والناس يحجمون أحياناً عن ذكر الأسباب الحقيقية وراء مشاعرهم الملتهبة. ربما لم ير هذا الشمّاس مسلماً قط؟ أو ربما لم ير إلا مسلماً سيئاً. ربما أساء مسلمٌ له أو لعائلته. ربما يثيره كلامي إلى الحد الذي يفقد ثقته بي وأجد نفسي خارج هذه الكنيسة؟

كسر لورينكو الصمت بعد هنيهة وقال:

- وهل يوجد كنائس في حلب؟

- أجل. كنائس كثيرة، وكانت أكثر منها الآن قبل هجوم المغول.

- هدموا الكنائس بالتأكيد. أو حولوها إلى مساجد. قلت لك. لقد فعلوا هذا بهذه الكنيسة. سرقوا الأواني المقدسة. ثم حولوها لمسجد وبنوا منارتهم. ثم عادت إلى كنيسة لأن الرب يتغاضى أحياناً عن الشر ولكنه لا يتخلى عن أبنائه.

- أجل يا لورينكو. لا ريب أن هذا الأمر آلم أهل هذه الكنيسة، وقد اضطررنا نحن السريان مراراً أن نصلي في كنائس الأرمن والكثالكة حتى تكتمل أموال بناء كنائسنا.

-   أنتم سريان؟ ماذا يعني سريان.

-   ألا تعرف ماذا يعني سريان؟ نحن المسيحيون الأوائل. الذين تكلم الرب مثل كلامهم وكان منهم.

بدا لورينكو منجذباً إلى كلامي واختلطت في وجهه ملامح إنكار ودهشة. أسند ظهره على الجدار واستحثني على المزيد من الكلام بنظراته، وظل فمه ذي الأسنان السفلية المتباعدة مفتوحاً وقد اختفت أسنانه العلوية تحت شفته الغليظة وشاربه الكثيف.

-   السريان هم الآراميون.

-   الآرامية لغة المسيح فعلاً، ولكن المسيح كان يهودياً وليس سريانياً.

-   أوه كل السريان كانوا يهوداً يا لورينكو. كل الناس كانوا يهوداً أو وثنيين.

-   بماذا يؤمن السريان؟

-   ماذا.. تعني..؟

كشفت النبرة الخافتة التي طرحت فيه سؤالي ممزقاً بين كلمتين فصلت بينهما سكتة طفيفة قلقي من هذه الأسئلة. كنت أعرف أني كلما أمعنت في الرحيل غرباً سأجد شرقيين أقل ولاتين أكثر، وسأواجه دائماً أسئلة حادة تمزّق الود القصير. هزّ لورينكو كتفيه متعجباً من كوني لم أفهم سؤاله. أطرقتُ وفكرتُ في عواقب الصدق وعواقب الكذب وأيها ستجعلني أبيت تحت سقف أو في العراء. تنفست بعمق واستشعرت نظرات لورينكو المتسائلة تقع عليّ حارقة وعجلى.

- نؤمن أن يسوع هو ربنا ومخلصنا.

همّ لورينكو أن يعقّب على إجابتي فاستطال عنقه جهتي ثم أحجم لسبب لا أعرفه. أطرق وقال وهو يحمل إناء الزيت وطبق الزيتون ويرفع عجيزته استعداداً للنهوض:

- تقدّس اسمه. تقدّس اسمه.

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٦

أويت إلى غرفتي ليلاً وأنا أفكر في مكان أنام فيه غداً إذا طردني لورينكو. هل يفعل؟ يبدو أنه ندم على إيواء مهرطقٍ مشرقيّ، ولكن كيف لم ينتبه إلى كوني غريباً ومن المشرق؟ أوه. لا بد أنه ظن أني قادم من البلاد المقدسة. المسكين، أيظن الممالك المسيحية ما زالت قائمة هناك؟ لا. لقد أخطأ فحسب. إنه كبير في السن وطيب القلب. لا بد أنه ارتكب غلطةً وفاته أن يفكر في هذا الاحتمال. ربما ظنني لاتينياً لأني لجأت إلى كنيسة لاتينية؟ ولكنها أول كنيسة تصادفني في المدينة. أنا في الحقيقة لا أعرف إذا ما كان هناك كنيسة أخرى شرقية أو أياً كانت.

في الصباح التالي استيقظت مبكراً قبل شروق الشمس. خلعت ثيابي وغسلتها ونشرتها قريباً من الشباك لتجف قبل أن يستيقظ لورينكو. إذا كان هذا آخر يوم لي في الكنيسة فيجب أن أغادرها بهيئة حسنة حتى يكون بوسعي أن أجد مكاناً آخر للنوم.

أخرجت نقودي من صرتها ورحت أعدّها مرة أخرى رغم أني أعرف أنها تسعة وعشرون ما بين عملات مصرية وروديسية وتركية وقطعة ذهب واحدة. سوف أجد أرضاً جميلة وفيها بيت صغير. سأستأجرها من صاحبها بنصف غلة الأرض. ربما أزرع باذنجاناً أو أجاصاً، وربما بعض الأعشاب العطرية. سأستشير عطاراً يخبرني ماذا

أزرع، وسأكون أنا الذي يمده بأعشابه. سنقيم علاقة تجارية ممتازة وقد أشتري الأرض من صاحبها بعد سنتين أو ثلاث.

سمعت صوت لورينكو يمشي في الممر وهو يتمتم لنفسه بصلوات لا أسمعها. اقترب صوته مني رويداً فلبست ثوبي الداخلي وهو لا يزال مبتلاً بعض الشيء وجلست في مكاني. أطل برأسه بعد قليل وهو يقول:

- هل استيقظت؟

- أجل.

- أوه غسلت ثيابك.

- نعم.

خطا بضع خطوات داخل الحجرة ثم جلس قريباً مني وأطرق في الأرض، وقال:

- ثمة شخص يريد أن يتكلم معك.

أومأت له بالموافقة ونظرت بفضول جهة الباب الذي غادره لورينكو وعاد بعد قليل بصحبة رجلٍ غربيّ الملامح أبيض الوجه يبتسم ابتسامة جميلة. صافحني بيديه الاثنتين معاً بحرارة وود، وقال:

- أنا قسيس الكنيسة. اعذرني أني لم أكن هنا لاستقبالك. كنت ضيفاً على قداس خاص في قطانية.

- أهلاً بك. لتوي بدأت أفيق من الفوضى التي كنت فيها لأتساءل أين قسيس هذه الكنيسة يا ترى؟

ضحك القسيس ضحكة عالية، وظل يقهقه رغم أن كلامي لم يكن

مضحكاً إلى هذا الحد. ابتسم لورينكو ابتسامة بدا معها سناه الأماميان أخيراً بلا نابين إلى جوارهما. ثم أشار لنا معاً بالجلوس فجلسنا.

- في الحقيقة أني وصلت البارحة ليلاً وكنت قد أويت إلى فراشك فلم أرغب في إزعاجك. لعلك سمعت بعض الضجة عندما فتح لي لورينكو الباب.

- لقد كنت متعباً جداً ونمت مبكراً.

- أعذرك. أعذرك. إن ما مررت به فظيع. لقد قصّ عليّ لورينكو كل شيء.

أطرقت وقد أشعل تعاطفه معي بعض أحزاني فقلت:

- رغم أني لم أحك له كل شيء بعد.

هز رأسه في تعاطف. ثم سادت هنيهة من الصمت قبل أن يمسح القسيس بإصبعيه جانبي شفتيه ويقول:

- الحقيقة أنه في الوقت الذي كنت فيه نائماً بعمق كما تقول، لم أتمكن أنا من النوم إطلاقاً. رغم تعب السفر ومشقته من قطانية إلى سرقوسة.

- ولماذا؟

- .. أفكر فيك!

- تفكر فيّ أنا؟

- نعم. أفكر كثيراً في السبب الذي أوصلك إلى هنا. هل تظن أن كل ما حدث لك لم يكن مقدراً عند الرب؟ هل تظن أن هروبك من هؤلاء السراسنة ولجوءك إلى كنيستنا محض مصادفة؟

لوهلة بدت لي الكلمة التي وصف بها المسلمين غريبة ومألوفة في آن. ثم سرت في جسدي رعدة طفيفة عندما نقلتها من اللكنة الإيطالية التي نطقها بها إلى اليونانية التي كنا ننطقها بها في حلب. ننطقها؟ لا، لم يكن أحدٌ منا يجرؤ على التفكير بها فضلاً عن التلفظ بها. فعقاب ذلك مثل عقاب المشي فوق قبورهم أو الاختلاء بنسائهم: أن تترك دينك أو رقبتك، ولم يكن نوّاب السلطنة يتهاونون في ذلك البتة، ولذلك كان المسيحيون في حلب يغضون أبصارهم إذا مرت بهم مسلمات أكثر مما يغضّ المسلمون أنفسهم أبصارهم.

تنفست بعمق للخروج من هذا الخوف الطارئ، وعدت إلى كلامي معه:

- كلنا نعلم أن الرب لا يقضي شيئاً عبثاً.

- بالتأكيد يا جرمانوس! الرب يبعث لك رسالة عندما يجعل مأواك في كنيسة لاتينية. إنها أمنك وخلاصك.

أطرقت صامتاً وقد عرفت الآن أين سيتجه هذا الحديث. سنتحاور حول اللاهوت والناسوت. حول الطبيعة والطبيعتين. حول الصلب والخلاص. ليتني غسلت ملابسي ليلاً حتى تكون قد جفت الآن فأغادر المكان قبل أن ألتقي القسيس، ولكني مضطر لسماع كل هذا الآن.

- .. لا تسئ فهمي يا بني. أنا لست ضد كنيستكم. بل إني أحترم تقاليدها وأحترم كفاحكم في المشرق وأنتم محاطون بأعداء الملة من كل جانب. أنتم صخرة مسيحية صلبة في وجه الرياح العاتية، ولا بد لكل مسيحي أن يقدر هذا ويحترمه.

- أشكرك.

- ولكني يا بنيّ أحب لك الكمال. أنت لست بعيداً منه. لا ينبغي لك أن تبدأ من أول الطريق. أنت معمّد بالتأكيد، ومتعلم. لقد سمعت من لورينكو أنك كنت راهباً أليس كذلك؟ ما أروع هذا وما أجمله. لم يبق إلا القليل يا بنيّ وتحوز رضا الرب الكامل وخلاصه المؤمل.

- ماذا تريد مني؟

- لا لا يا بني. لا تسئ فهمي أرجوك. أنا لست هنا لأزعجك أو أتهمك. أعلم أن كثيراً من الإخوة يسيئون إليكم. عن نفسي أنا لا أظن أن إخوتنا من المسيحيين الشرقيين مهرطقون على الإطلاق. أنتم لستم نسطوريين. أنتم في عين الرب وفي قلوبنا.

هممت بشكره ولكني قررت أن ألزم الصمت وأدعه يكمل.

- يا بنيّ. لنختصر هذا كله. لا يمكن لشخص أن يتخيل أن يكون الإله هو نفسه الإنسان، والإنسان هو نفسه الإله. هذا لا يعقل. هل يمكن أن تكون براً وبحراً معاً؟ إنهما طبيعتان يا بني. طبيعتان. أليس هذا أكثر منطقية؟

- في الحقيقة أني لم أفكر في الأمر من قبل.

- نعم. كثيرون لا يفكرون في هذه المسائل. يستمرون على ما ولدوا عليه فحسب، ولكني أستشعر فيك قناعة بما قلته أليس كذلك؟

- نعم. يبدو كلامك مقنعاً.

- سوى ذلك لا يوجد هناك خلاف إلا في الروح القدس. من أين تظن أن الروح القدس ينبثق؟

- من الأب.

- إذن ما فائدة الابن؟ لماذا هناك ثالوث إذن. هذا غير منطقي. الروح القدس ينبثق من الأب والابن معاً.

- إذا كان الروح القدس موجوداً ونؤمن به فإنه لا يهمني كيف وجد ومن أين انبثق.

انفرجت ملامح القسيس ببشر وسرور، وربت على كتفي بقوة ثم قال:

- إذن انتهينا. كل ما عدا ذلك مجرد طقوس وتفاصيل صغيرة لا تهمني أنا شخصياً، ولكن خلاصك يا بني.. خلاصك هو ما يهمني. هل تحب أن نتقبلك في هذه الكنيسة؟ وإذا بقيت معنا حتى الفصح المقبل فسيكون هذا رائعاً، ولكن لن ننتظر.

هززت كتفي ويدي بلا اكتراث فوقف القسيس فوراً وجذبني من ذراعي برفق لأقف ثم عانقني بحرارة. همّ بالخروج فصحت به عند الباب:

- لحظة! أرجوك أيها القسيس..

التفت إليّ بجسده كله مستديراً وعلى وجهه علامات رأفة واستجابة وقال:

- ماذا تريد يا بنيّ؟

- لورينكو..

تبادل القسيس النظرات مع شمّاسه ثم قال:

- ما به؟
- يظنني مسلماً!

تجمدت ملامح القسيس على فمٍ مفتوح. نظر إلى لورينكو وكأنه يستفهم منه هذه حقيقة الأمر. هزّ الأخير رأسه يمنة ويسرة نافياً ذلك بشدة وقال:

- لا، أبداً. يالهذا الكلام الغريب. لماذا ظننتني أقول هذا؟
- لقد عشت في بلاد المسلمين طوال حياتي. قد تظنون أننا في المشرق صرنا أقرب إليهم منكم. أليس كذلك؟ ألم تهاجمنا الجيوش الصليبية مثلما هاجمتهم؟ ألم ينهبوا كنائس القسطنطينية...
- مهلاً مهلاً يا ولدي. عم تتحدث؟ مرّت مئات السنين يا ولدي..
- هل تغير شيء أيها القسيس؟ إن لورينكو يتوجس مني اليوم كما توجسوا هم منا قبل مئات السنين.

أغلق القسيس فمه وتنفس من أنفه بعمق وأغمض جفنيه قليلاً ثم قال:

- لا يا بنيّ. الأمر ليس كما بدا لك. لقد فهمت الآن، وسأشرح لك. أتدري؟ تناول بعض الطعام الآن ثم تعال إلى مكتبي. لورينكو. دلّه على مكتبي من فضلك.

خرجا ليتركاني وحدي، وقد جفّت ملابسي، وابتلّت روحي.

٢٧

«أيها المقدس المبجّل. إن سرد الأحداث التي مرّت بنا يتطلب وقتاً أطول وربما ظروفاً ملائمة. فرسالة كهذه أقصر من أن تحمل في طياتها كل ما حدث، ولكن صمتي حول هذه الأحداث، علاوة على الأحزان المشتركة التي ينوء بثقلها العالم كلما سمع باسم مدينتنا سرقوسة فأشفق عليها، إنما هو شللٌ في العقل وجمود طغى على هذا الإنسان، كما قال عنه أحد الأنبياء بفم الله «لقد تلقيتهم بالويلات ولكنهم لم يتوبوا»، ولكني إن كتبت إليك فإن ذلك سيجلب لي بعض العزاء، ويشرق في نفسي بعض الأمل في انزياح الشرور التي تعذبني..

استولى العدو بالقوة على الميناءين اللذين تقع بينهما سرقوسة فلم يبق ما نأكله بعد أن نفد كل شيء. لم يبق طيرٌ ولا سمكٌ. ألا يبدو غريباً أن يباع رأس الحصان بخمس عشرة قطعة ذهبية؟ وأن يمسي لحم لحمير ألذ ما يؤكل؟ وأن تباع حفنة القمح بمائة وخمسين قطعة ذهب. ثم بمائتين؟ حتى تلك الأشياء التي، كما يقول غريغوريوس ثيولوجوس، عادة ما تكون طعام الفقراء نفدت. لا زيتٌ ولا ملحٌ ولا جبن. ثم حدث هذا الشيء، حتى الآن أفظع شيء؛ أكثر الآفات خطورة.

تعذب بعضنا بسبب مرض يسمى الفك، سمي على هذا النحو من تقلص الأعصاب؛ وقضت السكتة الدماغية على بعضنا الآخر، وقتلتهم على الفور، أو لم يتمكنوا إلا من تحريك نصف أجسادهم

أو حرموا تماماً من قوة الحركة؛ الآخرون أجسادهم منتفخة مثل المثانة. مشهدٌ فظيعٌ للناظر، وعلى الرغم من أن الموت كان دائمًا يخيم عليهم، إلا أنه أطلق تلك المخلوقات البائسة في النهاية مع معاناة شديدة، لأن حتى الموت كان يطيع الأمر الإلهي.

أخيراً وقعنا في قبضة الأشرار، وتعرضنا لأشد مما تعرضت له أورشليم والسامرة. إنه الذبح الذبح. بعد أن كسروا كل أسلحتنا. سيوفنا. أقواسنا. نبالنا، واستسلم الجميع. أولئك الرجال الشجعان الذين أسميهم العمالقة. استسلموا بعد أن أصيبوا بجروحٍ لا حصر لها من أجل محبة المسيح. لقد كان المشهد مروعاً ملأ أعين كل من رآه بالرعب من فظائع ما تعرضنا له. دمرت جدراننا تلك الآلات التي يرمون بها الحجارة. إن الرغبة الشديدة في امتلاك مدينتنا قد ألهبت قلوبهم بالفعل، وأخيراً فعلوا.

عاثت السيوف في أجسادنا بقدر ما عاث الخوف في أرواحنا، وشعرت أن النبوءة القديمة التي تحدث عنها موسى تتحقق. لأنه أخطأنا ضد الله مثل بني إسرائيل فشربنا كأس الغضب الإلهي الذي شربته إسرائيل. لقد جعنا تحت الحصار جوعاً لا وصف له. أكلنا الأعشاب والقاذورات والجلود وكل ما يخفف عنا وطأة الجوع. طحنّا عظام الوحوش ذوات الأربع في المطاحن وأكلناها بعد ترطيبها بالماء، وكرهنا الجسد البشري. أجل كرهناه بعدما رأينا الناس تأكل أطفالها من الجوع».

أطبق القسيس غلاف الكتاب الذي بين يديه على غلافه الآخر. بدا الكتاب سميكاً بغلافيه وإن كانت الأوراق التي فيه أقل مما يبدو

عليه حجمه. تأملت الكتاب وهو ينتقل من بين يدي القسيس إلى خزانة الكتب من خلفه. ثم أطرقت وأنا أفكر في الموقف الذي أنا فيه. هل أنا متهم؟ لماذا يقرأ عليّ تاريخاً كهذا إلا لينقّيني من كل المشاعر الجيدة تجاه المسلمين؟ أكل هذا لأني حلبيّ؟ أو لأني عملت ترجماناً لسلطانٍ مسلم؟ إذن ماذا سيقرءون عليّ لو علموا أن أمي كانت تقف بين المسيحية والإسلام وتتمسح بثياب يسوع ومحمد معاً؟

عاد القسيس ليجلس خلف مكتبه متجهم الوجه. كان لورينكو قد غادرنا بعد أن أوصلني إلى المكتب، وبعد هنيهة صمت، قلت بصوت خافت:

- هذا فظيع.

استمر القسيس صامتاً وزمّ شفتيه وكأنه يفكر فيما يقول ولم يسمع ما قلت. ثم بعد لحظات تكلم ببطء دون أن ينظر إليّ:

- هذه رسالة الراهب ثيودوسيوس إلى رئيس شماسي هذه الكنيسة التي تقف فيها الآن يا جرمانوس. لقد رأت هذه الجدران وسمعت ما لا يخطر على بال أحد.

سالت دمعة ضئيلة على خد القسيس تركها تجري في وجهه دون أن يمسحها، واستمر في كلامه:

- وفي كل عام، نقيم قداساً خاصاً في هذه الكنيسة نقرأ فيها رسالة ثيودوسيوس ونصلي لأرواح الشهداء الذين قضوا في ذلك العهد الكئيب وخلت من أجسادهم المباركة هذه المدينة.

رسمت بيدي صليباً على صدري وأنا أصلي معه وإن بقيت عاجزاً عن الشعور بالتعاطف مع ضحايا مقتلة حدثت قبل مئات السنين. كل ما يعنيني الآن هو موقف هذا القسيس الذي يحاول إدخالي في كنيسة اللاتين وإغراقي في الشعور بالذنب في آن واحد. هل يتركني أنام هنا حتى أجد طريقي في هذه المدينة الجديدة؟ ابتسم أخيراً ورفع رأسه ومسح دمعته وقال بصوتٍ محتفٍ وكأنه قرأ أفكاري:

- حسناً. لقد مضى وقتٌ طويل فعلاً، ولكن عليك ألا تلوم لورينكو. إنه يعمل في هذه الكنيسة مذ كان صبياً يخدم المذبح، وهذه القصة التي تعرضت لها الكنيسة لم تبارح جدرانها رغم مرور السنوات. لاسيما وقبور الشمامسة والقساوسة موزعة في المكان. في القبو والحديقة والقبور الأربعة حواليّ المدخل.

- سيدي القسيس. إن مخاوف لورينكو مبررة كما تقول ولكنها لن تسبب أي مشكلة. فأنا سأغادر فور حصولي على عمل، ومتى وجدت بيتاً ذا أجرة معقولة فلن يراني لورينكو بعد اليوم.

اتسعت عينا القسيس بذعر ولوح بيديه معاً نافياً الأمر وكأنه يهشّ ذباباً كثيفاً من أمام وجهه وقال:

- لا لا، هذا غير ممكن يا بنيّ. أنت مؤمن وهذه كنيستك، ونرحّب بك دائماً. إننا في الحقيقة سعداء جداً بك. ابق معنا أرجوك. لن تجد صديقاً أخلص من لورينكو على الإطلاق.

صباح اليوم التالي اصطحبني لورينكو إلى السوق بعد أن زال

توجسه من عقيدتي السريانية أخيراً وزال توجسي من لغته الصقليّة التي تقفز منها الكلمات العربية والفرنسية بين جملةٍ وأخرى. أربكت سمعي أول الأمر ثم اعتدت ذلك وصار يدهشه أن أنبهه إلى كلمةٍ قالها يظنها إيطالية وهي عربية أو فرنسية. ضحك وهو يقول:

- لقد رحل الغزاة الملاعين عن أرضنا ولكن غرسوا كلماتهم في ألسنتنا إلى الأبد.

ثم أخرج لسانه من فمه وتظاهر بأنه يكنسه بأصابعه بشكل هازل. ضحكت معه. ثم سألني:

- كيف تتقن كل هذه اللغات؟

- لا أعرف. لقد بدأ ذلك بالمصادفة ثم أصبحت شغوفاً بتعلمها.

- هل يجعلك هذا سعيداً؟

- لا أدري عن السعادة، ولكن يجعلني أشعر ببعض الأمان.

لوح بيده علامة عدم الاكتراث وقال:

- لا أدري فيم تحتاج إليها!

لم أرغب في مجادلته. كنت سعيداً بصداقتنا التي بدأت ولا بد أنها ستكون مفيدة لي. فوافقته على ذلك:

- كما تقول يا لورينكو. ها أنت تتحدث نصف لغات الأرض وأنت لا تدري!

ضحك وقال:

- أوه! تحدث أشياء في صقلية لا تحدث في أي مكان آخر.

كنا قد بلغنا السوق فعلاً ولكنه عرّج بي على بركة صغيرة على جرف قريب من البحر وقال:

- هل تعرف الحورية أريثوسا؟ حبيسة البحر؟

- لا، لم أسمع بها.

- اليونانيون يقولون إنها هربت من حبسها البحريّ وخرجت من هنا. من هذا النبع العذب.

- وأين هي الآن؟

نظر لورينكو في وجهي مبهوتاً ثم ضحك، وقال:

- إنها أسطورة. لا توجد حوريات. هل يوجد حوريات في المشرق؟

شعرت بالخجل من ضحكه. كنت أعرف ماذا تعني الحورية وماذا تعني الأسطورة ولكنه قالها باليونانية التي لا أعرفها، وبين اللغتين سقط المعنى. ظننته يتحدث عن امرأة هاربة من سفينة. هذا ما فهمته للوهلة الأولى، والحقيقة أني متعبٌ وبنصف وعيّ. لم أنم جيداً طوال الليالي التي مضت. اعتذرت بذلك، وفركت عيني الحمراوين أمامه ليفهم. ربت على كتفي وقال:

- أنت هربت من حبسك مثل أريثوسا. لهذا عرجت بك على النبع لأريك إياه.

وتابعنا مشينا وهو يمسك بيدي وكأني طفل صغير وقال متابعاً كلامه:

- .. وفي الغد تفيض عذوبة وتسقي ما حولك مثل هذا النبع الأبديّ يا صديقي.

اشترى لورينكو الطعام الذي يريده من السوق واتخذنا طريقاً آخر للعودة إلى الكنيسة مرّ بنا في قلب المدينة. شوارعها جميلة رغم ازدحامها بالباعة والناس ووادعة رغم صخب الأصوات المتداخلة والكلمات تتطاير من حولي بالإسبانية واليونانية والإيطالية. هطل بعض المطر خفيفاً ففاحت في الممرات الحجرية الضيقة بين البيوت رائحة الليمون. خرجت بعض الفتيات ليعدن الملابس المنشورة إلى داخل المنازل ففوجئت بهنّ يحيينني قبل أن أحييهن. شعرت بألم طفيف في وجنتي وأنا أعلق ابتسامة ثابتة في وجهي. أنا سعيد في سرقوسة، وأشعر أنها قد تصبح وطني. سوف أستأجر أرضاً وأزرعها..

- قل لي يا لورينكو. ما أفضل ما يزرع هنا؟

مطّ لورينكو شفتيه إلى الأسفل وكأنه لا يعرف إجابة محددة. ثم نفض يده من شيء وهمي فيها وقال:

- ماذا تزرع في هذه الجفاف!

- أزرع ما يأكله الناس. أنا مزارعٌ بارع يا لورينكو. لو عرفت ما أجيده من الزراعة لما صدقت أذنيك.

- لا أدري. إنهم يزرعون كل شيء تقريباً. البرتقال اللوز الباذنجان القطن..

- أريد أن أزرع شيئاً مربحاً..

أطرق لورينكو قليلاً ومشينا بعض الوقت وهو يفكر قبل أن يقول:

- قمح الشتاء. القمح القاسيّ الجيد الذي يشتريه التجار بأسعار عالية ويبيعونه في الشمال.

رحت أحك رأسي في تردد وأقول:

- القمح يحتاج إلى أرضٍ واسعة، ولا يزرع إلا موسماً واحداً.

- .. ولكنه لا يكلفك جهداً! تزرعه في الخريف وتحصده في الربيع، وطوال الشتاء لا يحتاج إلى أي عمل.

- وماذا أفعل بقية السنة؟

- تعمل معي في الكنيسة.

كان هذا ما أحتاج إليه بالفعل. لأن الحياة في الكنيسة تختصر عليّ الكثير مما يجب أن أبذله من جهد لأقطع جسر الغربة إلى الضفة الأخرى، وتعطيني الاحترام والقبول والصداقات النافعة، ولذلك وافقت دون تردد، وانخرطت في أعمال الكنيسة حتى أني نسيت فكرة الزراعة وسقطت من ذهني مثل فكرة ولدت في غمرة طموح مؤقت وحماسة طفوليّة.

أفرغ لي القسيس حجرة أكبر لها بابٌ يمكنني إيصاده، وأخبرني أني سآكل وأشرب بلا مقابل سوى أن يراني أقرأ في كتب الكنيسة اللاتينية، وإذا أردت أن أجني بعض المال فبوسعي أن أختار بين أن أزرع في حديقة الكنيسة ما يطعم قسيسها وراهباته الخمس ولورينكو أو أن أساعده في إدارة ملجأ الأيتام الذي يحتل بيتين استأجرتهما

الكنيسة على مقربة منها، وانتهى بي الأمر أن أقرأ وأزرع وأدير الملجأ معاً. كانت كتب الكنيسة فرنسية لا تختلف كثيراً عن تلك التي قرأتها مراراً في ديري المحبوب في قبرص. رغم أني كنت أنزعج عندما أرى رسوم الرب مضرجاً بالدماء وأشعر بالألم والضيق، ولم تكن إدارة ملجأ الأيتام أمراً صعباً لأن الراهبات يقمن بأغلب المهام. عليّ أن أدبر طعامهم اليوميّ وأعاقب المخطئين منهم، وأشرف على علاج المرضى، وفي كل يوم أختار منهم اثنين ليساعداني في زراعة حديقة الكنيسة، وصرت أجني منها خضروات تطعمنا حساءنا اليوميّ مع الخبز الذي يردنا كل أسبوع من الخباز بنصف قيمته إكراماً للكنيسة.

صار عندي طاولة صغيرة في غرفتي وكرسيّ يجب أن أزيحه قليلاً إذا حان وقت النوم ليتسع المكان لفراشي. أجلس على الكرسي وأمدّ رجلي فوق الطاولة فأشعر ببرودة الخريف في قدميّ وأفكر في مآلات حياتي. كنت أظنني كما ولدت في حلب سأموت في حلب، وإذا تجاوزت أحد أبوابها فإني سأفعل ذلك حجاً إلى البلاد المقدسة مثلما فعل أبي وأعود، ولكن السلاطين أبوا أن يجعلوني أعيش هذه الحياة الهادئة. سلطان المصريين ألقى بي في قبرص وسلطان الترك ألقى بي في صقلية.

لا بأس. في كلا البلدين حصنت نفسي ببعض العلوم والمعارف ولغتين في قبرص، وبعض النقود والخبرات في رودس. هذه الجزيرة تبدو وادعة ولا أشعر فيها بالغربة، والبشر فيها من كل صقع من الأرض

حتى أني لا أظن أحدهم يزعم أنه من أهلها الأصليين. مسلمون في مساجد ويهود في معابد ومسيحيون في كنائس، ووثنيون سمعت أنهم يقطنون بعض القرى. إذا وصلت سفينة إلى الميناء فإنك لا تعلم أي وجوه ستنزل منها. كتلانيون من برشلونة أو إيطاليون من نابولي أو أفارقة من تونس، ولكن المهم أن ليس فيهم قراصنة كما كان الحال في قبرص. لا يجرؤ هؤلاء الأوغاد أن يقتربوا من صقلية قبل أن يفتك بهم أصحاب الأراضي الذين يحمون تجارتهم بأنفسهم.

٢٨

بوجود الطعام والشرب والمأوى في الكنيسة لم أصرف من نقودي شيئاً. بل تزيد قليلاً كلما وزع القسيس أعطياتنا كل أسبوع أو كل أسبوعين حسبما تيسر له من أموال، وكنت أساعده في حسابها ولا أمانع في تأجيل أجري حتى المرة المقبلة فيكافئني على ذلك بالكثير من المشاعر الطيبة. يبتسم لي. يمسح على رأسي. يطلب مني أن أخرج معه للمشي، ولكثرة ما رآنا الناس نمشي معاً اكتسبت احتراماً. فصرت أتلقى التحايا إذا مشيت وحدي لأي شأن، وبدأ بعض الناس يتوددون لي ويدخلون معي في نقاشات عابرة، وبعد انتهاء القداس يحمل بعضهم رسائلهم التركية والعربية إليّ لأقرأها ويطلبون أن أكتب رسائل أخرى بهما لئلا يقرأها حملة الرسائل، وأحياناً تكون رسائل قصيرة مليئة برموز حول أموال ستصل أو رحلة ستكون أو زواج سيقع، وكنت أقوم بذلك بكل سعادة مقابل بعض الخوخ أو العنب أو النبيذ أو الجبنة أو سمكة تن مشوية تأتي ملفوفة في رغيف من الخبز الأسمر، ولكن في الأساس من أجل هذا الشعور الجميل بالانتماء إلى بلدتي الجديدة، ولذلك قررت أن أستخدم فائض ورق من رسالة لم تطل، وأكتب فيها آخر رسالة لأبي.

«تصلك هذه الرسالة بعد جفاف حبرها بأسابيع وربما أشهر، وستقول ربما قبل أن تفضها: ماذا يريد أن يقول لي جرمانوس؟ الحقيقة أني بلغت هذا الحد من الرسالة وأنا لا أعرف ماذا أريد أن أقول لك، ولكن شعرت بضرورة أن أكتب لك مرة أخيرة لا أرغب في تكرارها. حقاً أنا لا أرغب في تكرارها. أنا في بلدٍ بعيد. ليس رودس كما تظن بل في مكان أبعد منها، وقد تحولت إلى الكنيسة الغربية وأشعر بالأمان والسعادة. لا تظن أنه بما أنني غيرت كنيستي فإنني سأكون في إيطاليا أو فرنسا. لا. قد أكون في فارس أو في الهند. حسناً لقد فكرت قليلاً. أريد أن أقول لك إني لا ألومك على شيء. رغم أنه كان هناك أناس نعرفهم، وبعضهم في حينا، يعاملون أبناءهم بشكل أفضل، ولكن هذا ليس أمراً يمكن تعويضه الآن. قلت لك إني لا ألومك على شيء، وأقول لنفسي أني لست مديناً لك بشيء. لقد قمت بالقليل من أجلي وهذا ما أشكرك عليه. كان هناك سقف فوق رأسي وكان هناك بعض الطعام. رغم أن هذا الأمر ينبغي لنا أن نشكر عليه أمي معاً. أنت الآن يجب أن تفكر بهذا. تفكر أنه إذا لم أقم لأجلك بشيء بعد اليوم فهذا لأني قمت بكل شيء فعلاً بقدر ما قدمت أنت. نحن تاجران انتهت صفقتهما، ويجب أن يمضي كل منهما في حال سبيله».

وظلت الرسالة مطوية في مغلف من الورق مختوم بشمع من الكنيسة، دستها في محفظة صغيرة من الجلد المدبوغ حتى لا يفسدها هواء البحر، وبعد عدة أيامٍ سمعت عن سفينة سوف تبحر إلى

كريت. فصعدت إليها ودفعت ثمن البريد وسجلوا في دفاترهم اسم أبي ومكانه، وضاعفت أجرة الإرسال لأضمن وصولها، ونزلت من السفينة وأنا أشعر أني أخف من ريشة.

جلست في الميناء أراقب الحمالين الذين يحملون البضائع إلى السفن. شوالات القمح وجذوع الأشجار وصناديق السكر، والذين ينزلون منها لفائف الصوف والحرير لتحملها البغال إلى حيث تنسج وتصبغ. شعرت أني قويّ ومتمكن وحياتي تحت تصرفيّ، ولا يوجد أفضل لشخص من أن يستأجر بيتاً ويتزوج. نعم، سأتزوج امرأة تجعل حياتي أفضل. ربما أنجب أطفالاً أعلمهم اللغات التي أعرفها وأجعلهم يخدمون الرب في الكنيسة حتى يشبون أنقياء وطاهرين. بوسعي في صقلية أن أختار أي امرأة أريد. يونانية أو إيطالية أو إسبانية أو عربية أو خليط من شعوب الأرض. سأستيقظ صباحاً لأجد طعاماً جاهزاً وثياباً نظيفة، وسأبدأ تجارة صغيرة إلى جانب عملي في الكنيسة. أستطيع أن أتعاقد مع ملاك السفن ليجلبوا لي بعض البضائع من حلب لا أظنها موجودة في صقلية. بضائع لا تفسد إذا طال عليها الأمد. أبيعها متى وجدت سعراً مناسباً ما دمت غير محتاجٍ إلى المال وأنا أعمل في الكنيسة، وسأتبرع ببعض المال والطعام للأديار التي في ضواحي سرقوسة ليبارك الرب تجارتي ويحفظ أطفالي.

تذكرت القمص بولس في الماغوصة حين شجعني على الزواج رغم كوني راهباً في ديره آنذاك. قال لي وهو يضحك إن الرهبان

الكثالكة الذين لا يتزوجون تختلّ عقولهم بعد الأربعين، والرهبان الشرقيين الذين يتزوجون تختل عقولهم فوراً: «... حتى تعتاد على الجنون في شبابك، فلا يفاجئك في مشيبك!».

عدتُ إلى الكنيسة والشمس تطل خلف غيمة وتغيب، فتبدو الشوارع المرصوفة بالحجر ساطعة ونظيفة مع الشجيرات الصغيرة التي تنبت في شقوقها. جماعة من اليهود تلتفّ حول رجلٍ يلقي عليهم بعض التعليمات بالعبرية التي لا أفهمها. ربما عليّ أن أتعلمها؟ أو ربما يجدر بي أن أتعلم الإسبانية؟ لا أدري أي اللغتين أنفع لي في صقلية. إذا خرجت إلى الضواحي والقرى فلن أجد إلا اليونانيين، ولكن موظفي الحكومة يتحدثون الإسبانية ويكتبون أعمالهم بها. يقول خادم الكنيسة إن كل شيء سيصبح إسبانياً في هذه الجزيرة، والبحر يحمل إليها وفوداً من الأسبان مع كل سفينة تفد إليها من برشلونة وفالنسيا. حسناً، إذا انغمست في التجارة فلا بد من الإسبانية. أما اليونانيون فلا بد أنهم سيضطرون إلى التحدث بها وإلا لن يجدوا من يحدثهم. إنها الإسبانية إذن.

عندما وصلت، وجدت القسيس جالساً في حديقة الكنيسة وقد خلع حذاءه ومدّ رجليه أمامه فوق طاولة صغيرة وجلس يقرأ في كتابٍ صغير من كتب الكنيسة المغلفة بالجلد والمخيطة بعناية. سلمت عليه فاستقبلني بابتسامته المعهودة. فجلست إلى جواره فكفّ رجليه حياءً مني. قلت له:

- ما رأيك لو تزوجت يا أبانا؟

ضحك القسيس ضحكة مفاجئة وكأنه لم يكن مستعداً لهذا السؤال وقال:

- ياله من قرار! حياتك تتغير بسرعة كبيرة يا جرمانوس.
- صحيح، ولكن العمر يجري سريعاً أيضاً.
- لا بأس. عمرك مناسب. لم تتأخر كثيراً.

ساد الصمت قليلاً وهو ينظر إلى الأرض ثم قال:

- وهل تفكر في امرأة ما؟
- لا، لا أعرف أحداً. ربما عليك أن تساعدني في ذلك.
- أتعني أن أبحث لك عن زوجة؟
- أجل. بالتأكيد أنك تعرف الكثير من العوائل المحترمة في صقلية.

ضحك بحبور وخجل ثم حك رأسه وكأنه يتذكر شيئاً وقال:

- أتعلم يا جرمانوس؟ قبل سنوات عديدة مرّ بكنيستنا حاجّ ألماني في طريقه إلى الأراضي المقدسة وأقام هنا بضعة أيام مع رفاقه. نام بعضهم في المكان نفسه الذي تنام فيه الآن، وفي إحدى المرات كنا نتكلم عن الرهبنة والزواج إذ كان بعضهم يفكر فيهما بعد عودته من الحج. فقال لهم ما بقيت أذكره حتى الآن رغم السنين: «ثلاثة أمور أيها السادة في حياة الإنسان لا ينبغي له أن يقبل فيها نصيحة من أحد أياً كان: الزواج والحرب والحج. أتعلمون لماذا؟»

وضحك مرة أخرى قبل أن يستأنف كلامه:

- لقد قال: «لأنها أشياء قد ترديكم مرضى، وعندها يكون ناصحكم مسئولاً عن مرضكم»

ثم التفت إليّ وقال:

- وأنا لا أريد أن أكون مسئولاً عن مرضك يا عزيزي جرمانوس!

٢٩

بعد قداس الأحد، جلست على المقعد الحجريّ الموازي لباب الكنيسة على حشية صغيرة من الصوف نضعها هناك في أيام القداس فقط. راقبت الناس وهم يغادرون الكنيسة وأنا أحدق إلى النساء اللواتي لا يبدين لي متزوجات. تخيلت اثنتين منهن كزوجة لي ولكن لم أكترث لهن. لسن جميلات. لماذا تبدو المهمة صعبة؟ كم امرأة ينبغي لي أن ألتقي قبل أن تقع عينيّ على تلك التي لن أفارقها طوال حياتي؟ لقد أصبحت من أتباع الكنيسة الغربية الآن وسيصبح الطلاق مستحيلاً، وما يجمعه الرب لا يفرقه الإنسان. يبدو أن الأمر سيكون أصعب مما تخيلت، وعليّ أن أتمهل في هذه القرار، ولم العجلة؟ لم يمض سوى أشهر فقط منذ وصولي إلى صقلية. سأمهل نفسي عاماً حتى أجد المرأة التي لا مثيل لها ولا تصلح إلا ليّ. لقد خلق الرب لي امرأة ما وهي موجودة لا تلبث أن يلقيها في طريقي.

فوجئت أن القسيس يراقبني، وقعت عيني عليه فور خروج المصلي الأخير من الكنيسة. ابتسم كمن يقرأ أفكاري في كتاب مفتوح. ابتسمت له في المقابل ببعض الحرج. مشى نحوي بملابس القداس الموشاة وهو لا يزال ممسكاً بصولجانه، وجلس إلى جانبي وقال:

– هناك من يرغب في لقائك يا جرمانوس.

اتسعت عيناي من الدهشة وشعرت بقلبي يخفق. يبدو أن القسيس لم يأل جهداً في البحث عن زوجة لي. هتفت قائلاً:

- أيهن؟

- أيهن؟ لماذا تقول.. أوه..

وقهقه القسيس بصوت عال وقد رمى برأسه إلى الخلف. ثم عاد مرة أخرى منحنياً إلى الأمام وضرب بقدمه على الأرض وهو مستمر في الضحك، وقال بين قهقهاته التي اختلطت بسعال خفيف:

- يا إلهي! إن الأمر يحتل تفكيرك فعلاً. لا لا يا عزيزي جرمانوس. يؤسفني أن أخيب ظنك. ليست امرأة والأمر لا علاقة له بالزواج.

شعرت بالحرج ورحت أرسم حركات مضحكة على وجهي حتى فرغ القسيس من الضحك وقال:

- البارون كوزيمو طلب رؤيتك. سيأخذك لورينكو إلى بيته هذا المساء. مع الأسف الشديد أظنه يريد أن يعرض عليك عملاً.

ثم وقف وقال وهو يربت على كتفي:

- يبدو أن سمعتك بدأت تضوع خارج الكنيسة مثل قنينة عطر يا بنيّ!

أولاني ظهره وابتعد ثم التفت وقال وهو يضحك:

- أوه. إن كان هذا ما يريده منك، فعليك أن تشترط أن يزوجك أيضاً. صدقني سيكون أنفع لك مني. في آخر المطاف أنا مجرد قسيس. ما الذي يعرفه قسيس عن النساء وهو لا يتزوج النساء!

خرجت مع لورينكو ذلك المساء بعد أن ارتديت قميصي الجديد المفصل على الطريقة الإيطالية بياقة منفوشة تطبق على رقبتي وخيوط طويلة تغلق القميص من الأمام. أما السروال فعربيّ الطراز وجدته في السوق فاشتريته على الفور لأني أعرف كم هو مريح وفضفاض. اخترقنا المدينة من جنوبها حتى شمالها الغربيّ ونحن نتحدث عن أشياء عابرة. قلت له:

- سأكون صريحاً معك يا لورينكو، وربما تجد ذلك مضحكاً، ولكني لا أعلم ماذا يعني بارون!

- إنهم أشخاص يملكون أراضي أوسع من مد بصرك.

- أوه تعني أنهم أكثر من شخص؟

- بالتأكيد هم أكثر من شخص. أكثر من القمل في رأس صقلية المسكين.

- أنت تكرههم!

- ومن يحبهم يا جرمانوس. كان والدي مزارعاً. عائلتي كلهم مزارعون. كانوا يزرعون طوال السنة ثم يراقبون بكل غبن جهدهم وتعبهم عندما ينتزعه البارون منهم.

- ومن الذي يقرر الضرائب؟ أنا كنت مزارعاً في الماغوصة وكنا ندفع الضرائب، ولكن يبقى لنا الكثير. لا بد أن يتحدث الناس إلى الملك.

ضحك لورينكو ضحكة قصيرة هازئة وقال:

- الملك. أوه..ما أبعده.

وانقطع الحوار لبضع خطوات أخرى. بقينا صامتين قليلاً قبل أن يلتفت نحوي لورينكو ويقول:

- أنت تعرف أي ملك أقصد. أليس كذلك؟

شعرت بالحرج. لورينكو يقبض على سبب صمتي بنباهةٍ عالية. أطلقت ضحكات متحشرجة من حنجرتي وشفتي وأنا أقول:

- لورينكو لورينكو. لماذا تتعمد أن تجعلني أبدو غبياً وتسألني أسئلة صعبة تفوق قدرتي. نعم، نعم. أنا لا أعرف أي ملك تقصد.

- أتعني أنك تعيش في بلادٍ منذ أشهر ولا تعرف ملكها؟

- وماذا يهمّ. لم تسنح لي فرصة لقائه. لقد تجولت في شوارع سرقوسة طويلاً ولم أره. أين هو؟ في باليرمو بالتأكيد.

ضحك لورينكو عالياً وقال:

- أبعد من ذلك بكثير. في إسبانيا يا عزيزي.

هززت رأسي معبراً عن استيعابي للمعلومة، واستمر لورينكو في كلامه:

- والآن صارا اثنين. ملك وملكة. لأنه تزوج من ايزابيلا ملكة قشتالة.

- وهل تكرهه أيضاً مثلما تكره البارونات؟ وبعد أن تجيبني على هذا السؤال أريد أن تخبرني لماذا تأخذني إلى البارون وأنت تقول إنهم أشرار وأنانيون؟

ارتسمت على وجهه ملامح جادة وقال:

- لا، أبداً. إنه ملك يخاف الرب ويخدم الملة. أما هذا البارون يا عزيزي جرمانوس فهو ليس كالبقية. فهو يعمل مع الحكومة ويقضي أغلب وقته في أراغون. أما لماذا يريدك فلأنه أرسل إلى كل كنائس صقلية رسائل يبحث فيها عن تراجمة ومتحدثي لغات الأخرى، وأخبرت الرسول الذي سلمني الرسالة عنك ودهش، وأظنه نقل الأمر إلى البارون كما هو.

- كم تظنه سيدفع لي يا لورينكو؟

- ولماذا تتحدث وكأنك حصلت على العمل فعلاً؟ إنه لم يسألني عن اللغات التي يريدها بعد.

- سأتعلم بسرعة أي لغة يريد، فليمهلني نصف سنة وسأحدثه بها مثل أهلها.

- فليحرسك الرب.

- .. أتدري؟ سأطلب منه بيتاً. تقول إنه يملك أراضي واسعة. أريد بيتاً صغيراً بحديقة لها سور، وسأتزوج في هذا البيت.

- لا، هذا طلب خاطئ. أراضي البارونات غالباً خارج المدينة. إنها مزارع واسعة ويستغلون كل شبر فيها للزراعة. لا تطلب هذا الطلب.

- حسناً. ماذا أطلب؟

- اطلب وظيفة بأجر. حتى إذا غادر البارون أو انتهت مهمته

بوسعك أن تظل في عملك. انظر إليّ. قسيس بعد قسيس وأنا في عملي لا يتغير شيء ما دام الرب لا يتغير.

- أنت محقّ يا لورينكو. لا بد أن أحتاط من تقلبات الزمن لاسيما إذا صار عندي عائلة وأطفال.

- هل تفكر في إنجاب أطفال كثر؟

- لا، ربما أربعة. أظن أن أربعة أطفال عدد كاف. أفكر أن أنجب ثلاثة منهم في ثلاث سنوات ليكبروا معاً. ثم سأنجب الأصغر بعد ذلك بسنوات لأقوم بتدليله.

- هذا غريب، ولماذا تريد طفلاً مدللاً؟ أنت تفسده.

- لا يا لورينكو. لن أفسده. سأدلله بقدر ما يجعل قلبي يغني ويفرح.

- المهم أن تجعلهم في خدمة الرب دائماً.

أخيراً وقفنا أمام بوابة البارون. لاح لنا حارسان يتوارى أحدهما خلف عمود البوابة ويتناول طعاماً ويتبادل الحديث مع امرأة تبدو وكأنها جلبت له الطعام للتو في حين سألنا الآخر عمن نكون قبل أن يبتعد بضع خطوات ويلوح بيده لحارس آخر عند مدخل البيت ويصيح به:

- اسمه لورينكو. يريد أن يرى البارون.

- ومن الذي معه؟

- اسمه جرمانوس...

قاطعه لورينكو:

- إنه ينتظرنا.

صاح الحارس:

- إنه ينتظرهما.

باليرمو

٣٠

قال لي البارون كلاماً شديد الإقناع. «ينتقي الرب من يخدمه انتقاءً في بعض الأحيان من بين الحشود المتهافتة على خدمته. ولكن تصور...» هكذا قال لي.. «.. تصور أن تفد على سرقوسة منذ أشهر قليلة فقط، وتعتنق الدين القويم منذ أشهر قليلة فقط، ثم يضعك الرب خادماً للدولة التي وفدت إليها والدين الذي اعتنقته معاً؟»، ولوهلة شعرت أن نبضات قلبي تتسارع، وأن الرب المعلق على صليبه في جدار الحجرة الواسعة ينظر إلينا فعلاً ويبتسم رغم الدماء التي تسيل من كفيه وجبينه، ولذلك وافقت دون أن أسأله عن مقدار أجري، ولكني لم أخرج إلا وقد وضع في يدي أجر شهرين، وسجّل اسمي في القافلة المتجهة إلى باليرمو، ووعدني بسكنٍ مناسب في مكان قريبٍ من وظيفتي القادمة في محكمة المكتب المقدس للتفتيش. «وتخيل..»، قال لي «.. ستكون سادس موظف في هذه المحكمة المباركة. إننا لم نعيّن حتى القضاة بعد!».

تملكتني الحماسة حتى أني عانقته وأنا أشعر أنه أصلح لتوه كل ما فسد من حياتي. كنت ترجماناً تائهاً من حلب يعيش في قبو كنيسة

في سرقوسة ولا يتقن شيئاً سوى الترجمة والزراعة، وصرت موظفاً من الرعيل الأول في محكمة المكتب المقدس التي يديرها معاً أقوى رجلين في العالم: قداسة البابا وملك إسبانيا. إذا لم تكن هذه الرعاية الإلهية فماذا هي إذن؟ الآن اتضح لي الطريق وأناره لي الرب بقنديله المبارك. لقد حملني في سفينة تلو سفينة، من مدينة إلى مدينة، ومن عمل إلى عمل، لأنه أراد أن ينتهي بي على دينه القويم، وفور ما تحققت حكمته اكتملت عنايته. أراني نعمته عياناً. لقد جاءت إشارتي. خروفك يسمع صوتك ويتبعك أيها الراعي المخلص. أيها الرب العائد.

بعد أيام قليلة أخرى وقفت في منتصف الكنيسة أودع القسيس ولورينكو. عاملني الأخير باحترامٍ شديد حتى أنه عندما اقترب ليقبل خدي طأطأ قليلاً وطبع قبلة على كتفي. شدّ على يدي ونظر إليّ بامتنان وكأني أفضل صنيعٍ قدّمه للربّ في حياته. أما القسيس فقد قدم لي كتابين صغيرين وهو يقول:

- لا تتوقف عن التعلم يا بنيّ. لقد فاتك الكثير! أعد ترتيب الأسرار المقدسة في عبادتك، وأخلص لبابا روما ليقبلك في كنيسته ولا يجعلك من المحرومين.

حملت ملابسي التي صارت أكثر بعد جولةٍ في السوق والتحقت بالقافلة غرب المدينة. غادرت إلى باليرمو على صهوة حصان لأول مرة في حياتي له ظهرٌ عريض وأرجل قوية وسرج مريح، وحملت البغال التي في ذيل القافلة متاعي. جُعل لكل عشرة منا خادمٌ يحضر لنا

الطعام من خيام الطهاة ويعدُّ الفرش للنوم ويغسل الملابس إذا مررنا بماء. خادمٌ لك يا جرما؟ لقد كنت تحمل ضعف وزنك في أزقة حلب مقابل عشاءٍ لا يبقى في بطنك نصف الليل. أين كنت تائهاً طوال هذه السنين؟

أيامٌ قليلة مرت سريعاً قبل أن نجد أنفسنا على أعتاب باليرمو. حفّت بنا كروم العنب وحقول قصب السكّر وأعين وكلاء التجار التي فحصت قافلتنا بحثاً عن بضائع للتجارة يشترونها قبل دخولنا باليرمو، ولما لم يجدوا سوى قافلة حكومية خالية من البضائع عرضوا علينا خانات للمسافرين وحدوات للجياد وثياباً وقبعات وأحذية للذين يرغبون في دخول المدينة بأناقة.

دخلتُ باليرمو وأنا سعيد، وفكرت وأنا أقضي دقائقي الأولى فيها أنها المدينة الأولى التي أدخلها بمحض اختياري. لا أنا هاربٌ من حرب ولا متورط مع سلطان. لست مضطراً لشيء ولا أحد يملي عليّ ما أفعله، وولائي إذا شئت أن أقدمه فسيكون لهذا الملك العظيم فيردناند الذي وهب جرما الترجمان وظيفة يخدم بها الرب تليق بشأنه وقدراته. كنت سأعيش وأموت في حلب لا يتذكرني أحد سوى أهل حيّنا البائس.

بدأت فعلاً في ترجمة بعض الأوراق التي جلبها معه البارون أثناء ارتحالنا. وعندما فرغ الناسخ من كتابة الترجمة التي أمليتها عليه طلب مني أن أوقع باسمي في ذيل الورقة. جرمانوس. أجل جرمانوس،

ويوقع إلى جانبي البارون نفسه، وسيحمل البريد توقيعي وتوقيعه إلى إسبانيا، وستكون في قصر الملك العظيم قاهر الأعداء ومستردّ البلاد قريباً.

احتلت محكمتنا الجديدة تسع حجرات واسعة بفناء مستقل من محكمة باليرمو، وراقبت بنفسي على مدى أسبوع كامل موظفي المحكمة وهم يخلون الحجرات لنا مضطرين أن يحشروا أنفسهم فيما تبقى من المبنى، وبعد ذلك الأسبوع وجدتُ نفسي في حجرة وحدي لها نافذة زجاجية أستطيع أن أرى البحر من خلالها دون الحاجة لفتحها بالإضافة إلى بضع بيوتٍ مهجورة استغلها بعض الناس وحولوها إلى مزارع خضروات مؤقتة تصطف إلى جانبها عربات وبغال. ولم تمض أيام من الجلوس على الأرض حتى جلبوا ثلاث طاولات وستة مقاعد وسجادة وصليبين وخزانة أوراق ومحابر وأقلام ودقّوا في الحائط مشاجب وحصنوا النافذة بقضبان حديدية متقاطعة، وصار لي كرسيّ مبطن بالصوف المندوف خلف طاولة منقوشة الأركان الأربعة وعليها صندوق أدوات الكتابة.

أما سكني الجديد فغرفة في فندقٍ صغير اشترته الحكومة من ورثة مالكه وأفرغته تماماً لموظفي المحكمة الجديدة الذين أصبحوا جيراني: كاتبا عدل، وساعيا بريد، والحاجب الذي يرافق المتهمين من السجن إلى المحكمة، وبعد أيام وصل قاضيان ومدّع ومطران ذو رتبة عالية ورجل آخر قدموه لنا على أنه السفير البابويّ، وصرنا نخرج معاً

من الفندق إلى المحكمة صباحاً ونعود مساءً يرافقنا جنديان ويسترق المارة النظر إلينا. يبتسم بعضهم ويتجهم آخرون.

وفي المحكمة، اقتسمت حجرة مع كتّاب العدل لأترجم لهم إذا استدعى الأمر الترجمة، وبقيت غرفة البريد ثم الغرفة الأوسع التي لا شباك لها والتي جعلت سجناً. سدوا نصف بابها حتى صار الدخول إليها والخروج منها حبواً، ودقوا في كل ركنٍ عشرات المسامير التي تعلق فيها الأغلال، وحفروا مجرى صغيراً في ركن الغرفة ليصرف الأوساخ. بدا كل شيء جاهزاً.

ثم جاء صباح يوم أحد دعينا فيه جميعاً لحضور القداس الكبير في الكاتدرائية الكبرى. خصص لموظفي المحكمة عشرة مقاعد غير بعيدٍ من المذبح حتى أني كنت أسمع ما يهمس به المدعي في أذن القسيس قبل أن يومئ الأخير برأسه ويفتح ذراعيه علامة الترحيب. فاقترب المدعي من المنبر وقرأ من الورقة التي كانت مطوية بيمينه وهو ينقل بصره بينها وبين وجوه الحاضرين:

من الملك فيردناند والملكة إيزابيلا، وبهبة من الرب، ملك وملكة قشتالة وليون وأراغون وصقلية وغرناطة وطليطلة وبلنسية وجليقية وجزر البليار وإشبيلية وسردانية وقرطبة وقرشقة ومرسيّة وجيان الغارف والجزيرة الخضراء وجبل طارق وجزر الكناريّ، كونت وكونتيسة برشلونة، سيد وسيدة بسكاي ومولينا، دوق ودوقة أثينا

ونيوباتريا، كونت وكونتيسة روسيلون وسيردانة، ماركيز وماركيزة أورستان وجوشيانو.

إلى نائبنا في صقلية الكونت غاسبار دي إسبيس، كونت سكلافانا، وسيد ألبالت دي سينكا.

نبا إلى علمنا أن في مملكتنا مسيحيين أشراراً قد ارتدّوا عن ديانتنا الكاثوليكية المقدسة، ويسعون إلى استمالة آخرين إلى دياناتهم القميئة، واستضافتهم في احتفالاتهم الدينية، وعقد اجتماعات سرية يعلمونهم فيها قوانينهم الشريرة، وإعطائهم كتباً يقرؤون فيها صلواتهم، وإعطائهم خبزاً خالياً من الخميرة، وقد ثبت لنا من خلال العديد من الأقوال والاعترافات والشهادات قيام هؤلاء المرتدين بممارسة دياناتهم السابقة خفية. الأمر الذي أدى إلى ضرر كبير بعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة.

وعليه، فإن أمرنا هو دعوة رعايانا المسيحيين الذين وقعوا في شرور البدع اليهودية أو الهرطوقية أن يعترفوا بذنوبهم ويعودوا إلى دينهم، وأن يبلغوا محكمة التفتيش المقدسة عن البدع التي يمارسها أصدقاؤهم وجيرانهم خلال هذه المدة، ومن يتأخر عنها يتعرض للعقوبة التي تقدرها المحكمة، وعلى الحضور أن يقسموا ولاءً لهذه المحكمة المقدسة.

ومع نطق الكلمة الأخيرة وقف السفير البابوي في ممر الخروج رافعاً كفه اليمنى وحاملاً في يده الكتاب المقدس، وأقسمنا جميعاً.

٣١

أصدر السفير البابويّ بعد تلاوة البيان مرسوماً منعماً بأن تكون الأيام الثلاثين القادمة مدة أمان لمن يتقدم لمحكمة التفتيش معترفاً بذنوبه ويعفى من العقوبة. زارنا منهم عددٌ لا يتجاوز الثمانية أحدهم مجنون، وآخر لم يدرك الغرض من المحكمة وأن لا علاقة لها باندلاق براميله من سمك التن المملح عندما اكترى من البغّالة أتاناً عوراء، وصرف المطران قارئة الحظ ضاحكاً وتجمع حولها الجنود خارج المحكمة وراحوا يفاوضونها في حظ أكثر بأموال أقل. أما البقية فقد اعترفوا بتفاهات أقلّ مما يستحق أن يدلى به إلى المحكمة ولكن القلق قرض قلوبهم. وجههم المطران إلى الكنائس ليعترفوا بما يريح ضمائرهم. تقنا جميعاً لأن نرى أولئك الذين جئنا من أجلهم وتخيلناهم كثيراً: ذئاب اليهود والمسلمين الذين يلبسون جلود الحملان المسيحية ليفيدوا من الميزات الممنوحة للمسيحيين ويتهربوا من الضرائب.

وهكذا تسلمت أجر الشهرين الأولين مقابل لا شيء. أذهب إلى مكتبي صباحاً لأتبادل الحديث مع بقية الموظفين، ثم أعود مساءً لأتبادل الحديث معهم أيضاً في مقر إقامتنا. صار أحد كاتبي العدل، ألفونسو، صديقاً أمشي معه كل مساءً في شوارع نكشف أسرارها معاً، وظل الثاني، أمادور، متوجساً من كوني حديث عهدٍ بالدين القويم،

وألمح إلى ذلك بخبث عندما قدم إليّ أحد الوشايات المكتوبة قائلاً: «من خبرتك السابقة، أتجده مهرطقاً؟». نظرت إليه شزراً في حين تظاهر الآخر، ألفونسو، أنه لا يسمع حديثنا وانشغل بأوراقه. ولم نتبادل الحديث قطّ بعد ذلك. حتى العمل الذي بيننا صار يتم بوساطة ألفونسو، وهذا الأخير ذو طبيعةٍ خجولة نزاعة إلى تجنب المشكلات، ولذلك يقوم بهذا الدور بحرص.

قامة ألفونسو طويلة وجسمه نحيل. تتمايل ذراعاه إذا مشى وكأنه غير قادر على ضبطهما لفرط طولهما. فإذا مشى إلى جانبي عقدهما خلف ظهره مما يضطره إلى الانحناء قليلاً أثناء المشي كمن يبحث عن شيء سقط منه. يتبعني دائماً ويميل إلى عدم اتخاذ القرارات في كل ما نفعله. فنأكل حيث أريد، ونمشي حيث أختار، ونشرب النبيذ الذي أتذوقه أنا قبله، ولكنه يتولى بعد ذلك كل قطرة منه. ولأني غير مضطر لإنفاق الكثير من أجري الشهريّ ما دام السكن بلا مقابل فقد كنت أشتري نبيذاً يونانيّاً فاخراً يفد من نابولي مرة كل ستة أشهر كما أخبرني الساقي، وأحياناً نبيذ كالابريا الأقل جودة. ولم يكن ألفونسو يجيد التفريق بينهما بعد الكأس الثالثة. والحق أن عضد سكران طويل القامة ويترنح بشدة لهو مهمة صعبة ولكني قمتُ بها دائماً بكل سرور في كل ليلة نقرر فيها أن نفقد بعض الوعيّ الفائض عن الحاجة. لأن ألفونسو عندما يسكر وتسقط عنه أستار الخجل يصبح رجلاً ظريفاً بحقّ.

صرتُ على علاقة وثيقة بكل موظفي المحكمة الذين يقيمون معنا في الفندق باستثناء أمادور. ساعيا البريد أخوان سعى أحدهما في توظيف الآخر ووافق البارون، وعندما تطهو أمهما طعاماً صقليّا شهياً يقتسمانه معنا بكل سرور شرط أن نسهم معهما في كلفة الخضروات والسمك. أما الحاجب فمن حرّاس البارون ويتكلم الإيطالية باللهجة التي علمتني إياها بانديكا، وقد كان صلفاً وجافاً في حديثه معي أول يومٍ لقيته حتى بادرته بالكلام باللهجة التي لم يتوقعها فانفرجت أساريره، وكم كنت في حاجة إليه. فقد مر زمن طويل منذ آخر مرة تحدثت فيها كما كنت أتحدث مع بانديكا بشكل مطول. نسيت بعض الكلمات وراح حديثنا يعيد تثبيتها في لساني مرة أخرى، والحق أن الحياة في باليرمو تعطي لساني فرصة التحدث بكل اللغات التي تعلمتها. فأتحدث العربية مع اليهود، والإيطالية مع التجار، والفرنسية مع الرهبان الدومينيكيين.

يزورنا البارون في المحكمة أحياناً فنجتمع في مكتبه ونتبادل الكلام حول أوضاع المحكمة. لاحظت تغير هيئته عن المرة الأولى التي رأيته فيها وهو يرتدي سروالاً ضيقاً فتبدو ساقاه مثل عصوين سوداوين ينبثقان من الأرض ويختفيان في قميصه المنفوش المخطط بالأبيض والأسود، ثم الوشاح الطويل الذي ينسدل من كتفيه حتى ركبتيه. الآن صار يرتدي لباساً كنسياً ويتدلى من صدره صليب ذهبي. وجهه مربع وشارباه دقيقان لا يلتقيان مع بعضهما تحت أنفه بل يحلق تلك النقطة

بعناية. شعره فاحم السواد وأكرت بعض الشيء. يبدو يونانياً للوهلة الأولى، وربما كان كذلك. بل الغالب أنه يوناني. لقد رأيت منهم ما يكفي لأعرف ملامحهم جيداً، ولكن هذا لا يعني شيئاً الآن. فهو بارونٌ حقيقي وإن كان أغلب أبناء جلدته مزارعين في ضواحي صقلية تلوح الشمس وجوههم، وهو مسيحي لاتينيّ صميم وإن كانت ملامحه تشبه المطارنة السريان.

سألته يوماً متى يبدأ عملنا فضحك وقال «قريباً جداً، لن تجدوا وقتاً لتلتقطوا أنفاسكم!»، والحق أني أتوق لذلك. فقد بدأت أشعر بالملل فعلاً، وكثيراً ما أقضي الوقت هائماً مع ألفونسو في الشوارع أو جالساً في المقاهي. أحدث العابرين بلغاتهم وأراقب دهشاتهم، وفي بعض الأيام ألاحق النساء إذا رأيتهن يمشين مشية التي لا تلوي على شيء مثلي. فأتكلم معهن، وأخبرهن أني رأيت مدناً وركبت سفناً. فيضحكن أو لا يضحكن، ولكن ليس منهن من تصلح زوجة لي، ولا أعرف أين يخبئها الرب حتى الآن!

وقت الفراغ هو مساحة واسعة للأحلام التي تشكلت تحت قبعتي الحريرية الجديدة، وهذه القبعة نفسها لم يضعها فوق رأسي إلا الأحلام، وكلما حلمت حلماً جديداً تغيّرت هيئتي كما يريد الحلم، وهكذا أطلت لحيتي لا لشيء إلا لأشذبها بالزيت فتصير لامعة ومدببة مثل لحى البارونات وموظفي الكنيسة الكبار وسادة الأراضي الشاسعة، واشتريت قطعاً منوعة وملونة من الأقمشة ووضعتها بين يدي خياطٍ

شاب ليصنع لي ثياباً تليق بجسدي لا فضفاضة ولا ضيقة. لم يبق في ملابسي ما يجعلني لا أبدو باروناً إلا الياقات المطرزة بخيوط الذهب. تلك بالتأكيد ياقة أطول من قامة أحلامي. أما المعطف الشتويّ فمن صوف انجليزي، والمعطف الصيفي تتدلى من طرفيه خيوط مفتولة من المخمل الأحمر، والقميص من الديباج المنتفش عند الكتفين. أما ساقاي فتكسوها جوارب طويلة حتى الركبة وينسدل فوقها سروال ضيق حتى منتصف الساق، وحذائي من جلد حيوانٍ لا أعرف اسمه ولكني أعرف أنه صنع في برشلونة من جلدٍ مدبوغ في سردانية. أي أنه طاف شرقاً وغرباً قبل أن ينتهي في قدمي.

وفي أول يومٍ عدت إلى غرفتي في الفندق حاملاً الملابس الجديدة فرشتها على الأرض فوق سجادة صوفية حتى بدت مثل رجلٍ لا جسد له، ثم تذكرت القمص بولس عندما ألبسني ثوب الدير الصوفيّ الواسع وهو يقول: «البس ثوب البر ودرع النور، واصنع ثمرة تليق بالتوبة». ثم يغطي رأسي بالقلنسوة المهترئة وهو يقول: «البس قلنسوة الاتضاع وخوذة الخلاص، واصنع ثمرة صالحة». ثم يشد المنطقة حول خاصرتي وهو يقول: «شُدَّ على حقويك بجميع رباط الرب وقوة التوبة». ماذا كان سيقول لو رأى ملابسي هذه؟ رحمك الرب حياً أو ميتاً أيها القمص بولس. لا أظن أحد رهبانك قد مرّ بما أمرّ به من قبل. فسامحني.

٣٢

صدق البارون حين قال إننا لن نجد وقتاً نلتقط فيه أنفاسنا، ولكن عدم قدرتي على التقاط أنفاسي لم تكن بسبب ضيق الوقت ولا حتى ازدحام المحكمة بالمئات من المعترفين والشهود والوشاة والجواسيس حتى ضاقت بهم الممرات والحجرات وأصبحت رائحة المكان مثل حظيرة الحيونات بعد المطر، ولكن لسبب آخر لم أكتشفه. كل ما أعرفه أني حاولت المشي خطوات بعيداً من مكتبي وباتجاه طاولة ألفونسو لأسلمه ترجمة أحد الاعترافات من العربية، وبدلاً من أن أضع الورقة على طاولته وضعت وجهي، بارتطام عنيف، ففقدت الوعي، وسقطت بين يديه.

قالوا لي فيما بعد أن طبيباً كان بين الناس سمع صرخات ألفونسو وشقّ طريقه بين الذين مدوا أعناقهم داخل الحجرة بفضول. فتح فمي عنوة ثم تناول إناء الماء ورش على وجهي وربت على خدي بضربات خفيفة. ثم أمرهم أن يفتحوا الشباك الذي كان مغلقاً مع برودة الطقس في ديسمبر، وروَّح عليّ برزمة ورق جديد كانت فوق طاولة كاتب الضبط تنتظر أن تملأها اعترافات الناس ووشاياتهم، وأفقت بعد هنيهةٍ قصيرة من الزمن كما قالوا. أجلسوني على الأرض وأسندوني على الجدار، ووقعت نظراتي أول ما وقعت على وجه الطبيب ذي اللحية

السوداء الطويلة. ثم وجهي ألفونسو وأمادور. عاد الأخير إلى مكتبه فور أن رأى جفنيّ يرتفعان وحدقتيّ تدوران. أما ألفونسو فقد أحاطني بذراعيه الطويلتين وسألني ما إذا كنت بخير.

قررنا بعد هذه الحادثة أن نجعل الناس يصطفون خارج المحكمة وليس داخلها رغم برودة الجو، ونصبنا أحد سعاة البريد حارساً للباب لينظم دخولهم زمراً من عشرة أشخاص يُسأل كل منهم عن سبب مجيئه. فإذا كان معترفاً يتجه إلى أمادور وألفونسو ليسجلا اعترافه ويرفعاه إلى القاضي، وإذا كان واشياً فيتجه إلى المدّعي الذي يستمع إلى وشايته أولاً بشكل سريّ ثم يرفع ما جمعه من معلومات إلى المطران ليتحقق من كونها هرطقة، وبعد ذلك ترفع توصيته إلى نائب الملك في باليرمو ليقبض على الهراطقة الذين امتلأ بهم السجن. ستة وعشرون يهودياً وتسعة عشر مسلماً حتى الآن. أصبحت صيحاتهم وروائحهم التي تهب باتجاه حجرة المطران مزعجة ونتنة. ففوجئنا ذات صباح باستبدال حجرته بحجرتنا.

مرّت أيام لا عمل لي فيها لاسيما وجميع الوشاة والمعترفين من أهل صقلية. ترجمت اعترافات مسلمين ووثائق أملاكهم. شعر أحدهم بالطمأنينة تجاهي فسألني هامساً:

- ماذا سيفعلون بنا؟

- هل فعلت ما يستحق العقوبة؟

هزّ رأسه نافياً وأجاب بعينين جاحظتين:

- لا، أبداً!

- إذن، لا شيء يستدعي أن تقلق. أنت مسلم تقول إنك مسلم، ونحن نبحث عن مسلم يدّعي أنه مسيحي.

أطال النظر في وجهي لهنيهةٍ وكأنه لم يفهم ما قلت ثم تراجع سريعاً وكأنه يخشى أن أغيّر رأيي، وغادر دون أن يلقي التحية. لاحقه ألفونسو بنظراته حتى اختفى ثم سألني:

- ماذا يريد منك؟

- إنه خائف فحسب يا ألفونسو!

هزّ رأسه بلا اكتراث، ثم أشار إلى ورقة بين يديه وقال بصوت مرهق:

- هؤلاء اليهود عجيبون. لم أر يهوداً مثلهم من قبل. يتحدثون بالعربية مثل المسلمين، ويكتبون بالعبرية مثل اليهود!

- مهلاً يا عزيزي ألفونسو. لقد خلطت كل شيء. أما زلت ثملاً؟ المسلمون يتحدثون العربية ويكتبون بها. واليهود يتحدثون العبرية ويكتبون بها.

- إلا يهود صقلية!

لم أحفل بجهله. قررت أن أتوقف عن الحديث وأكمل عملي فقلت له:

- ربما. يحدث في صقلية ما لا يحدث في غيرها يا عزيزي!

أدركت فيما بعد أن ألفونسو علمني ما لم أكن أعلم. ذلك أن وثائق

اليهود التي تراكمت فوق مكتبي بعد مصادرتها كانت جميعها مكتوبة بالعبرية كما هو متوقع. فلما جلبنا مترجماً عبرياً استعصى عليه فهمها. طلبت منه أن يقرأها بصوت عال فإذا بها كلمات عربية تتدفق من فمه رغم نطقه الصعب لها. قال ألفونسو:

- قلت لك إنهم عجيبون. يكتبون بحروف عبرية كلاماً عربياً!

هكذا أصبحت مسئولا عن ترجمة الوثائق اليهودية مع المترجم العبري. يقرأ هو فأفهم أنا. ثم نسجل ذلك كله بالإيطالية. وبعد أسابيع من تلك المهمة الجديدة، جاء رجل يسأل عني بالاسم ودلّوه عليّ. التفت يمنةً ويسرةً قبل أن يقول لي هامساً بالعربية:

- سمعتُ أنك تتحدث العربية.

أجبته بها:

- نعم.

مكتبة
t.me/t_pdf

- جئت لأسأل عن قريبٍ لي.

- ولماذا تستفسر مني؟

تراجع قليلاً وارتسم على وجهه ملامح إحباط ومسكنة ثم قال:

- قريبٌ آخر لي دلّني عليك، وقال إنك طيب القلب وتساعد الناس.

بدا واضحاً أن المسلم الذي جاء قبل أسابيع تحدث عني بين أهليه. أزعجني ذلك وشعرت أنه ليس من صالحي أن يشيع عني التعاطف مع المتهمين، ولذلك حاولت صرفه بفظاظة مفتعلة:

- لا، لست طبيب القلب. اذهب من أمامي الآن ودعني أكمل عملي.

تمسكّ الرجل بساعدي فجأة وطفرت من عينه دمعة حارة وهو يقول:

- أرجوك! أتوسل إليك أن تجيب عن سؤالي ثم لن تراني بعد ذلك.

- ماذا تريد؟

تنحنح ورمق ألفونسو بنظرةٍ سريعة، فلما رآه منشغلاً مع آخرين اقترب مني أكثر وقال:

- نحن مسلمون، والجميع يعرف ذلك.

- وما مشكلتك؟

- ابن أختي يوصل الطعام إلى دير الكرمليين كل صباح. لا شيء سوى الطعام. بيضٌ وحليب وبعض الزبدة والخبز الذي تصنعه أمه في البيت. إنهم فقراء.

- وما خطبه؟

- إنه هنا.

وأشار بيده خفية جهة السجن.

- أتعني أنه مسجون هنا؟ بأي تهمة؟

- وشاية. أقسم لك أنها وشاية خبيثة وخاطئة. فهو مسلمٌ يكسب قوته من بيع الطعام للدير.

- هذه ليست تهمة تستدعي السجن. ولكن هذا ليس من شأني. فأنا لست القاضي ولا المطران.

- أريدك أن تخبرني بماذا وصموه في وشايتهم.
- هذا ليس من شأنك.
- أرجوك يا سيدي. إن أمه تكاد تموت من الخوف والألم. أرجوك. فليكن في قلبك شيء من الرحمة بها وليس بي أنا.

تنفست عميقاً وشعرت بالحيرة في هذا الموقف. أأقرأ له المدوّن في سجل الوشايات وأتركه يمضي؟ أم أصرفه عنيّ وأتجنب لفت الأنظار؟ نظرتُ جهة ألفونسو فوجدته قد فرغ للتو من محادثة مع شخص آخر. طلبت من الرجل أن ينتظر خارجاً بعض الوقت، واقتربت من ألفونسو:

- اسمع يا ألفونسو. يوجد فتى مسلم في السجن بوشاية، وخاله هنا يقول إنه بريء.
- إن كان بريئاً فسيحكم القاضي ببراءته ويعود إلى أهله. أنت ترى كم هو ضيّق هذا السجن، ولن يتأخر القاضي في إصدار الأحكام.
- ولكنه يقول إن أمه في حال سيئة جداً. هل بوسعي أن أخبره بتهمته.

صمت ألفونسو قليلاً ودارت عيناه في محجريهما نصف دورة ثم قال:

- لا بأس، هاك سجل الوشايات.

تناولت السجل ووضعته على مكتبي ثم خرجت من الغرفة فألفيت الرجل يدور في المكان ويقلب بصره في الوجوه ويبدو عليه الاضطراب. سألته عن اسم ابن أخته وطلبت منه أن يظل حيث هو. قلّبت في الأوراق حتى وصلت إلى مذكرة وشايته سريعاً.

«عثمان بن خلف. اعتنق المسيحية وعمّده قمص دير الكرمليين دون علم أهله. لا يأكل شحم الخنزير وينام متأخراً في شهر رمضان. إنه ليس مسيحياً، وقد ادعى المسيحية ليستمر الدير في شراء الطعام منه. اسم الواشي: حسن بن زيادة. جارهم. الشهود: إبراهيم بن زيادة. عبدالله بن زيادة».

نقرت ألفونسو في كتفه ليلتفت جهتي وأشرت إلى نص الوشاية ليقرأه. أمعن قليلاً ثم ضحك وهو يقول:

- يالالأوغاد!

- ماذا تعني؟ أهي وشاية كاذبة؟

- بالتأكيد يا عزيزي جرما. هل يغيّر الفتى دينه من أجل أن يبيع طعاماً لدير واحد؟ لقد اعتنق الدين القويم يا عزيزي والكرمليون طيبون وأذكياء. لا بد أنهم نجحوا في إرشاده إلى طريق يسوع المخلّص وقد أثار ذلك غضب جماعته فوشوا به.

- هذا يبدو صحيحاً. لو كان في حلب لقتلوه.

- ولكنهم لا يستطيعون قتله هنا. فالجزيرة لم تعد لهم.

- وماذا نفعل؟

- لا شيء. إذا كنتُ أنا ألفونسو المسكين اكتشفت وحدي أنها وشاية كاذبة فما ظنك بالقاضي؟ ربما يستدعي القمص وبعض الرهبان ويسألهم، ولكن هذا الفتى سيكون في كنف أمه بعد أيام قليلة يا عزيزي، ولكن، لكم أخشى عليه من أمه نفسها!

٣٣

أدان القاضي ثلاثة إخوة من اليهود بإدعاء المسيحية كذباً. ولما كان الإخوة الثلاثة قد هربوا لم تستغرق المحاكمة أطول من الوقت الذي احتاج إليه القاضي ليتناول غداءه وهو يملي على أرمادو الحكم بجرد أملاكهم وبيعها في المزاد. وضع أرمادو الأوراق فوق مكتبي يعلوها قرن كبشٍ مجوّف وعاد إلى مكتبه دون أن ينبس بكلمة. قرأت السطر الأول من الحكم فوجدته بالإيطالية. حملت الأوراق والقرن الذي لا أدري ما الذي جاء به ووضعتها على مكتب أرمادو، وفي صباح اليوم التالي وجدتها على مكتبي مرة أخرى. فحملتها إليه مرة أخرى وقلت له بهدوء:

- إنها مكتوبة بالإيطالية يا أرمادو كما يبدو. هل تشكو من شيء؟

لم ينظر جهتي، وقال ببرود:

- أعلم ذلك. ألا ترى ختمي؟ أنا الذي كتبتها.

- وتريدني أن أترجم لك ما كتبته بنفسك؟ اصدقني القول فأنا قلقٌ بشأنك. هل تشكو من شيء؟

نظر إلي من أدنى وأنا واقف فبدا جفناه المتهدلان أكثر تهدلاً وقال:

- هل قرأت الحكم كاملاً؟

- يكفيني سطره الأول لأعرف أنه بالإيطالية.

- اقرأه كاملاً.

رحت أقرأ الحكم الذي لم يخرج عن ديباجة الأحكام المعتادة. قفزت الأسطر بحثاً عما يرمي إليه أرمادو حتى فوجئت بوجود اسمي في ذيل الورقة. نظرت إليه ببرود وقلت:

- أرمادو! أنا ترجمان؟

- أظنك تجيد الأرقام أيضاً وليس الحروف فقط.

- وما شأني أنا بحصر الممتلكات والبيع والشراء؟

ودون أن ينظر إليّ قال بتحدٍ واضح:

- هذا ما أمرني القاضي أن أكتبه.

خرجت باتجاه غرفة القاضي ليصادفني ألفونسو لدى الباب. قلت له:

- يريدني القاضي أن أشارك في مزادات البيع. هل تصدق هذا؟

- هذا عجيب. ما شأنك أنت بالمزادات؟

- هذا ما أنا بصدد معرفته الآن.

كان باب غرفة القاضي مفتوحاً. مددت رأسي فوجدته يقرأ وحيداً. استأذنت بالدخول فأشار بيده لأقترب. مشيت حتى صرت على مقربة منه. نظر إليّ مبتسماً وقال:

- ستسألني عن مزاد اليهود الثلاثة بالتأكيد.

- أجل يا سيدي. ما شأني أنا بالمزادات؟ أنا لا أعرف كيف أقوم بهذا العمل.

- لن تقوم به وحدك يا بنيّ. سيكون معك مفتشون للحصر والتسجيل وكتابة العقود.

- ما دوري أنا إذن؟

مسح القاضي وجهه من إجهاد القراءة وانتقلت لطخة حبر من أصابعه إلى جبينه فاستأذنته أن أمسحها. قال وأنا أزيل الحبر عن جبينه بكم قميصي:

- هؤلاء اليهود يملكون كتباً تشترى بأثمانٍ غالية، وعندما نقيم مزاداً يأتي يهود آخرون ويشترونها بثمن بخس مستغلين جهلنا بقيمتها.

سكت قليلاً وأغمض عينيه مستسلماً لحركة يدي الطفيفة على جبينه حتى انتهيت. فقال:

- أريدك أن تفحصها جيداً. لقد خبرت وثائقهم وصرت خبيراً في شؤونهم.

ووقف استعداداً للخروج ومدّ يده ليمسّ كتفي بلطف وهو يقول:

- لا يستطيع غيرك القيام بهذه المهمة.

- بكل سرور يا سيدي.

وقبل أن ألج إلى مكتبي مرة أخرى سمعتُ نغمةً مكتومة كأنها تنبثق من بوقٍ معطوب، وعندما أطللت برأسي داخل الغرفة رأيت ألفونسو يدسّ في فمه قرن الكبش المجوّف وينفخ فيه فيدسّ أرمادو إصبعيه في أذنيه ويضحك. قلت وأنا أدخل:

- هو بوقٌ إذن. كنت أتساءل!

أزاح ألفونسو البوق ومسح فمه بكم قميصه وقال:

- ألم تر مثله من قبل؟ اسمه الشوفار. ينفخون فيه في أعيادهم.
- وما الذي جاء به؟
- ألم تقرأ الحكم كاملاً؟ هذا هو الدليل.
- أوه! ياللأبله. لماذا يحتفظ بشيء كهذا.
- أحد أطفاله نفخ فيه في وقتٍ كانت آذان الجيران متربصة كما يبدو.
- ياللطفل التعس! ماذا فعل بأهله.

صباح اليوم التالي اتجهت إلى حي اليهود مباشرة، وبسبب ملابس المحكمة التي أرتديها أجاب المارة بسرعة على الأسئلة القليلة التي طرحتها لأستدلّ على بيوت الإخوة. وهناك وجدت المفتشين قد كوّموا حاجيات البيوت الثلاثة خارجها. طفت حولها بحثاً عن الكتب التي يريدها القاضي. خزائن ملابس وأوانٍ نحاسية وحديدية وكراسٍ خشبية وحشيات صوف وقناديل ومخدات ومرجل كبير ذو ثلاث قوائم وبراميل نبيذ فارغة وأكياس طحين وسفود للشواء ومقلاة وسكاكين وفأس وقوالب أجبان ولفافات من خيوط الكتّان وبعض الأقمشة.

دخلت إلى البيت الذي سبقني المفتشون إليه وقد بدا خاوياً إلا من طاولة العجن الثقيلة وخزانة كبيرة من خشب الجوز. سألت أحدهم:

- هل وجدت كتباً؟
- لا يوجد.

- بالتأكيد! ما دامت ذات قيمة فلماذا يخلّفونها وراءهم.

استدرت لأخرج من البيت عائداً إلى المحكمة. وجدت رجلاً يقبض بيده على رسغ امرأة نحيلة تبدو في الخمسين من عمرها ينتظرني خارج البيت. قصدني مباشرة وقال:

- سيدي المفتش. هذه الأَمَة كانت لهم. أنا أعرفها. لقد حاولت الهرب هذا الصباح.

هممت بالكلام قبل أن يسبقني صوت المفتش من ورائي وهو يقول:

- أين كنتِ ستهربين أيتها الغبية.

ظلت مطرقة ولم ترد، ولم يبد أن المفتش ينتظر منها رداً على كل حال. أمسك برسغها في حين أطلق الرجل رسغها الآخر، ومشت بمعيّة المفتش نحو كومة الأغراض خارج المنزل، واستلّ من جيبه حبلاً وربط به يديها معاً من خلف ظهرها وربط الطرف الآخر منه في خزانة الملابس. ثم عاد ليستأنف عمله قائلاً وهو يضحك:

- لو أنها نافعة لما تركوها هنا.

قررت أن أمشي قليلاً في حي اليهود الذي لم يعد يقطنه الكثير منهم. بدت أغلب البيوت خاوية وعلى أبواب بعضها أرقامٌ مكتوبة بالفحم بأثمان بيعها وكرائها. زحف بقية أهالي المدينة إلى الحيّ واشتروا الدكاكين والبيوت على ما يبدو، ولكن بقي بعض اليهود بأسمالهم البالية وقطع القماش الحمراء التي على صدورهم. ألقى

عليّ جميع من مررت بهم التحية بلا استثناء وأوسعوا لي الطريق في الأزقة الضيقة. تفعل ملابس محكمة التفتيش العجائب في شوارع باليرمو.

تذكّرت حيّ اليهود في حلب داخل أسوارها نقبع نحن المسيحيون في الخارج. كلانا يدفع الجزية لنائب السلطنة غير أنهم أقرب إلى قلوب المسلمين منا، ولذلك أسكنوهم داخل الأسوار، ولم يحظر عليهم العمل في أي مهنة يريدون، بل عمل بعضهم في القلعة نفسها، ولم أكن حتى العاشرة من عمري أفرّق بينهم وبين المسلمين حتى اصطحبت أبي إلى طبيب يهوديّ ليعالج مهماز قدمه الذي تورّم كالعادة وصار يمشي على أطراف أصابعه. ربت الطبيب على كتفي بلطف وهو يقول: «طوبى لهذا الولد الذي يعضد والده. الآن، انتظر خارجاً يا ولدي»، ووقفت خارج بيته أتأمل المارة من اليهود رجالاً ونساءً وأطفالاً وبدأت أفهم أنهم قومٌ يختلفون عن المسلمين وليسوا فقط قوماً يفضلون العمائم الصفراء، ولبثت في تأملاتي حتى علت صرخات أبي في الداخل. نظرت من خصاص الباب لأرى رجل أبي مقيدة والطبيب يكوي عقبه بسيخ محميّ. انتبه الطبيب لتلصصي فأشار لي بالدخول. شممت رائحة الجلد المحترق ورأيت وجه أبي المتعرق وهو يلهث من الألم. أوصى الطبيب لأبي بحذاء عند إسكافيّ يهوديّ يبطن نعلها بالقطن فلم يشتره أبي وظل يمشي على أطراف أصابعه حتى زال الألم.

٣٤

اليوم أصبحتُ صقلياً حقيقاً على حد تعبير ألفونسو وهو يتأمل الشقّ الملتهب من صدغي حتى نقرتي. وفي جسدي خدوش وكدمات ورضوض لم أفرغ بعد من حصرها. وعندما دخلت إلى المحكمة صباح اليوم التالي من تلك المشاجرة الكبيرة أثارت اللفافة التي تحيط برأسي الانتباه حتى أن المطران بنفسه سألني عما حلّ بي، ووجدتني أقول له عكس ما أريده منه:

- لا شيء يستحق إزعاجكم يا سيدي، وجدت نفسي متورطاً في مشاجرة بين أشقياء وحدث هذا..

زمّ المطران شفتيه ثم قال وهم يهم بمتابعة سيره:

- لا شيء يحدث دون سبب في باليرمو! خذ حذرك.

وبد أرمادو نفسه متعاطفاً معي، وتابع أسئلته لي وهو يربت على كتفي بلطف وكأن رؤيته لي في هذا الحال تشبعه وترضيه حتى قرر التوقف عن عدائه الصامت ليّ. ثم أكد على اتفاقه مع المطران.

- لعلها مشاجرة مفتعلة لإلحاق الضرر بك.

- ولماذا أنا؟

كنت أمشي في حي اليهود مرة أخرى بعد أن أصبحت عضواً منتظماً في فرق التفتيش بحثاً عن الكتب الثمينة. اعتاد السكان رؤيتي

حتى صار الباعة الجائلون يناولونني بعض الفاكهة وعصير القصب والنوجة المغطاة بالسمسم كلما مررت بهم، ولكن الحقيقة أن بيوت الحيّ بدأت تخوى وقلوب أهليها تمتلئ حقداً وغيظاً علينا نحن موظفو المحكمة الذي يبيعون الممتلكات المصادرة على قارعة الطريق.

واقفاً كنت أنتظر المفتشين لينتهوا من عملهم عندما مرت العجوز التي تجمع الصدقات وهي تغطي رأسها بكيس من القش وقالت:

- سيدي. صدقة تعين أمتنا على النصر. صدقة تعين ملكنا وملكتنا على طرد المجرمين. أقم مملكة الرب في الأرض يهبك الرب مملكته في السماء.

مددت يديّ إلى كيس نقودي الصغير تحت ثيابي وأعطيتها نصف تارةٍ سقطت في وعائها الخشبي محدثة دوياً وهي ترتطم بنقود نحاسية وفضية قليلة.

- باركك الرب يا ولدي

ولم تكد تبتعد بضع خطوات حتى هجم عليها رجل متسخ الثياب ونزع الكيس عن رأسها لتتطاير معها خصلات شعرها الهزيلة البيضاء وصرخ:

- لا تغطي رأسك!

أقبل رجلٌ من ورائي ليقبض بيديه على قميص الرجل الذي هاجم المرأة وهو يصيح:

- أيها الوغد. ما الذي يزعجك في جمع صدقات الحرب؟

- لا يزعجني شيء. لقد تبرعت بنفسي، ولكن لا يحق لها أن تخفي رأسها. نريد أن نعلم أين تذهب الصدقة.

- أنت تتبرع بأسمالك القذرة هذه.

وفور أن نشب الشجار بينهما حاولت فضّه. بدا الأمر سهلاً في البداية قبل أن يجتمع الناس ويثور الغبار وتخرج الـمُدى ويعلو الصراخ. بدأت أتلقى ضربات ممن لا أرى، وشعرت بألم حاد في صدغي ثم بخيط دافئ من الدماء يسيل وراء أذني ويلوث كتفي وصدري. سقطت على الأرض ووقف أحدهم فوق كتفي وهو يهجم على آخر. تكاثرت الأرجل من حولي. الغبار خانق، والصياح عالٍ، وقفت بصعوبة وسقطت. ثم وقفت مرة أخرى فوجدت نفسي مدفوعاً بقوة لأرتطم بجدار أحد البيوت. تلقيت ضربات على رأسي جعلتني أشعر بالدوار. ثم تصاعدت أصوات المفتشين من حولي وهم يصيحون في المتشاجرين:

- توقفوا! بأمر المحكمة توقفوا! أو نقبض عليكم جميعاً.

انخفضت أعداد الأقدام التي حولي وتصاعد السباب المتباعد. أمسك أحد المفتشين بذراعي وساعدني على الوقوف. نظر في وجهي الملطخ بالدماء وصاح:

- أأنت بخير؟ أين جرحك؟

لم تكن المشكلة في هذا الشق الصغير في صدغي. فقد جفت الدماء وبرؤ وحده بعد أيام، ولكني بقيت أفكر طويلاً فيما قاله أرمادو.

أتكون المشاجرة مفتعلة كما قال؟ كلما أعدت التفكير في أحداثها بدت لي سخيفة وغير مبررة. ما الذي أغضب الرجل إلى هذا الحد من عجوزٍ تغطي وجهها؟ ما الذي أغضب الرجل الآخر إلى هذا الحد بسبب متسول ومتسولة؟ ومن أين جاء كل هؤلاء المتشاجرين فجأة؟ إنها مشاجرة مفتعلة بلا شك، وأنا بصفتي موظفاً في المحكمة، هناك من يحاول أذيتي.

لم تمض أيامٌ عديدة أخرى حتى تكررت بعض الحوادث التي صيّرت الشك يقيناً. تعرّض موظفوا البريد التابعين للمحكمة للضرب في طريقهم إلى قطانية وسرقت جيادهم، وشبّ حريقٌ محدود في اصطبل البهائم الملحق بالمحكمة وخمد وحده لحسن الحظ، ووجدت زوجة القاضي سكيناً صدئة معلقة على حبل الملابس المغسولة، وحتى البارون نفسه وجد كومة من الروث أمام باب بيته منعته من الخروج دون أن يخوض فيها حتى كعبيه. صرت أنتظر ألفونسو وأرمادو كل صباح حتى نخرج معاً إلى المحكمة بدلاً من الذهاب فرادى، ولكن شيئاً غير هذا الحذر لم يحدث على مستوى المحكمة. فلا يبدو أن الأمر يقلق القاضي ولا المطران ولا السفير البابويّ الذي لم يتعرض لأي من هذا لأنه لا يخرج من بيته ولأن بيته نفسه محاطٌ بالجنود الذين جاءوا معه من الفاتيكان. أما أنا فظلّ قلقي يتصاعد. أنا الغريب الوحيد في هذه المحكمة، وبذلك أكون أهون الأهداف على الأعداء الذين يتربصون بنا، وربما أن رأسي - حسب ما أوحته إليّ أفكار ليلةٍ طويلةٍ

من الأرق - أبلغ رسالة يمكن أن يبعثوا بها إلى المحكمة.

بعد أسابيع، انتهزت فرصة وجودي في بيت البارون حاملاً إليه بعض الأوراق ليضع عليها ختمه قبل إرسالها إلى برشلونة. طلبت منه بتلطفٍ وانكسار أن ينقلني إلى عملٍ آخر خارج المحكمة. فتل شاربه المدبب ونظر إلى وجهي بصمت قبل أن يقول:

- هل تعرضت لأذى؟

- لا يا سيدي. بل، أوه، أجل يا سيدي. مشاجرة مدبّرة في حي اليهود قبل أسابيع لم نشأ أن نزعج سمعك بها.

- إذن أنت خائف. لا ألومك. إنكم تقومون جميعاً بعملٍ شاق هنا، وهؤلاء الصقليون أغبياء لا يدركون ما تقوم به إسبانيا لصالحهم. ثمة من لا يرى أبعد من أنفه. هل كانوا سعداء في هذه الجزيرة المتعوسة قبل وصولنا؟ أديان مختلفة. مساجد ومعابد وأوثان وكلٌّ يهرطق كما يشاء دون أن يضرب حساباً للرب، وظلّ الرب يعاقبهم لقرونٍ دون أن يشعروا. لم تغز أرض في هذا البحر أكثر مما غزيت صقلية. لأنهم كانوا ضعفاء مشتتين مشغولين بتفاهاتهم الصغيرة وتجارتهم اليومية وتركوا كل غريب يحضر دينه وآلهته معه ويقيم معهم..

تنفس قليلاً كأنه شعر بالغضب من كلماته نفسها ثم أردف وهو يجزّ على أسنانه:

- نحن في إسبانيا نعرف معنى أن ترزح تحت وطأة المحتلين لمئات السنين. جاءوا من الشرق ومن الصحراء ومن كل مكان. حولوا

كنائسنا إلى مساجد ونساءنا إلى إماء وأطفالنا إلى خدم. ثمة أسر كاملة يا جرما. أسر إسبانية عريقة تمتد جذورها إلى عهد الرسل الأوائل لا تجد فيهم مسيحياً واحداً اليوم. كلهم أسلموا وتشتتوا وتغرّبوا وفقدوا كل ما له صلة بتاريخهم. ثم انظر إلى هؤلاء الصقليين الأغبياء.. نحن نطرد الموركسيين واليهود من أرضنا وهم يتشبثون بهم في جزيرتهم، ويجعلون لهم أحياءً كاملة ويقيمون معهم تجارة وينامون ملء جفونهم وكأن الأفاعي لا تسرح في أعشاشهم، وعندما نأتي نحن لنخلصهم من كل هذا حتى قبل أن ننتهي من تخليص بلادنا من آخر هؤلاء الملاعين في غرناطة، يعاملوننا وكأننا نريد بهم شراً. نحن الذين نمّد إليهم يد المخلص لنأخذهم إلى مملكة السماء يضعون أكوام الروث عند أبوابنا؟

- إنهم أغبياء فعلاً يا سيدي، وأنا لا أريد أن أموت على يد غبيّ!

استطرد في كلامه وكأنه لم يسمع عبارتي السابقة:

- وهؤلاء اليهود والموريسكيون سواء. إنهم أبناء عمومة ومهما ادعوا أنهم مختلفون في الدين عنهم فإنهم سواء. لقد عاشوا في إسبانيا وكأنهم زوجٌ أليف من الحمام. إذا طردت الموركسيين وأبقيت اليهود فكأنك أبقيت الموركسيين وطردت اليهود. لا فرق. لن يبقى في إسبانيا أحد إلا من يعبد المسيح فقط حسب شريعة الفاتيكان. عندها يا جرما سيصبح هذا العالم أطهر من كوب لبن طازج.

توقف عن الكلام ونظر في وجهي بحثاً عن تأثير كلماته المشجعة على طلبي السابق. قلت له:

- نطردهم؟

عقد حاجبيه وأطرق قليلاً ثم لوح بيده أمام وجهه بشكل عصبيّ وكأنه يصرفني عما أثار اهتمامي، وقال:

- نطردهم. يرحلون. يحترقون. عليهم اللعنة. المهم أن يبتعدوا عنا هم ودياناتهم الفاسدة.

بدا واضحاً أنه انزعج من كشفه سراً لموظف صغير في المحكمة لا ينبغي له أن يعرفه، ولكني أنا نفسي لم أنتبه لكونه سراً إلا بعد أن انتهى الحوار بساعات وخرجت من بيته. أما في تلك اللحظة فقد تكلمت معه كما أتكلم دائماً، بسذاجتي وفهمي المتأخر، فقلت:

- هل سنطردهم فعلاً؟ كل الأحكام التي صدرت حتى الآن ليس فيها حكمٌ واحد بالطرد.

تنفس بعمق ثم قال بصوت أخفض من ذي قبل:

- نعم، سنطردهم. لا أظن الملك والملكة يفكران إلا بذلك. سيطردانهم حتماً ولكن بعد أن ينتزعا منهم آخر ما له قيمة. سيتريثان حتى تحين اللحظة المناسبة.

- ولماذا لا يكون الطرد الآن؟

- لأن هذا سيثير الكثير من المتاعب يا جرما. هؤلاء الملاعين ما زالوا يمسكون بخيوط التجارة. بعض الصناعات لا يعمل بها مسيحي واحد. ثم إن هناك أموالاً كثيرة ليست في بيوتهم ولا في صقلية بل مودعة لدى شركاء لهم في إيطاليا. لو طردناهم الآن فستبدو صقلية

مثل مزرعة أصابتها صاعقة. خاوية ومحروقة. أحياناً يكون من الحكمة أن تنتزع النباتات الضارة من جذورها ببطء.

- أنا لست خائفاً يا سيدي البارون، ولكني أريد أن أعمل في مكان آخر. ربما معك هنا. في بيتك.

ابتسم ووضع يده على كتفي وقال:

- بل أنت خائف. لا تحاول إخفاء ذلك، ولكن سأطمئنك. سوف نطلب من الملك أن يمدنا ببعض القوات، وفور أن يتم شنق أول واحد من هؤلاء الأشقياء في ساحة المدينة ستتوقف كل هذه الأعمال الخرقاء تماماً، وربما ينحني لك المارة في شوارع باليرمو يا جرما. سينحنون لك بكل احترام.

٣٥

لم ينحن لي أحدٌ في شوارع باليرمو كما تنبأ البارون بل انحنيتُ أنا ورفاقي لتجنب وابل الحجارة المنهمر علينا ونحن نتجاوز باب المحكمة. في إحدى المرات التي عملنا فيها حتى غربت الشمس فوجئنا بالعشرات من الوجوه الغاضبة تحيط بنا. صفوفٌ تليها صفوف. الصف الأول يصرخ في وجوهنا بغضب شديد «أيها القتلة». أما الصف الثاني فيحاول أن يجد فرجات من الصف الأول ينظر من خلالها إلينا، ولا بد أن الصف الثالث هو الذي بدأ في رمي الأحجار بقوة لتصيب إحداها كتف كاتب العدل وأخرى إلية المطران وهو يتراجع داخل المحكمة، ثم تفجر ثالثة الدماء في وجه أحد الحراس الذي حاول أن يقينا بجسده. تراجعنا معاً وانحشرنا عند الباب. تمكن بعض المشاغبين من الدخول قبل أن يوصد الحراس الباب لتنهمر عليه عشرات الأحجار والضربات. سمع المساجين هذه الأصوات فراحوا يصرخون أيضاً ويضربون أغلالهم ببعضها فتصدر قعقعة عالية يتردد صداها في المبنى الخالي.

أخيراً وجدنا أنفسنا في ساحة المحكمة. الموظفون جميعاً ومعنا ستة من المشاغبين ما زالوا يصرخون بوجوه غاضبة. صاح أحد القضاة مطالباً بالصمت فهدأت الأصوات التي بالداخل تدريجياً وبقيت الأصوات التي في الخارج. فقال القاضي:

- ما هذا؟ ما الذي يجري هنا؟

تكلم المشاغبون الستة معاً بأصوات متداخلة. فصاح القاضي:

- فليتكلم أحدكم!

نظر بعضهم إلى بعض. ثم تقدم أحدهم الذي بدا لي أنه الأقل صراخاً وإن ارتسم على وجهه الغضب نفسه فقال:

- أنتم أدرى بالذي يجري هنا.

أجاب القاضي:

- ما الذي يجري؟ نحن نمارس عملنا.
- ونحن أيضاً نريد أن نمارس عملنا.
- وما الذي منعكم؟
- أنتم منعتمونا. هل أنت غبي؟

جز القاضي على أسنانه وصاح به:

- تحدث بأدب وإلا ستندم. كيف منعناكم من أعمالكم؟

اقترب الرجل حتى وقف أمام القاضي تماماً وأشار بسبابته إلى مكان بعيد خارج أسوار المحكمة وقال:

- حسناً! سأقول لك. الطبيب الوحيد في قريتنا في السجن الآن. هل تسمع صراخه؟ معمل الصوف توقف لأن كل النسّاجين في سجنكم. يوجد عشرات البيوت في الضواحي بلا عائل الآن ونحن نقسم لأطفالهم من طعامنا وأقواتنا.

- هؤلاء كلهم خونة. لقد سجلنا اعترافاتهم. هل تريدنا أن نترك الخونة أحراراً؟

تقدم مشاغب آخر وكأنما استثارته كلمات القاضي وقال:

- خونة؟ إنهم يعيشون بيننا قبل أن أولد. من أنتم لتحكموا عليهم بالخيانة؟ ليس منكم أحد من صقلية. كيف تجيئون من وراء البحر إلى بلادنا التي لا تعرفونها لتقرروا من الخائن منا؟

صاح آخر من خلفه:

- ألا تكفي الضرائب التي تزيد ولا تنقص؟

أجاب القاضي بصرامة وهو يحرك ذراعه وكأنه يحمل عصا خفية لا نراها:

- هذه البلاد بلاد الملك والملكة، وهما يحكمان فيها بما يشاءان.

- هذه البلاد بلاد الرب.

هز القاضي رأسه موافقاً وهو يقرب منه السفير البابوي ويقول:

- نعم، إنها بلاد الرب، وهذا هو سفير الرب معنا. كل ما يحدث في هذه المحكمة بموافقة بابوية. إنه البابا. ممثل الرب في الأرض. هل تعترض؟

صاح مشاغب ثالث يبدو أصغر سناً منهم جميعاً:

- نعم. أعترض. هل ستسجنني أيضاً. هيا..

ثم تقدم نحو القاضي حتى صار قريباً من وجهه وصاح:

- هيا. دلني على السجن وسأدخل بنفسي. دلني!

أطرق القاضي وقال بهدوء محاولاً التحكم في نبرة صوته وهو يقول للشاب:

- يا بنيّ اهدأ ولا تعرض نفسك للخطر. الأمر جاد وما تقوله قد يشهد به السامعون.

صرخ الشاب بجنون:

- فليشهدوا. فلتحرقوني حياً. لا يهمني. أخرجوا أبي من السجن وخذوني بدلاً منه. إنه مؤمن حقيقي. أنا الهرطيق هنا. هأنذا أعترف لك. أنا هرطيق كبير.

ومشى في المكان وهو يصرخ في وجه كل منا. حتى اقترب مني وقال:

- .. هرطقت في كل شيء. أنا يهوديّ. أو أنا وثني. أو أي شيء تريدون. أريد أن أحترق. أريد أن أشعر بالنار تأكل جسدي.

وصرخ أحد المشاغبين لم يتكلم من قبل باليونانية. فلم يجبه أحد. فكرر الشاب كلام الرجل بالإيطالية:

- أحرقوني! وستجدون قريتي كلها هنا في صباح اليوم التالي، وسيحرقون محكمتكم هذه حتى لا يبقى إلا رمادكم.

همّ القاضي بالرد غير أن القاضي الآخر تكلم بصوت هادئ جداً وكأن الأحداث كلها لا تعنيه وقال:

- اهدؤوا اهدؤوا. كان يجدر بكم الاعتراض عند نائب الملك وليس هنا. نحن مجرد موظفين ولدينا أوامر. ألا ترون ذلك؟ الأمر ليس بيدنا ولكن..

وصمت قليلاً ليشحذ انتباهنا ثم قال:

- لن نقوم بأي عمل في هذه المحكمة حتى نرسل شكواكم إلى نائب الملك.

ثم أشار بيده إلى الباب بوقار وهدوء قائلاً:

- وأنتم، اخرجوا من هنا الآن، وأخبروا رفاقكم أن يعودوا إلى بيوتهم وأن يختاروا منكم جماعة يمثلون كل فريق منكم، ونلتقي غداً صباحاً عند نائب الملك بمشيئة الرب.

صاح الشاب الغاضب:

- لن أخرج من هنا إلا وأبي معي. هل تفهمون؟

سحب أحد الحراس خنجره من غمده ولكن القاضي أشار بيده إلى الحارس ليثبت في مكانه وقال للشاب:

- يا بني. إذا قرر نائب الملك غداً أمراً فسيخرج جميع المساجين.

التفّ المشاغبون حول الشاب، وراحوا يقولون بأصوات متداخلة:

- حسناً..

- غداً عند نائب الملك

- وإذا لم نجدكم سنعود..

- بالمئات هذه المرة.

أولونا ظهورهم جميعاً وتحركوا باتجاه الباب. فتح الحارس لهم فخرجوا وهم يرفعون أيديهم لتهدئة الجموع في الخارج. تعالى صوت المساجين وهم يسمعون باب المحكمة يفتح مرة أخرى وهتاف الثائرين خلفه يتصاعد. ثم أغلق الحارس الباب بعد خروج آخرهم. فهتف المطران:

- يالهذه الأرواح المسلوبة!

قال القاضي:

- إنه خطؤنا. لم نشرح لهم طبيعة عملنا. البيان الوحيد الذي أعقب القداس لا يكفي. ألا ترى؟ إنهم مزارعون. أكثرهم لا يحضر القداس ولا يعيشون في باليرمو أساسا.

وصلنا أخيراً إلى مسكننا وأوى كل منا إلى حجرته. اتفق الحراس على نوبة حراسة ليلية بالتناوب بينهم فاطمأن إلى ذلك الجميع إلا أنا. ظل هتاف المحتجين يتردد في عقلي طوال الليل بلا توقف. «أيها القتلة!». هذه شتيمة لم توجه لي من قبل رغم أني تلقيت الكثير من الشتائم في حياتي. شتيمة ثقيلة ومرهقة للقلب. هل يقصدنا جميعاً؟ أنا مجرد ترجمان ولا شك أن المحتجين لا يعرفون من أكون. ربما ظنوا أني أحد القضاة أو السجانين. لو عرفوا أني مجرد ترجمان يترجم الأقوال كما هي لاستثنوني من هذه الشتيمة. «أيها القتلة! إلا أنت يا جرمانوس»، ولكنهم غاضبون إلى حد لن يسألوا بعده أحداً عن وظيفته. يا يسوع المخلص! ماذا لو أنهم أكثر عدداً وأشدّ غضباً؟ لفتكوا بنا داخل المحكمة، ولمتّ ميتةً لا جدوى منها. هل ستكون ميتة قاتل كما يظنون أو موظف في خدمة الرب كما أظن؟

أنا لست قاتلاً وهم أجهل من أن يوجهوا لي هذه التهمة. هل يعرفون أكثر من البابا الذي بارك هذه المحكمة وأمر بها؟ هل يريدون أن تمتلئ الشوارع بالمخادعين الذين يلبسون رداء المسيح على أجساد

نجسة؟ إن الملك والملكة لم يحرما أحداً من دينه، ولكن لماذا يدّعي هؤلاء أنهم مسيحيون؟ هذه نيّة من يريد أن يندسّ بيننا ويريد شراً. آه ما أجهل هؤلاء القرويين السذّج، لو علموا أن هذه المحكمة تحميهم من شرّ مستطير يحدق بهم.

٣٦

مرت أسابيع ونحن بلا عمل. أغلقت المحكمة حفاظاً على سلامتنا كما قيل وتم نقل السجناء إلى سجن باليرمو الكبير. انتشر جنود كثر لنائب الملك في الشوارع وهم يرتدون أوشحة ثقيلة تقيهم المطر والبرد. تجمعوا في ثكناتهم الصغيرة وأشعلوا ناراً في كل منها حتى بدت المدينة وأنا أذرعها مشياً من شدة الملل مثل سلسلة من النيران التي يحفها الجنود. تكلمت مع الموظفين الذين يشاركونني السكن في كل احتمال ممكن. أن يتم إلغاء المحكمة فنفقد وظائفنا كلنا. أن يتم تخفيف الأحكام على المتهمين بالهرطقة من الحرق والسجن إلى الحج والتوبة. بل إن ألفونسو مصرٌّ على أن المحكمة ستنتقل إلى برشلونة حتماً ونحن معها، ومع مرور الوقت ظننا أن نائب الملك يعدّ العدة سراً للهجوم على القرى التي جاء منها المحتجون وسيؤدب العصاة الذين وقفوا في وجه هذا الأمر البابويّ المقدس.

أفكاري مضطربة وكلها سيئة ومزعجة. قلقٌ بشأن سلامتي إذا استأنفنا أعمال المحكمة، وقلقٌ بشأن أجري إذا توقفت أعمالها، وفي داخل القلب، في تلك البقعة العميقة التي يستعصي عليها اليقين ويختبئ فيها الشك، لا أعرف إذا ما كنتُ على عملٍ يباركه المسيح فعلاً. أعني أنه لو كان بيننا يمشي ويرى ويسمع، هل يأمر بإنشاء هذه المحكمة؟

هل يوقع على مساجيننا عقوبات كهذه؟ حرقٌ وسجن ونفي؟ إن هذا يبدو مستعصياً على التخيل، ولكن البابا يمثله على الأرض ويعرف نيّات الرب أكثر مني.

آه! شيء في داخلي، مسيحي شرقيّ قديم، يقول لي إن البابا ليس كما يزعمون. البابا لا يعرف أكثر مما نعرف. البابا لا يمثل إلا نفسه، والرب نمثله جميعاً. كم هذا محير! من بوسعي أن أسأل؟ ولو سألت هل أنتهي إلى إجابة مريحة أم ركنٍ في الزنزانة المجاورة لحجرة مكتبي؟ شرقيّ مهرطق يدعي أنه لاتيني. سيكون عندي اعتراف يشبه الاعترافات التي ترجمتها ولا يتغير فيها سوى الاسم، وسيشي بي الشخص الذي لجأت إليه. لم لا؟ هل يفضلني على خدمة الرب؟ هل يخون الأمر البابويّ من أجلي؟ ومن هذا الصقليّ الذي أملك لديه هذه المكانة العالية؟

ماذا ستفعل يا جرمانوس؟ هل تعود إلى المحكمة إذا عادوا؟ أم تفرط في أجرك الكبير وتعود لاجئاً في الكنيسة؟ ثم راودتني فكرة مخيفة: هل تملك الخيار أساسا؟ هل يقبل نائب الملك خروجك من المحكمة بهذه السهولة دون سببٍ وجيه؟ هل يظنني تعاطفت مع الهراطقة لأني كنت مسيحياً شرقياً؟ أو تعاطفت مع المسلمين لأني كنت أعيش في حلب؟ أو تعاطفت مع اليهود من فرط ما قضيت من وقت في حيهم؟ أتراني أوقعت نفسي في مأزق لا فكاك منه عندما قبلت هذا العمل؟ يالسذاجتي! لم أفكر. لم أسأل. لم أستشر أحداً.

عرضوا عليّ أجراً وسكناً فوافقت كالثور الذي لا يعرف سوى الدوران في ساقيته.

ماذا أفعل الآن؟ هل أهرب؟ عندي من المال ما يكفي لأستقلّ أي سفينة إلى أي بلد. هل أعود إلى الماغوصة؟ أو إلى حلب؟ هل أرجع إلى كنيستي الشرقية مرة أخرى أم أبقى في الكنيسة الغربية؟ وماذا أعمل؟ في دير؟ في حقل؟ أبعد هذه الأجور العالية التي اعتدتها أستطيع أن أعيش مرة أخرى على حد الكفاف؟ وماذا عن الزواج الذي كنت أنويه؟

لا لا. سأستمر في عملي، وسيحميني نائب الملك بالتأكيد. يكفي أني أعمل في كنف الملك والملكة وبأمر البابا وبين قضاة وأساقفة. كيف يجرؤ الرعاع على التعرض لي؟ أنا على يقين أن نائب الملك الآن يخطط لإجراءات واسعة تضمن أن تقتلع هذه الاحتجاجات من جذورها. هل تملك حفنة من القرويين الوقوف في وجه فيردناند وإيزابيلا مثلاً؟ ثم إني سأستمر في عملي ترجماناً. فلا أنا الذي يطلق الأحكام ولا الذي ينفذها. فمم سيضطرب ضميري؟ إن لم أترجم لهم سيجدون ترجماناً غيري، وسينجو الذي أراد له الرب أن ينجو وسيموت الذي أراد له أن يموت.

بدأت هذه الأفكار بطيئة مثل نملاتٍ صغيرة تستكشف المكان. ثم مع مرور الوقت أصبح دبيب النمل المتغلغل في عقلي جارفاً ومتوحشاً. الأيام الفارغة التي أعيشها بلا عمل جعلتني أستيقظ كل

صباح وقد اتسعت رقعة القلق التي في داخلي وأصبحت الأفكار السيئة تعضني في القلب بألوف الأفواه الصغيرة، وكما يحدث كلما ألمّ بي خوف ازدادت أحلامي بأمي، وصرت أراها في أحوال مختلفة. غاضبة فأصحو كدراً. باكية فأصحو باكياً، ولم أرها سعيدة قط. ربما لم أرها سعيدة في حياتها حتى أراها كذلك في منامي. ما هذا الذي فعلته بنا يا أبي؟ عاشت أمي معك حياة جافة مثل حقلٍ من شوك، وماتت وفي حلقها غصة الحياة الناقصة. ربما لم تشعر طوال زواجك منها أنها أنثى إلا عندما أنجبتني، وعشت أنا معك حياةً لم تلمسني فيها إلا ضرباً، ولم تخاطبني إلا شتماً، والآن أنا في أقصى جزيرة من بحر الروم. جعلتني مزارعاً مستعبداً. ثم ترجماناً هارباً. ثم رجلاً يرتجف رعباً مما لا رعب فيه. ياه! كم يكفيك من الكراهية؟ ترى هل وصلت إليك رسالتي التي كتبتها لك؟ أتمنى أنك تشعر بالندم. لا أريد منك لا أسفاً ولا اعتذاراً، ولا تعويضاً ولا تبريراً. كل ما أريده فقط أن تشعر بالندم.

أشعر بالتعب والإرهاق كل صباح لسوء نومي وقلة راحتي. لاحظ ألفونسو تغيّر أحوالي وعبوس وجهي وقلة كلامي فأكثر من سؤاله عن أحوالي ومكثه معي. حتى جاء اليوم الذي طلب مني فيه أن أمشي معه. الجو باردٌ ولكن الشمس ساطعة. تلحفت بالشملة الصوفية التي أهدانيها القسيس يوم تحولت إلى الكنيسة الغربية ومشينا بلا وجهة على حواف المدينة. من الميناء الكبير إلى الميناء الصغير. ثم غرباً حتى انتهى البنيان وبدأت المزارع. ثم جنوباً حتى مررنا بجوار كنيسة

قديمة، ودخلنا لنأكل طعاماً اشتريناه في الطريق واقتسمته مع ألفونسو الذي لمح في وجهي ما لم أكن عارفاً بشأنه:

- بحق الرب يا جرما. هل أنت مريض؟ إنك تبدو بالياً مثل قشرة برتقال؟

- أنا بخير يا صديقي! لست مريضاً.

- ربما لا تدري أنك مريض. هل تنام جيداً؟

- أما النوم فلا أنام إلا لماماً.

- ولماذا؟ هل حدث ما يؤذيك؟

- لو آذاني شيء لكان ذلك أهون. الأسوأ من ذلك.. أن ما يؤذيني لم يحدث بعد.

- أوه يا صديقي. جلّ ما يقلقنا لا يحدث أبداً.

وفي طريق العودة إلى سكننا بدأ يصارحني بمخاوفه هو الآخر، ولم تكن تشبه مخاوفي.

- .. إنني أظن أن الحروب التي بدأت مناوشاتها في إيطاليا لن تلبث أن تدخل صقلية أيضاً.

- ماذا يعني؟ ماذا سيحدث لنا؟

- أنا من إسبانيا وأنت من المشرق. ماذا تظنه سيحدث لنا إذا استولت روما أو نابولي أو البنادقة أو جنوا على صقلية؟

- لن يحدث شيء. نحن مسيحيون في أرض مسيحية تغيّر حاكمها من مسيحيّ إلى مسيحيّ آخر. أنت تبالغ في مخاوفك! وأنا لا تنقصني المخاوف. إما أن تتحدث أو..

وهنا حدث أمرٌ غريب. كنا نمرّ بالقرب من بيت له شرفة نائتة بعض الشيء. فجأة تحركت هذه الشرفة من مكانها وانقلبت، وبدلاً من أن تصير أمامي صارت فوقي. أجل هذا ما رأيته يحدث للشرفة في الثواني الأولى. ببلاطها الخزفيّ الذي تكسرت بعض أطرافه وغطتها فروع يابسة لنبتة قتلها الشتاء، وميزاب الماء الذي ما زالت تقطر منه بعض القطرات البطيئة مكونة بركة صارت تحتي بعد أن كانت أمامي. ما الذي حدث؟ هذه الشرفة ليست في مكانها. أما بعد وقت قصير من الزمن، فقد عرفت أني أنا الذي لم أعد في مكاني. مؤخرة رأسي تؤلمني وبطني أيضاً. نظرت إلى نعليّ وهما يسقطان ويبتعدان عن قدميّ. إلى قدميّ وهما ترسمان خطين متوازيين في الوحل. إلى ألفونسو وهو متكومٌ على الأرض تحت الشرفة نفسها. إلى ذراعي الرجلين اللذين يجرانني جراً ويتحدثان باليونانية التي لا أفهمها. إلى الظلام الذي اكتنف كل شيء. إلى البئر السحيقة التي وقعت فيها.

بورغينيف

٣٧

مررنا بعاصفة. رأينا بركاناً. لمحنا حيتاناً، وفي الجبال التي غطتها الثلوج الكثيفة اضطررنا إلى ركوب زلاقة يجرها كلبان، وفي القرى التي نستريح فيها تسابق الناس لاستضافتنا وتقديم الطعام والنبيذ. كل ما يمكن أن أصف به سفراً جميلاً ورحلة ماتعة حدث بالفعل، ولكن قلبي مثل زنزانة موصدة بمئات الأقفال. مظلمٌ وخانقٌ ولا يتردد فيه حتى الصدى منذ أن عرفت أني على ظهر سفينة عندما سمعت أصوات الميناء المعروفة. صيحات رفع الصاري وهتافات الجدافين ونعيق النوارس وطقطقة الخشب وارتطام الأمواج بجانبي السفينة بصوتٍ يتضخم عندما يكون مثلي مكوماً في حجرة البضائع السفلية. محاطاً بالبراميل والصناديق، ومربوطاً في معلاقٍ كأني كبشٌ ينتظر ذبحه.

حنجرتي ما زالت تؤلمني. مزقتها بالصراخ الذي دوى مذ فقدت توازني وأنا أمشي مع ألفونسو حتى انغلقت الفتحة العلوية التي تصل سطح السفينة بجوفها. لاسيما في الميناء عندما تساءل الناس عن وضعي وسمعت الإجابات الوقحة: لص. عبد آبق. مجنون، وكفّ الناس عن الأسئلة، وما كففت عن الصراخ. كذبتهم بكل اللغات التي

أتكلمها. حتى اليونانية التي لا أجيدها صرخت بالكلمة التي أعرفها منها: لا، لا، لا، وجهي داخل كيس من الصوف سيئ الرائحة. أكلم أناساً لا أراهم، ويجرني أناسٌ لا أعرفهم، وأحاول أن أشرح لمن يسمعني أني موظفٌ محترم في محكمة التفتيش، ولن يرضى نائب الملك بهذا، وسوف يكافئ من ينقذني. حتى أني اخترعت من ذهني مبلغ المكافأة. ألف فلورين لمن يبلغ عن الخاطفين الآن. صارت ألفين عندما شعرت أني أصعد إلى سفينة، وعشرة آلاف عندما دخلت إلى جوفها مثل بقية البضائع.

ثم تحركت السفينة، وانقطع أملي في العودة، وصرت غير راغبٍ في شيء إلا معرفة وجهتي التي أخفوها عنّي. عندما يتحدثون بالإيطالية فالاحتمالات لا حصر لها. لو أنهم فرنسيون لقلتُ إني ذاهبٌ إلى فرنسا. إسبانٌ إلى أسبانيا. عربٌ إلى أفريقية. يونانٌ إلى رودس. تركٌ إلى إسطنبول، ولكن الإيطالية تعني نابولي وروما وجنوة والبندقية وبيزة، وكلهم في حروب مستعرة وأسواق العبيد في أوج نشاطها. يالهذه الخاتمة! عبد؟ أهذه ضريبة مباهاتي باللغات التي أتكلم بها؟ أجل. بلا شك. من ذا يفرط في عبد يتحدث لغاتٍ عدة؟ ومن ذا سيعنى باختفائه من مدينة لا يكاد يعرف فيها أكثر من عشرة؟ ومن ذا سيشتريني؟ إني ذاهبٌ إلى جنوة حتماً. أكبر سوق للعبيد. لهذا لم يضربوني ضربة واحدة. يريدونني سليماً لا يبخسني أحد بسبب سنٍ أو ضلع. يالحياتي الملعونة التي لا تكاد تصفو حتى تصفعني من حيث لا أعلم ولا أحتسب.

تباعدت أصوات الميناء والنوارس، وبقيت أصوات الأمواج والأقدام التي تمشي من فوقي، وبعض الكلمات التي يتبادلها البحارة بينهم بالإيطالية. علمت أننا أصبحنا في عرض البحر عندما توقف الجادفون عن التجديف واعتمد الربّان على الرياح. تصاعد صوت الغطاء العلوي الذي ينفذ إلى سطح السفينة ثم تلته خطوات تنزل من السلم الخشبي. لم أعد أشعر برغبة في الصراخ. أغمضت عيني على ملوحة العرق الذي يملأ وجهي رغم برودة أطرافي وبقية جسدي، ولم أتحرك حتى شعرت به يجذب غطاء وجهي ويحاول أن يحررني منه، وعندما خلعه عني لم ينظر في وجهي. ألقى الغطاء بعيداً ثم أولاني ظهره وعاد بصحن وضعه أمامي ثم حلّ وثاق يدي وهمّ بالمغادرة، وبحشرجة مفاجئة وحنجرة مقروحة سألته:

- إلى أين نحن مبحرون؟

أجابني بالإيطالية:

- إلى فرنسا.

- ولماذا أنا معكم؟

- أنا لا أعرفك. أنا أعمل في السفينة فقط. أنت مع الفرسان.

- هل تستطيع أن تطلب من أحدهم أن يتكلم معي؟ قل ذلك لهم بطريقة تجعلهم يشعرون بأهمية الأمر. قل إني سأموت. أنت لن تكذب. لن أذوق هذا الطعام حتى أتكلم معهم، وهذا يعني أني سأموت.

هزّ رأسه بلا مبالاة وأومأ علامة الموافقة ثم غادر المكان. لم أكن

أشعر بالجوع بل برغبة في القيء. تأملت الطعام فلاحظت أنه جيد. خبز وزيتون وقطع سمك صغيرة ومكعب من الجبن. هذا ليس طعام عبيد ولا أسرى، ونحن لسنا ذاهبون إلى جنوة..

مهلاً..

مهلاً. مهلاً.. اللعنة!

يا إلهي! ليتهم خلعوا غطاء رأسي مبكراً حتى أتنفس ويعمل عقلي.

أنا ذاهبٌ إلى السلطان جم!

في اللحظة نفسها التي خطرت لي الفكرة قمت واقفاً، ورحت أقفز في مكاني دون هدف. هل أنا سعيدٌ لأني لن أكون عبداً أم تاعسٌ لأني سأقاد إلى سلطان غاضب جداً ولا ريب. هل يقتلني؟ لم لم يفعلوا ذلك في صقلية إذن، ولكن، مرة أخرى، الطعام جيد، وهذا أمر له دلائل جيدة. هل يحتاج إليّ هناك؟ ربما لم يجد ترجماناً مثلي فأرسل هؤلاء ليجلبوني إليه. ربما أنه طلب منهم جلبي فقط، ولكن الفرسان الأجلاف لا يعرفون إلا لغة القوة.

فُتح غطاء السقف مرة أخرى ورأيت قدماً تتدلى منها بحثاً عن أولى السلالم. ثم نزل أخيراً رجل لا أنكر لباسه. لباس الفرسان، ووقف أمامي. قال وهو يشير إلى الطعام ويبتسم ابتسامة هزيلة واضعاً يده الأخرى على خاصرته:

- ألا تريد أن تأكل؟ أليس الطعام لذيذاً؟

- أذاهبون بي أنتم إلى السلطان جم؟

رفع حاجبيه بتعجب ثم اتسعت ابتسامته وهز رأسه مثلما يهز الكبار رؤوسهم إذا أحسن الأطفال التوقع وقال:

- أجل. أنت ذاهب إلى السلطان جم.

- ولماذا؟ وأين هو الآن؟

- لا نعلم على وجه التحديد. عندما نصل إلى مرسيليا سنسلمك إلى من يعرفون مكانه.

- ولماذا؟ لم تجبني لماذا؟

- لماذا أنت ذاهب إليه؟ لا أعرف يا صديقي. ربما اشتاق إليك..

وهم أن يقهقه، فشعرت بغضب شديد وبعض الشجاعة بسبب معاملتهم الحسنة لي حتى الآن. فصرخت في وجهه:

- أنت تضحك! هل ترى ما أنا فيه حتى تضحك معي؟ كيف تشعر لو كنت مكاني..

قاطعني بيده وقد كتم ضحكته وقال:

- اهدأ. أنا آسف، ولكني بالفعل لا أعرف لماذا أنت معنا على هذه السفينة. لقد وردت إلينا أوامر أن نأخذك معنا إلى نيس ثم مرسيليا ونسلمك إلى رفاقنا الذين في معية السلطان، وسوف تكون بين يديه في غضون أسبوعين أو ثلاثة، وبوسعك أن تطرح عليه كل الأسئلة التي تريد، وحتى ذلك الحين لن يتغير في مصيرك شيء سواءً عرفت أو لم تعرف، ولذلك فأنا أنصحك أن تستمتع بطعامك الآن. هل تعلم أنك تأكل من طعامنا نحن الفرسان؟ حتى البحارة لا يأكلون ما تأكل.

- أريد نبيذاً.

- حسناً، وماذا أيضاً؟

- هل أنام هنا طوال الرحلة؟ هذا مخزن بضائع وأنا لست صندوقاً كما ترى.

- بالطبع ستنام في حجرة وحدك، ولكن سنوصدها من الخارج عند النوم. هذه هي الأوامر.

صعدتُ إلى سطح السفينة وتأملت الأفق فما لمحت أي معالم لسرقوسة، وفيها كل ما جمعته من أموال وما اقتنيته من حاجيات وملابس. عدت مرة أخرى إلى القاع بعد أن ظننتني متجهاً نحو القمة. ها أنا معدمٌ وفقير وأسير وحزين مرة أخرى. أصبح البحر يحيط بي من كل جانب كما هو الحال طوال حياتي. دائماً أنا وحيد في بحر هذه الحياة. ترى كم تكررت هذه الحال في سنواتي الأخيرة؟ أن أجد نفسي في سفينة مع أناس لا أعرفهم متجهاً إلى مكان لا آمنه؟ أن أجد نفسي مجبراً على ما لا أرغب. مسيراً إلى حيث لم أختر. ما هذه الحياة! ما هذه الحياة يا جرما الجبان. يا جرما المنحوس. يا جرما الغبي!

وجدتني أصرخ بهذه الشتائم في اتجاه البحر. اقترب بعض البحارة مني متوجسين من أن ألقي بنفسي فيه، ولكني جلست بعد أرهقني الصراخ بحنجرة متعبة، ورحت أبكي بصمت، وتذكرت أمي. تمنيت لو أني احتفظت بثوبها الذي ماتت فيه لأشم رائحتها متى أظلمت في عيني الدنيا. شعرت بسخونة الدموع على خديّ، وشعرت بصوت أمي يخرج من ذاكرتي ويعمّ السماء بعمق وهي ترقيني من الحمى بصلوات المسلمين: قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق.

٣٨

أسابيع ستة قبل أن أصل إلى السلطان. مرض أحد الفرسان فجأة بعد وصولنا إلى مرسيليا بأيام واشتبهوا أنه الطاعون. تركوه في إحدى القرى وقرر قائدنا أن نرحل شرقاً بعيداً من الداء والريح التي تأتي به. ثم نتجه شمالاً بعد ذلك ثم غرباً مرة أخرى على شكل حدوة حصان إلى حيث يقيم السلطان في مكانٍ أسموه بورغينيف ولا أدري أقرية أم مدينة أم أي مكان ملعون. كوكبة الفرسان الذين تسلموني أقل وداً من زملائهم الذين ودعوني بحرارة عند الميناء. أعطاني أحدهم صليباً من الخشب قال إنه من جذع باركه البابا ونحتوا منه مئات الصلبان الصغيرة. أما هؤلاء فقد أركبوني حصاناً هرماً لا يمشي وحده. فظلّ مربوطاً في حصانٍ آخر طوال الطريق. هذا يعني أن أظل لأيام وأيام قيد خطوات من مؤخرة الحصان الذي يتقدمني. هذا مقرف.

دارت في مخيلتي عشرات الأحوال التي يمكن أن ألتقي بها السلطان. ماذا سأقول له وماذا سيقول لي. أينا أشدّ عتباً على الآخر يا ترى؟ هو الذي تركت خدمته دون إذنه وخلفته دون ترجمان وهو على سفر، أم أنا الذي أساء معاملتي عندما عذبني الفرسان في رودس فلم يدافع عني، والآن يخطفني من سرقوسة بحجة أني عبدٌ آبق. ربما لا ألومه على وصفي بالعبد الآبق فقد لا تكون فكرته، ولكنه أوصى

بخطفي فلا شك إذن أنه ينظر إليّ نظرة قريبة من هذه. أنا من حاشية السلطان التي لا يحق لأحد أن يدخل فيها إلا مدعواً أو يخرج منها إلا مطروداً.

حاولت أن أحثّ حصاني ليتقدم قليلاً حتى أحاذي أحد الفرسان وأسأله:

- هيه! ما أحوال السلطان؟

- أظنه بخير، ولماذا لا يكون بخير؟ إنه يعيش كالملوك. مم سيشتكي!

- لا تنس يا صاحبي أنه ملك بالفعل، ولم لا يعيش كالملوك؟

أخفض صوته وكأنه لا يريد من بقية الفرسان أن يسمعوه وقال وهو يزم شفتيه بامتعاض:

- إنه يكلفنا ثروة. لا أعرف ما حاجتنا إلى هذا الخنزير!

شعرت برغبة مفاجئة في الدفاع عن السلطان، وقد تملكتني هذه الرغبة بالفعل فتحدثت بها:

- إنه لا يكلفكم دوكة واحدة أيها الغافل. كل مصاريف السلطان تأتي كاملة من أخيه بايزيد، بل أكثر بكثير.

- وما أدراك أنت؟

- أنا ترجمان السلطان الذي كنت أترجم له في رودس. هل تعلم أني كنت ثالثهما في الاجتماعات السرية مع ديبوسون؟ أجل. لم يكن أحد يحق له حضور هذه الاجتماعات الخطيرة سواي. إني أعرف كل التفاصيل.

نظر إلى حصاني نظرة ذات مغزى وكأنه يريد أن يذكرني بمكانتي من خلال الحصان الذي أركبه. ثم صرف وجهه عني وحث حصانه على التقدم. فشددت لجام حصاني ليتأخر. فكرت بهذه المشاعر الحماسية التي دعتني إلى الدفاع عن السلطان الذي يخطفني الآن ويقودني إليه ضد رغبتي. لماذا فعلت هذا يا ترى؟ ولماذا شعرت بالارتياح عندما أخبرني أنه يعيش كالملوك؟ هل يسوؤني الأمر لو وجدته في حال سيئة؟

توقفنا عند ثكنة من ثكنات الفرسان تتوزع فيها مجموعة من الأكواخ الخشبية التي سرعان ما توزعنا فيها. لم يوصدوا عليّ حجرتي هذه المرة ولكن بابها على أي حال يفضي إلى حجرة أخرى ينام فيها فارسان، وشباكها معلق في السقف لا قدرة لي على بلوغه وإذا بلغته لا قدرة لي على النفاذ منه. هؤلاء الفرسان الأغبياء يعاملونني كأسير. لا يعلمون أني لا أرغب في الهرب. أنا مجرد ترجمان على خلاف مع رب عمله. أو ربما هذا ما أحاول أن أقنع نفسي به. إنني أتخيل أن السلطان غاضب مني، ولا شك أنه سيعبر عن غضبه بشكل ما. ربما يجلدني ساعة أو ساعتين ليجعل مني عبرة أمام حاشيته، ولكني على يقين أنه لم يتكبد كل هذا العناء لجلبي إلى فرنسا إلا وهو في حاجة لخدماتي. إنه لا يرغب في العمل مع ثلاثة تراجمة أو أربعة لكل لغة يحتاج إليها. أنا أكفيه كل هؤلاء وأتقاضى أجر واحد منهم. هذا إذا ما لم يحرمني أجري ويسخرني لأمره.

بدا أن الفارس الذي تبادلت معه الحديث نقل ما قلناه إلى رفاقه. فاستبدلوا جوادي الهرم بآخر من إسطبل الثكنة وأصبحت حراً في حركتي، وأصبحت أنال احتراماً أكبر. صحيح أنهم لا ينحنون ولا يبجلون، ولكنهم صاروا أكثر تبسماً في وجهي، ويبادلونني الأحاديث عن أشياء عابرة. بل إنهم استشاروني في إحدى الليلات في مكان التخييم. هكذا أصبحت الرحلة مريحة بعض الشيء بلا توجس، ووجدنا في كوخ الثكنة التالية رقعة شطرنج علاها الغبار وبيادقها مصفوفة إلى جوارها فأخذناها معنا، وحول النار، جلست مع قائدهم نلعب الشطرنج، وعندما سقط ملكي قال بسخرية:

- أوه! هاهو السلطان يسقط أخيراً!

نظرت إليه فإذا به يهرب ببصره وضحكاته بعيداً ويلملم البيادق المتناثرة وكأنه لم يكن متأكداً من قبولي لمزحته، ولكني في المقابل ضحكت مثله وقلت:

- لقد سقط منذ زمن طويل يا صديقي!

وطوال الليل حدثني عما جرى للسلطان في غيابي. بدا وكأنه صار حديث فرنسا كلها. في كل مكان يحلّ فيه يتهافت الناس لرؤيته وكأنه مخلوق عجيب، بعمامته الكبيرة، وملابسه المزركشة، وعينيه الزرقاوين، ووجهه الأوروبي الذي ورثه من أمه. هذا هو ابن السلطان محمد الذي كانت ترتعد منه فرائصهم كلما توغل في الأراضي الأوروبية. شعرت بالغبطة لذلك دون أن أدري لماذا، وقلت بحماسة:

- إذن فليجل في أوروبا كلها إذا انتهى الشتاء. سيكون ذلك ماتعاً جداً له.

- لا أظنه يهتم لذلك. إنه يريد العودة إلى بلاده.

- أعلم ذلك، ولكنه لا يستطيع حتى الآن.

- سيستطيع يوماً ما، ولكنه عليه أن يكون حذراً. ربما سيكون من واجبك إذا صرت معه أن تنصحه بالحذر. فليس كل من يعرض عليه المساعدة ينوي مساعدته فعلاً.

- من تقصد؟ ممن تريدني أن أحذره؟

تراجع القائد وهو جالس زحفاً على عجيزته حتى اقترب من شجرة وأسند ظهره عليها وقال:

- أي أحد! دوقات أوروبا الصغار الذين ربما يرغبون في بيعه لأخيه. أو التجار الجنويين الذين يزعمون أنهم قادرون على شراء جيوش من المرتزقة، وأخطرهم على الإطلاق ملك المجر. لن يتوقف عن محاولة خطفه يوماً.

- هل حاول خطفه بالفعل؟

- نعلم أنه يحاول. لقد قبضنا على رسول منه جاء متخفياً إلى السلطان ومعه رسائل.

- وماذا يريد منه ملك المجر؟

ضحك القائد من سذاجتي على ما يبدو وقال وهو يسوي فراشه بيده استعداداً للاضطجاع:

- هل شاركت في حربٍ من قبل يا سيد جرمانوس؟
- لا، ولكني كنت أعيش في حلب، وكانت...
- هل شاركت في حرب فعلية وخضتها مع الجيش؟
- لا.
- حسناً، في الحروب الكبيرة لا بد من رايات عالية وكبيرة كي يراها الجنود الذين في أقصى ميمنة الجيش وميسرته. أليس كذلك؟
- نعم، نعم. أعرف هذه الرايات. لقد رأيتها.
- ملك المجر يريد أن يرفع السلطان كراية، ثم يحارب به أخاه!
- كراية؟ يرفعه كراية؟ لم أفهم..

ضحك القائد وقال:

- يا سيد جرمانوس، هو لن يثقبه بالعصا ويرفعه. أنت مضحك جداً، ولكن يريد أن يجعله معه في جيشه حتى يتخاذل الترك في حربهم، وربما تعاطفوا معه، وربما انضموا إليه وانقلبوا على سلطانهم.
- أوه سيكون هذا رائعاً بحق.
- سيكون رائعاً إذا حدث، ولكنه لن يحدث. لن نسمح له بأن يحدث.
- ولم لا؟ السلطان جم صديق للأمة المسيحية. لقد ترجمت بنفسي وعوده للقائد ديبوسون في رودس إذا تولى عرش الترك. تجارة حرة بلا ضرائب. وآلاف المسيحيين سينتقلون للعيش إلى رودس. سيتوقف العداء. سيتوقف الغزو. سيتوقف التهديد.

اضطجع القائد على جنبه الأيمن وأغلق جفنيه إلى منتصفهما حتى لم أعد أدري أيراني في نور اللهب المتراقص أم لا. سكت قليلاً ثم تثاءب وقال:

- بالضبط يا صديقي المسيحي الطيب. لقد توقف العداء والتهديد مذ أصبح السلطان جم في حوزتنا. وتجارنا لا يدفعون أي ضريبة الآن. ومسيحيو المشرق يفدون إلى رودس مع كل سفينة.

ثم سكت هنيهة وكأنه يستجمع فكرة ما، ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال:

- ألا يبدو ذلك مضحكاً يا عزيزي جرما. السلطان الذي يعد.. وأخوه الذي يفي.

مكتبة
t.me/t_pdf

٣٩

وصلنا أخيراً إلى بورغينيف ودخلناها تحت سحابة سوداء بدأت قطراتها الأولى تبلل ثيابنا. اصطف القرويون على جانبي الطريق يحيّون الفرسان الذين أشهروا سيوفهم ورفعوها عالياً فالتهب الهتاف. كنت الوحيد الذي لا أتزيا بزيهم ولا أحمل سيفاً رغم أني في مقدمة القافلة الصغيرة فاتجهت إليّ الأنظار المستفسرة. تفرّست عشرات الأعين في ملامحي لعلها تفصح لهم عن بلادي. تناهى إلى سمعي بوضوح صوت طفل يحاول أن يُسمع أباه سؤالاً ملحّاً وهو يشد قميصه: «هل هو تركيّ آخر؟». انقبض صدري وشعرت أن قطرات المطر المتزايدة أشد صلابة من ماء وهي تطرق رأسي مثلما تفعل الأفكار التي بداخله.

أخرجت صليبي وتركته يتدلى من رقبتي بوضوح لعلي أكسب ود هذه القرية. تأملت وجوه الناس التي اتشحت بالاعتياد ولا تبدو كمن يرى أشياء جديدة كل يوم. إلى متى سأمكث في هذا المكان؟ تصاعد هذا السؤال في داخلي وأنا أتفحص كل ما حولي بعينٍ قلقة. إنها قرية صغيرة لا تشبه حلب ولا الماغوصة ولا سرقوسة ولا أي مكانٍ عشت فيه من قبل. تبدو مثل حي واحد من تلك المدن يحيط بها سور من الأشجار الكبيرة. لماذا جلبوه إلى هنا؟ هل هذا سجنه الجديد؟ هل هذا سجننا الجديد؟ كيف يبدو المكان في الشتاء؟ وماذا يأكلون؟ وكيف سيكون تعاملهم معنا الآن وقد تحول الضيف إلى أسير؟

عبرنا بوابة القلعة التي بدت لي لوهلة أكبر من القرية التي تضمها. مساحات فسيحة بين أبراج أسطوانية كبيرة ألمح في أعلاها رؤوساً صغيرة لحراس يراقبون دخولنا باهتمام. ترجلت من حصاني وشعرت أن رجليّ ترتجفان وقد لا تحملانني طويلاً. رحت ألتفت يمنة ويسرة وأنا أحاول اكتشاف المكان ومعرفة أبعاده وحدوده. ثم فجأة ارتطم بي جسد حيّ وهصرني بشدة وسمعت ضحكاً مبحوحاً مختلطاً بهتاف:

- جرما.. جرما. أين كنت أيها الشقيّ! يالك من ملعون. ملعون. سوف أقيد معصمك في معصمي هذه المرة ولن تذهب دوني.

تأملت وجه مراد بعد أن ابتعد عن جسدي، ورحت أضحك معه. دار حولي مقلداً رقصة اليونانيين حول بعضهم وابتسم بعض الفرسان وأشار بعضهم إلى صدغه علامة الجنون. لف ساعده حول ساعدي ومشى معي. قال ووجهه قريب جداً من وجهي:

- أتدري؟ لا أحد يعرف أنك قادم سواي أنا والسلطان، وهو نفسه لم يخبرني إلا وهو ثمل.

- هل هو غاضب مني؟

- غاضب؟ لا أعرف. نعم. أظنه غاضب بعض الشيء. ربما يأمر بجلدك، ولكن...

ثم أخفض صوته رغم أنه يتحدث بالتركية التي لا يعرفها الفرسان وقال:

- ولكنه يحتاج إليك. يحتاج إلينا. يحتاج إلى كل فرد من الحاشية طالما لم يبق منها الكثير.

- أين ذهبوا؟ هل هربوا أيضاً؟

- لا، لم يهربوا..

ثم عبس وجهه ونظر شزراً جهة الفرسان الذين يحيطون بنا وقال:

- لقد طردهم هؤلاء الملاعين. لقد أجبروا السلطان على التخلي عن نصف الحاشية تماماً. هل تعرف أنه لا أحد يكتب للسلطان الآن، ولا يعدّ ثيابه، ولا يذوق طعامه؟

- ولماذا؟ ما الذي حدث؟

استعاد مراد ضحكته وقال بين قهقهاته:

- ما الذي حدث؟ أرجو ألا تتعود على مثل هذا السؤال يا صديقي جرما. فقد صار بلا إجابة. لا أحد يعرف ماذا يحدث هنا، ولكن انظر. الحديقة جميلة؟ أليست كذلك؟ وهل تعلم أنهم أبقوا لنا الطباخ؟ على الأقل نأكل طعاماً تركياً كل يوم ونشرب نبيذاً فرنسياً. أنا لا أريد أن أعرف ما يحدث!

- ألا يهمك غير بطنك؟ كم تبقى من حاشية السلطان؟

- تسعة عشر.. أو عشرون. أنت الآن أكملتنا. اسمع. اطلب منهم غرفة في برج السلطان. يوجد غرفة حمام رائعة وبخار كثيف ومياه ساخنة. البرج الآخر كأنه حظيرة، والفرنسيون لا يدعونك تتكلم بعد منتصف الليل.

- لنر ماذا سيفعل بي السلطان أولاً. قد ينتهي بي الأمر في زنزانة.

- أي زنزانة؟ لا يوجد زنازين هنا. أنظر أين أنت؟ نحن في زنزانة كبيرة. أجمل زنزانة في الدنيا.

سألت أحد الفرسان عن مكان إقامتي فأشار بيده أن الأمر لا يعنيه. عندها جرّني مراد بيده ودخلنا البرج الأسطواني ورحنا نصعد الدرج طابقاً تلو آخر حتى انتهينا إلى أحدها، ووجدت نفسي في غرفة مراد. تكومت حاجياته في جهة واستقرّ سريره في الجهة الأخرى. حرك حاجياته من مكانها ليفسح تحتها مكاناً وهو يقول:

- لا تبدو الغرفة واسعة ولكنها ستكفينا معاً. أجل، ولماذا نريدها واسعة؟ لن نأتي إلى هنا إلا للنوم. هيا. أين ملابسك؟ هل نسيتها في الخارج. لا عليك. سأجلبها...

- أي ملابس يا مراد. لم أحمل معي سوى ما تراه الآن.

- يا شقيّ! أين ذهبت ملابسك التي أعطاك السلطان في رودس؟ أتعرف كم ستكلفك ملابس مثلها؟

- أنا هنا رغماً عني يا مراد. هل تظنهم أعطوني وقتاً لأجلب أي شيء؟ لقد خطفوني وحملوني إلى السفينة مثل كبش!

اتسعت عينا مراد وهو يحاول استيعاب ما قلت. ثم ضحك بصوت عال وصفق بيديه. ثم بدأت ضحكاته تخفت فيؤججها مرة أخرى بافتعال واضح. قلت:

- أيضحكك ذلك فعلاً يا مراد أم أنك تحاول التخفيف عني؟

توقف مراد عن الضحك وتنحنح ثم قال:

- بالتأكيد ليس مضحكاً. هذا فظيع.

أطرق قليلاً ثم عاد مرة أخرى ليهتف بصوت عال:

- لدي ملابس كثيرة. أجل. خذ ما شئت. ماذا سأفعل بكل هذه الملابس على أي حال.

- ألن يعطينا السلطان ملابس جديدة.

زم مراد شفتيه وهز رأسه وهو يقول بصوت أقرب إلى الغمغمة:

- لم يعد السلطان يعطينا أي شيء يا عزيزي.

نمت تلك الليلة وأنا أفكر في بانديكا. ماذا لو أني بقيت في حقلها وانتظرنا معاً حتى يموت أبوها ثم تزوجنا وأنجبنا وعشنا سعداء في ذلك الحقل الواسع؟ أو ماذا لو أني بقيت في الدير وتجاهلت سيمون وأبي. هل يجعلني ناظر الوقف قمّصاً على الدير وأقضي حياة وادعة بين الأصحاب لا أذى فيها ولا شر؟ ماذا لو أني لبثت في حلب واختبأت في أي مكان حتى تنتهي حروب التركمان وعشت في المكان الذي ألفته وحفظت وجوه أهليه؟ كل هذه الفرص كانت في متناول يدي فضيعتها بحماقتي. ولهذا أنا في قرية ملعونة وسط غابة فرنسية أحاول أن أنام بصعوبة، وأنتظر صباحاً قد يجلدني فيه سلطان تركيّ ألقاني طونيوس اللعين في طريقه.

كم تبدو لي حياتي أحياناً مثل أمي بشكل معكوس. هي المسلمة التي ألقتها الأقدار بين أيدي المسيحين وأنا المسيحي الذي ألقته الأقدار بين أيدي المسلمين. والسلطان الذي أنا معه ألقته الأقدار بين أيدي المسيحيين. ما الذي جرني إلى كل هذا أنا الذي كنت لا أعرف اسم نائب حلب ولا يهمني من يقطن تلك القلعة. فجأة صرت ترجمان

سلاطين وقادة لا يعنيهم من أمري سوى لساني. أذكر أني أقدمت على هذا كله من أجل كيس من الأقجات الفضية. أين هو الآن؟ أنا فقير معدم لا أملك حتى ثياباً سوى ما أرتديه الآن. وأعيش في قرية بعيدة يحرسها الفرسان حراسة مشددة. بكيت ورحت أصلي بهمس كما صلى الرب على الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني. بعدت عن خلاصي. كلمات صراخي. في النهار أدعو فلا تستجيب. وفي الليل لا روح لي. صار قلبي كالشمع ذائباً وسط أحشائي. زمرة الأشرار أحدقت بي. ثقبوا يديّ ورجليّ. إني أعد عظامي كلها وهم ينظرون ويتفرسون فيّ. يا قوتي أسرع إلى نصرتي».

٤٠

في صباح اليوم التالي، أيقظنا الآغا من النوم وقال لي دون أن يحييني وكأني لم أفارقه يوماً واحداً:

- السلطان يريد أن يراك.

- الآن؟

- لا، ليس الآن. ربما في السنة القادمة. الآن طبعاً أيها الأبله!

تذكرت يوم علقه الفارس الكتلاني بيديه في رودس وكاد يخنقه. لماذا يحدثني هذا الجبان بوقاحة؟ قمت من الأرض ومشيت نحوه مباشرة ووضعت يدي على كتفه وقلت:

- أنت تتحدث بوقاحة يا حضرة الآغا!

نفخ صدره ورسم على وجهه أشد ما تستطيعه ملامحه من صرامة وغضب وهو يقول:

- من تظن نفسك حتى نحدثك باحترام؟

وقف مراد وزرع جسده بيننا وهو يحاول فضّ النزاع المحتمل. تراجع الآغا وكأنه انتصر في حين بقيت أنا ملتصقاً بجسد مراد وفي داخلي غضب اختمر طويلاً فصرخت فيه:

- عندما تكون بلا خصيتين فينبغي لك أن تعامل الجميع باحترام أيها الحقير. حتى القطط والكلاب!

امتقع وجه الآغا وتراجع إلى الوراء ثم تقدم إلى الأمام قليلاً وبدا وكأنه قطٌ يستعد للانقضاض، ولكنه بدلاً من ذلك مدّ رقبته إلى الأمام وبصق. أصابت بصقته ظهر مراد الذي لم يبد مبالياً إلا باحتواء هذا الشجار. بصقت بدوري فأصابت البصقة ذراعه التي رفعها ليحمي وجهه. زمجر وقال:

- سوف يأمر السلطان بجلدك، وسأتولى ذلك بنفسي أيها الكلب الكافر.

لم أجد رداً فاكتفيت بمبادلته النظرات حتى غاب في آخر الممر. زفرت الهواء المحتشد في صدري ورحت أمسح جبيني بيدي. ألقى مراد عليّ ثوباً وهو يقول:

- قم. البس هذا وأسرع إلى السلطان قبل أن يجيّش الآغا صدره عليك!

- فليذهب إلى الجحيم هذا الملعون.

- تقصد الآغا..

- نعم الآغا.

- نعم. فليذهب الآغا إلى أي جحيم تريد، ولكن عليك أن تسرع. اغسل وجهك. هيا بنا.

فركتُ يديّ ببعضهما مرات وأنا أقف عند باب السلطان الذي تركني مراد عنده وغادر سريعاً. ابتسم الحارس وهو يلاحظ ارتباكي ثم صرف نظره بعيداً لئلا أشعر بالحرج. كنت قد فكرتُ في الأحداث

المحتملة لهذا اللقاء عشرات المرات في طريقي إليه بحراً وبراً، والآن سيتحقق أحد هذه الاحتمالات أخيراً. مشاعري عجيبة. خليطٌ بين الخوف والغضب ولا أدري أيهما سيقفز إلى وجهي قبل الآخر، وعندما تجاوزت الباب أخيراً غاب كلاهما وأصبح قلبي خالياً من أي شعور حتى أعي تماماً ماذا أرى.

الغرفة مستديرة. الرجل الذي يجلس في وسطها تحت النافذة تماماً هو السلطان جم ولا ريب، ولكن بحال لم أره عليها منذ عرفته. ليس بوسعي أن أرى فيه سمنةً وهو يرتدي ملابسه المنتفخة ولكن وجنتاه تفيضان حمرة وسمنة. طال شارباه من الجانبين نزولاً حتى ذقنه فبدا فمه صغيراً وملامحه مختلفة. ارتسمت تحت عينيه هالتان سوداوان وبدا خاتمه الضخم ضيقاً محشوراً في إصبعه السمينة يكاد يقفز من مكانه.

كان ينظر إلى شيء ما على الطاولة التي أمامه ولم ينتبه لدخولي. فجلت قليلاً ببصري في الغرفة لتقع عيناي، دون كل الأشياء التي يمكن أن تقع عليها في مكتب السلطان، على قردٍ أسود الشعر، كبير الرأس، يجلس القرفصاء في ركن الغرفة ويتناول بيده ما لا أراه، تأملته هنيهة قبل أن يحلقّ في فضاء الغرفة طائر أبيضٌ ذو منقار أكبر من وجهه، ويحطّ على طرف النافذة المغلقة، ويرفرف بجناحيه وهو في مكانه، ثم يدس منقاره في أحدهما ويشذب ريشه بحركات سريعة متوترة.

نقلت بصري مرة أخرى إلى القرد الذي يحك صدره ثم إلى الببغاء

الذي يراقب شيئاً ما خارج النافذة. ثم إلى السلطان الذي صار ينظر إليّ مباشرة بوجه كأنه قدّ من ثلج، وملامح لا يمكن اختراقها. سرت في جسدي رعشة طفيفة وشعرت أن إحدى نبضات قلبي آلمت صدري وكأني ابتلعت عظمة صغيرة، وأخيراً عجلت إلى السلطان ورفعت يده المستندة إلى الطاولة التي أمامه وقبلتها. ثم تركتها تفلت مني يدي فبدا لي وكأنها سقطت على الطاولة مرة أخرى دون أن يبذل أي جهد في حملها.

بالتركية قال لي، وبكلمات بطيئة متقطعة، وصوت خافت:

- جرمانوس! لقد مرّ زمنٌ طويل.

أطرقت دون أن أجيب وأنا أنتظر منه توبيخاً طويلاً، وساد الصمت للحظات قبل أن يقول السلطان:

- ألا تظن أنه من الأخلاق الدنيئة أن تنصرف دون أن تبلغني؟ تفاجئني بغيابك ونحن في سفر وفي هذه الظروف الصعبة؟

- أنا في أشد حالات الندم يا مولاي السلطان، وأرجو منك عفوك ومغفرتك. لقد غمرتني مشاعر الخوف بعد الذي فعله بي الفرسان في رودس، وشعرت أن سلامتي مهددة..

وقف السلطان دافعاً كرسيه إلى الخلف ليحتك في أرضية الغرفة مصدراً صريراً عالياً جفل منه الطائر فرفرف بجناحيه في مكانه دون أن يطير. دار السلطان حول الطاولة ورحت أنتظر صفعته التي سوف ترنُّ بها أذني وأنا أتمنى أن يكون هذا آخر ما يعاقبني به، ولكنه اتجه إلى

النافذة ونظر إلى ما وراءها في حين تحرك الطائر قليلاً إلى طرف النافذة وكأنه يفسح له مجال الرؤية، وبعد قليل، عاد مرة أخرى ليجلس على كرسيه ويقول لي:

- أريدك أن تعلم أن فعلتك هذه يعاقب عليها قانوننا العثماني بالقتل، ولو كنت فوق عرشي الآن لكنت أنت فوق خازوق.

- عفوك يا مولاي. لم أكن أقصد التقليل من شأنك ولكني كنت خائفاً بالفعل، وأنت تقدّر مشاعري ومخاوفي. أنا رجل فقير عشت فقيراً ولا أعرف الكثير من القوانين و...

- .. ولكن، رغم أني لست فوق عرشي بعد، فإني ما زلت أسيطر على حاشيتي. طال الزمان أم قصر كنت سأجدك وأعيدك إلى خدمتنا أيها الجاحد.

- ليس عندي عذر سوى جهلي وخوفي أيها السلطان..

- أنا أعرف. أنا أعرف، ولكنك تسببت في مشكلات كثيرة، وتركتني في سفينة دون ترجمان، ولولا نصوح باشا والقليل من الفرنسية التي يتحدثها لكان الأمر بغاية السوء..

كنت حتى هذه اللحظة مطرقاً لا أنظر في وجهه. أسمع ما يقول فحسب، وعندما نطق بالكلمة الأخيرة شعرت أنه وجب علي أن أرفع رأسي لأراه بعيني إذ لم أصدق أذنيّ. لقد نطق الكلمة الأخيرة بالانكسار الذي يسبق البكاء. هل تهدج صوته فعلاً أم أني فقدت عقلي؟ وعندما نظرت إلى وجهه رأيت حاجبيه مرتفعين وعينيه تغرقان في دموع قليلة.

ثم أولاني ظهره فوراً وتقدم خطوتين ومسح وجهه بكمه. لم أعرف ماذا أفعل. شعرت بالحيرة والحزن معاً. تقدمت خطوتين حتى صرت وراءه تماماً ورفعت يدي ورحت أربت على ظهره بلطف.

وعندما ربتُّ على كتفه، عندها فقط، التفت جهتي بسرعة، ودوّت الصفعة.

٤١

بعد تلك الصفعة أصبح كل شيء على ما يرام. تبخرت نقمتي على السلطان الذي اختطفني بعد أن ألفيته مختطفاً هو الآخر، وتبخرت نقمته عليّ بعد أن حفر خاتمه الفيروزي ندبة صغيرة في خدي. حتى الربيع دخل مبكراً وتناثرت حبيبات اللقاح الطائرة مثل سحبٍ صغيرة في القلعة والغابات المحيطة حيث يسمح لنا بالتجوال، وإذا تجاوزنا حدّ النهر شمالاً أو آخر شجرة من الغابة جنوباً يقرع الحراس دروعهم بمقابض سيوفهم لنعود أدراجنا قبل أن تنطلق الكلاب، ولم يكن منا من يتجاوزها سوى مراد إذا سكر أحياناً وضلّ طريق العودة إلى البرج. أما السلطان فيكتفي الحراس بملاحقته محدثين جلبة تكفي لنفور الطريدة ذات الأربع والطير ذي الجناحين. فيتميّز السلطان غيظاً ويعود أدراجه وقد علم أن لا صيد ممكناً في ما وراء الحدود.

نقلني السلطان إلى غرفة أخرى قريباً منه. لا أدري إن كان يجدر بي أن أسميها غرفة، ولكنها تقع في آخر الممر الذي فيه غرفة السلطان نفسها. ثمة درجٍ صغير بلغ من الصغر الغاية حتى أنه يبدو كحفرة في أرض الممر، ولكي أنزل منه يتعين عليّ أن أجلس على حافته وأدلي بقدميّ معاً ثم أهبط بجسدي ببطء وكأني أغمس نفسي في بركة ماء باردة، وبقليل من الزحزحة تنزلق عجيزتي وأتمكن من النفاذ بجسدي

لأصل إلى غرفتي ذات السقف المائل ميلاً حاداً. لأيامٍ شعرت أني لا يمكن أن أتآلف مع هذه الغرفة. كيف ينام المرء في مثلث؟ ولكن لم يكن بوسعي الاعتراض لأن البديل لهاربٍ جُلِبَ بالقوة هو الزنزانة التي أعطاها الفرسان للسلطان ليسجن فيها من يغضبه من خدمه بين وقت وآخر ويشعر بالرضا، والحقيقة أن هذه الزنزانة ليست سيئة جداً. فعلى أقل تقدير سقفها رفيع لا أرتطم به عند استيقاظي من النوم، وقد علمت مع مرور الأيام أن لها باباً آخر يفتحه الفرسان للسجين أحياناً بعد نوم السلطان ثم يعيدونه إليها ليتظاهر أنه كان سجيناً طوال المدة.

كنت أظن أن النوم في المثلث سيكون أسوأ ما يحدث لي وسوف تمرّ الأيام بعد ذلك بدعة وسلام، وبلّغت نفسي بيومٍ آتٍ يكون فيه السلطان في حالة من الرضا والسرور تمكنني من أن أطلب منه غرفة أوسع في البرج الآخر، ولكن الأمور سارت عكس ذلك تماماً. فبعد أسابيع قليلة وجدت نفسي أقضي الليل كله أحياناً، ليس في غرفتي المثلثة ولا حتى في الزنزانة، ولكن في مكان أضيق منهما وأخفض سقفاً. مكان ليس بوسعي أن أمد فيه رجلي بطولها ولا حتى ذراعي، ويتعين عليّ أن أحرك رأسي إلى اليسار قبل أن أرفعه. أو اليمين قبل أن أخفضه. سوى ذلك، يظل رأسي في مكانه مثل ثور أطبق المحراث على رقبته ولم يجد لها فكاكاً. هذا المكان لم يكن قبراً ولا قبواً ولا حتى برميل نبيذ فارغ. إنه، ويالصعوبة أن يصدقني من يسمع ذلك ولم يره، تحت كرسيّ السلطان!

ما الذي جرني إلى هذه الحال الفظيعة؟ ساعاتٌ طوال وأنا محشور في المساحة الضيقة تحت هذا الكرسيّ الذي يبدو فسيحاً من أعلاه ولكنه أضيق من جحر فأر في أدناه، ولم العجب! فلا أظن صانعه تخيل أن رجلاً سينتهي به الحال أسفل الكرسي وليس أعلاه، ولو أن سهماً يخترق صدغي الأيسر وينفذ عبر رأسي ليخترقه من صدغي الأيمن، واستمر في مضيه، لاخترق حشية الكرسي ومن بعدها عجيزة السلطان نفسه، وفي ضجعتي المائلة التي أقضي بها ساعات الليل الطويل يقترب أنفي من رجل السلطان حتى أن بوسعه أن يرفسني بكعب رجله في وجهي، ويا أيها الرب المجيد. ماذا تراني فعلت؟

كل هذا ليس بسببي. لم أفعل شيئاً طوال الأسابيع الماضية سوى التجوال في أنحاء المكان. التلصص مع مراد على مغتسل الخادمات. الشرب حتى الثمالة مع الفرسان. ألعب الشطرنج مع نفسي أحياناً إذا شعر الآخرون بالملل من طول اللعبة، ولكن السلطان يفعل أشياء أخرى. يخرج بحصانه إلى آخر حدٍ ممكن له أعلى الربوة المشرفة على نهر بعيد ويمكث هناك ساعاتٍ طوال. علمنا فيما بعد أنه لم يكن يقضي الوقت وحده بل مع جين الفرنسية ذات الشعر القصير التي تبدو عن بعد وكأنها فتى أمرد، وإذا تسابقت مع السلطان امتطت حصانها مثل الرجال وخلفته وراءها، وفي الليل، تتسلل إلى غرفته لتجد السلطان في عباءته الفضفاضة التي لا يرتدي تحتها شيئاً، وهي في غلالتها البيضاء التي تفوح برائحة الأعشاب العطرية، وأنا تحت الكرسيّ أترجم لهما!

في الأيام الأولى لهذه اللقاءات الليلية كنتُ أجلس خلفه على مقعد خشبي صغير. أترجم بينهما حتى ينقضي نصف الليل ويذهب الشراب بلبيهما. ثم يصرفني أو تصرفني هي أحياناً. وفي أيامٍ أخرى ينسيان وجودي ويلتحمان في غمرة السكر فأغادرهما بخفة وآوي إلى فراشي الضيق الجاف الذي يشبه شقاً في صخرة. وفي بعض الأيام، يستدعيني السلطان إذا استيقظ من نومه ليسألني عن كلامٍ يظنها قالته ولم يتذكره. يشرب أكثر من كل الأيام التي قضيتها معه. جرارٌ مليئة بالنبيذ تفرغ واحدة تلو أخرى. أحمل كل فارغة منها إلى طرف الغرفة واستبدلها بواحدة من تلك الملأى التي يصفها الخدم على الطاولة قبل مجيء جين. أما إذا جاءت، فلا يدخل عليهما أحدٌ سواي. حتى آغا الحريم. بل إن الآغا بالذات هو الذي لم يكن السلطان يريده أن يقترب من جين أو يراها أو يعرف شيئاً عن علاقته بها.

بدا ذلك كله سهلاً حتى قالت جين يوماً للسلطان أنها تتمنى أن تتحدث لغته أو يتحدث لغتها. سألها السلطان عن سبب تلك الأمنية فقالت وهي تشير إليّ بإصبعها دون أن تنظر جهتي «حتى نكون وحدنا أيها السلطان!»، وهكذا انتقلت من خلف كرسي السلطان إلى تحته تحقيقاً لأمنيتها. أندسّ هناك حيث لا تراني جين، وتتخيل أن الصوت الذي يترجم لها هو صوتٌ سماويّ من أثيرٍ بعيد لا يفسد خلوتها مع عاشقها المتيّم. تقول فأقول. يقول فأقول، ويستمر الأمر لساعات طوال وأنا أتألم من ضيق المكان. فإذا تحركت وأحدثت صوتاً يفسد عليها ما

هما فيه طوّح السلطان بقدمه إلى الخلف ليركل ما يكون بطريقها: رجل الكرسي، وجهي، كتفي، ترقوتي، أي شيء. فأتنبّه أني ارتكبت خطأً ما.

صرت أجلب معي قطعاً من القماش أحشوها في بعضها وأبطّن بها أرجل الكرسي وقاعدته ليكون المكان مريحاً. ثم جلبت وسادة. ثم فكرت أني لو اضطجعت بعكس الاتجاه بحيث يكون رأسي تحت كرسي السلطان حيث يخرج الكلام من فمي ورجلاي ممدودتان خلف الكرسي تحجبهما عن عيني جين أريكتان صغيرتان فسيكون الأمر مريحاً، ولكن ركلة السلطان ستصيب نقرة رأسي تماماً، وقد أغيب عن الوعي! من تراه يترجم للسلطان لواعج حبه لجين إذا غبت عن الوعي؟

لم تكن جين امرأة غريبة عن المكان. فأبوها هو الدوق جان لافيستي الذي يحكم المقاطعة بأكملها، ولكنه يقطن مكاناً لا يبلغه الماشي إلا بعد ساعة. يحلّ أحياناً ضيفاً على السلطان ويتناول معه العشاء ويتبادلان الهدايا ويكنّان لبعضهما احتراماً متبادلاً، ومن الكلام الذي قالته جين للسلطان عبر أذني ولساني أنها لطالما تاقت لرؤية السلطان من فرط ما حدثها أبوها عن تلك اللقاءات التي تجمعها به. وعند التل الذي اعتاد السلطان أن يتنزه قريباً منه ألقت بنفسها في طريقه، وخلبت لبه، وعندما خلبت لبه كسرت ظهري أنا. كم أتمنى لو فرّق بينهما أي شيء. ليته يسكر فيهوي على رأسها بقدحه النحاسي. أو ليتها تملّ من أشعاره التي ترهقني ترجمتها إلى الفرنسية حتى لا تعود تعني شيئاً. أو ليت أبوها يعلم أنها هنا كل ليلة وهو يظنها في حرم قصره البعيد.

مرت شهورٌ لم تغب فيها جين عن لقاء السلطان سوى ليلاتٍ قليلة، ورغم كل الساعات التي يقضيها معها وأترجم له، لم يتعلم الفرنسية لأتخلص من هذا العبء الثقيل. وباستثناء الكلمات الفرنسية القليلة التي يستقبلها بها، والتركية القليلة التي تدلله بها، فإن العبء يظل على كاهلي أن أترجم بينهما كل شيء. قصصاً أسطورية لأبطال قدامى، أو حروباً مجيدة، أو أحداثاً جساماً، أو حديثاً ماجناً عن لون حلمتيها وشعرات صدره وآثار العضات الزرقاء على جسديهما. جرما يترجم كل شيء. بين السلاطين. بين القادة. بين الزعماء، وأيضاً يترجم الكلمات التي تحثّ بها جين سلطانها ليكون أشدّ فحولة، ولا بد، من باب الإتقان، أن تكون نبرتي كنبرته، وصوتي كصوته. قدر المستطاع.

كم يبدو ذلك غريباً!

٤٢

قدّرنا على وجه التقريب موعد العيد الذي يذبح فيه المسلمون الأكباش، وتقدّم السلطان ذلك الصباح حاشيته القليلة نحو الساحة التي ينتظره فيها كبشٌ سمينٌ مربوط بشجرة ميتة. تناول السكين وذبحه. فأطلق الفرسان والجنود هتافاتٍ عالية فور انبثاق الدم من رقبة الكبش ليضحك السلطان، ويقول كلاماً بالتركية لنصوح باشا:

- ماذا يفعلون! إنه مجرد خروف. لماذا يهتفون وكأني قتلت ملك انجلترا؟

عبور اسم ملك انجلترا على لسان السلطان غير مستغرب. فهو من كناّ نسمع عنه طوال الأسابيع التي سبقت العيد وبقينا على هذه الحال حتى انتهت الحرب التي بين الإنجليز والفرنسيين، أو بين الفرنسيين والفرنسيين، أو بين النمساويين والإسبان والفرنسيين والإنجليز. لم نعد نعلم! لم نشعر أن حرباً ما تحيط بنا لأن الفرسان قرروا أن يظلوا على حيادهم الماكر كالعادة. أما نحن، حاشية السلطان، فكنا ننتظر أن نشد رحالنا في أي لحظة تقترب فيها الحرب. إلى أين؟ لا نعلم حتماً، وكيف لنا أن نعلم؟ ليس لنا إلا أن نستمر في تبادل أحاديث هذه الحروب حول نار الليل الدافئة مع الفرسان. فمن نحن سوى حاشية سلطان أسير بيد فرسان محايدين في دولة تخوض غمار الحرب مع كل جيرانها.

ولكن جين شمعة صغيرة في هذه العتمة الكبيرة من الجهل، وإذا أوت إلى مخدع السلطان كل ليلة تحكي ما تسمعه من أبيها عن أخبار الحرب. يصغي السلطان باهتمام كبيرٍ إلى ما تقول، وبدا لي أن شيئاً في قلبه قد استيقظ واشتمّ رائحة فرصة مقبلة في خضم هذه الفوضى التي تعمّ أوروبا، وكلما شرب كأساً أخرى ازداد هذا الشيء الذي استيقظ في قلبه طموحاً وضراوة. حتى جذب جين إلى صدره ذات مرة وهمس في أذنها بكلمات حاولت جاهداً أن أسمعها. فلما أتاه صمتي بدلاً من ترجمتي أعاد ما قاله لها بصوت أعلى:

- إنها مجرستان يا جين. الجسر الذي سينقلني إلى السلطنة.

ويأتيني وأنا تحت الكرسيّ صوت جين ممطوطاً وكأنها تموء ولا تتكلم:

- إلى السلطنة؟ وتتركني هنا وحيدة يا سلطاني الحبيب..

وينتشي السلطان وهو يجيبها بنبرة طفلٍ عاثت به الحماسة:

- أتركك يا جين؟ أتظنين أن أخلفك ورائي لفرنسيّ ملعون لا يعرف كيف يقطف ثماركِ اللذيذة؟ لا يا جين. ستكونين هناك في الأستانة. في قصر أبي الذي لن تري أجمل منه. ستكونين سلطانة ذلك القصر..

وتقاطعه جين بدلال:

- وحدي. أريد أن أكون السلطانة الوحيدة. أنا أعرف أنكم تحشون قصوركم بالنساء. لن ترى امرأة غيري حتى تموت..

– أنا بالفعل لم أعد أرى امرأة غيركِ يا جين. حتى إذا عبرن من أمامي يا حبيبتي لا أراهن. خيالات تمشي على قدمين وترتدي ثياباً. أنتِ آخر النساء يا حبيبتي..

– وإذا لم تصدق معي؟ من سيعيدني إلى فرنسا؟ هل تحبسني في إحدى حجرات القصر؟

– يعيدكِ إلى فرنسا؟ ستصبح فرنسا كلها لكِ يا سلطانتي..

– أوه لقد بدأت أحب هذا اللقب! سلطانة.. ولكن كيف ستجعل فرنسا كلها لي. فرنسا الكبيرة هذه.

يشرب السلطان ما تبقى من كأسه ويمد يده ليملأه من جديد، ويقول وقد أثقل السكر لسانه:

– أنتِ يا جين، لا أدري ماذا تفعلين هنا؟ جوهرة ثمينة في كومة من الحصى والتراب. كل هذه الأرض...

ويطوح بيده وهو يحاول أن يشير إلى اتساع الأرض، فينسكب شيء من الشراب قريباً من رأسي، ثم يكمل..

– كلها ستكون لي يوماً، أو لولدي، أو لحفيدي. هل ترين ماذا يفعل هؤلاء الحمقى؟ هل ترين كيف يعاملونني؟ أنا أعرف لماذا يعاملونني بهذه الطريقة. لأنهم جبناء. نعم جبناء. لو أن في أوروبا كلها ملكٌ شجاع لاقتسمت معه الدنيا، ولكنهم على بكرة أبيهم يكتفون بالأموال القليلة التي يبعثها إليهم بايزيد لكي أبقى في أوروبا. ألم يتساءلوا عن الذي حدا بأخي أن يدفع هذه الأموال؟ ألم يتساءلوا عما يخيفه إلى هذا الحد؟

تقترب جين من السلطان وتجلس في مستوى أخفض منه، وتضع رأسها على فخذه وتقول:

- إنه يخافك بالتأكيد يا سلطان..

- إنه يخاف الناس الذين يحبونني. الناس الذين قاتلوا معي أمامه. لم يكن ليهزمني لولا الجواسيس والخونة. هؤلاء الناس ينتظرونني يا جين. هناك في الأناضول، وعندما أعود إليهم سترين بايزيد يتسلق الخازوق بنفسه ليجلس عليه.

وتضحك جين وأنا أترجم لها الكلمات، ويستطرد السلطان:

- ولكن هؤلاء الجبناء.. ملوك أوروبا الحمقى، ينخرطون في حروب تافهة من أجل مدنٍ صغيرة، ويتجاهلون هذا الشرق الواسع الذي يدين لي بالولاء. ولأنهم حمقى فلا يمكنني أن أتعامل معهم. لا يمكنني أن أثق بهم. إنهم يا جين كما يقول القرآن لهم عيون ولا يرون، ولهم آذان ولا يسمعون.

- القرآن؟ ما القرآن؟

- إنه كتاب المسلمين يا جين.

- من المسلمون؟

- المسلمون؟ يالك من لعوب يا جين. المسلمون هم نحن. أنا مسلم.

- أوه حقاً. ألستم تركاً؟

- نحن ترك بالتأكيد يا جين. الإسلام هو ديننا.

- أوه. تعني مثلما أن ديني هو المسيحية.
- أجل.
- وكتابكم يقول لهم آذان لا يسمعون بها. هذا يشبه الإنجيل. هل تعلم هذا؟

بدا لي الحال غريباً. سلطان ثمل تعتليه عشيقة فرنسية ويتحدثان عن القرآن والإنجيل، وجرما يترجم تحت الكرسي. توقعت أن يصرفها السلطان عن هذا كله ويعود للحديث عن أحلامه، ولكنه بدا وكأنه سعيد باهتمامها بدينه وهو يقول:

- سوف أخصص لك من يعلمك الإسلام ويقرأ عليك القرآن يا جين. سوف تجدين فيه أشياء كثيرة تشبه دينكم ولكنها أكثر إقناعاً.
- أوه! هل تعني أنه يجب أن أعتنق دينك حتى أصبح سلطانة؟

تلعثم السلطان وشرب من كأسه في محاولة لكسب الوقت والتفكير على ما يبدو. ثم أجاب:

- ربما يا جين. ربما.. سوف نجد متسعاً من الوقت لنفكر في هذه الأمور. المهم الآن أن يأتي المجريون وتبدأ رحلة العودة نحو الأستانة.
- هل تحاربنا؟ هل تحارب أهلي وقومي؟
- لقد قلت لهم أن يعيدوني إلى أرضي وأعيد لهم كل ما أخذه بايزيد وأبي منهم. الآن، أتدرين ماذا يستحقون؟ يستحقون أن أنتزع منهم ممالكهم التافهة الصغيرة حتى يرتاحوا من الحروب، ويرعوا البهائم. هذا ما هم جديرون به!

وتحجم جين عن الكلام، وقد بدا لها أن انفعال السلطان حاد به عن مسار الليلة. فجالت يدها في جسده محاولةً تهدئته وهي تئن أنات الرغبة، وبدا أن السلطان قد استجاب لها بعض الشيء. فانخفض صوته العالي وقال بصوت خفيض:

- إلا ملكٌ واحد. ملك مجرستان. إنه الوحيد الذي يمكنني أن أثق به، ولكنهم يعلمون ذلك، ولذلك يمنعونني من التواصل معه، ولكنهم لا يعلمون يا جين أني أذكى منهم جميعاً.. قريباً يا جين. قريباً جداً سنكون معاً في مجرستان. سيصحو هؤلاء الأوغاد جميعاً ليجدوا أن المجريين يحيطون بهم من كل جانب.

- قريباً يا سلطاني الجميل. قريباً..

- قريباً يا جين..

ثم صفقت جين بيدها لأخرج من تحت الكرسي وأغادر الغرفة.

٤٣

بعد شهر من خروجي من تحت الكرسي عائداً إلى حفرتي، وبعد تسعة وعشرين يوماً من خروج جين من غرفة السلطان عائدةً إلى بيت أبيها، وجد السلطان نفسه في قلب جيشٍ فعلاً، ولكنه ليس من المجريين. بل جيشٍ صغير من فرسان الهيكل في كامل عدتهم وعتادهم يتحركون في ضجيج هائل مخلفين وراءهم برج بورغينيف مشيحاً بوجهه الحجريّ وكأنه لا يريد أن يتدخل، ولم تكن الوجوه البشرية من حولنا أقل تحجراً منه. بدا لي أن الفرسان هذه المرة حشدوا جيشاً من الحجارة المتحركة يجرفها سيل بطيء باتجاه الشرق. لا إجابات لأي سؤال. لا إشارات على أي طريق. لا لمحات حول أي نيّة.

والسلطان. آه يالحال السلطان! حولوا عربته الوثيرة التي من أريكتين متقابلتين إلى سرير واسع يتكوّم فوقه وحده. بشق الأنفس يتقلب من ركن إلى ركن، أو يطرق بابها ليجيبه الخادم، أو يعتدل ليتناول طعامه، وإذا جلبوني إليه من آخر القافلة ليسألوه عما يقلقهم من شأنه وافاهم صمته الذي لا يحتاج إلى ترجمة، وحزنه الذي لا يحتاج إلى تفسير. حمل الفرسان معهم في عربة فارهة وثيرة نصف السلطان الذي جاءوا به من رودس إلى فرنسا، والآن يحملون ما تبقى منه إلى حيث لا نعلم، ولكنه بالتأكيد ليس إلى جهة يريدها.

لم يخرج عقلي المرهق بهذه النتيجة بل قالها السلطان فعلاً في رسالته إلى أخيه بايزيد، رداً على تلك التي وصلت إليه من الأخير وطلب مني الفرسان ترجمتها لهم. ويالغرابة الأيام! قرأت رسالة السلطان بايزيد لأخيه قبل أن يقرأها هو نفسه. بل قبل أن يعرف أنها وصلت! فوجئت أن الرسالة لم تكن إلا رداً على تلك التي أرسلها جم له في سهمٍ من السفينة التي غادرت الميناء باتجاه رودس.

إنني أعترض على كل ما جاء في رسالتكم التي أبلغني الوزراء بفحواها من معاني العداوة والكراهية، واتهامكم لنا بالقسوة وتجاهل روابط الأخوة والدم التي تربطنا، وما كان لنا أن نقابل جهودكم لتقسيم السلطنة إلا بمثل هذا. فإن السلطنة التي وحدها الله لا يفرقها البشر أياً كانوا.

أوقفني الفارس عن القراءة عندما وقفت عند هذا المقطع ثم أمرني بنسخه كما هو على ورقة جديدة. ففعلت. ثم استأنفت القراءة لمقطع آخر من الرسالة أمرني الفارس ألا أنسخه، ولم يكتف بالأمر فقط. بل فوجئت بيده الخشنة تقبض على رقبتي وتضغط على أوداجي بقوة وهو يقول:

- ولن يعلم السلطان عن فحوى هذا المقطع. أليس كذلك؟
- نعم، بالتأكيد. لن يعلم إلا بما أنسخه هنا.
- ماذا لو علم؟ لنقل أنه علم بالأمر في رؤيا زارته في المنام؟
- لا، لا. لن يعلم. لا رؤيا ولا حقيقة. أؤكد لكم ذلك.

أرخى قبضته حول رقبتي وابتسم وهو يقول:

- تعلم أن جنودي سيكونون في غاية السعادة إذا نقص عدد أتباع السلطان واحداً!

- لن يكون أنا. من يترجم لكم إذا كان أنا؟

- صحيح. سأفتقدك كثيراً.

تجاهلت المقطع الثاني الذي لم يريدوا لي أن أنسخه، وفيه عرض بايزيد على جم أن يذهب إلى مكة ويعيش فيها مقابل ألف ألف أقجة كل عام، بشرط أن:

.. لا تتعاون مع المبتزين الأوربيين الذين يسعون لاتخاذك مطية لأطماعهم في السلطنة. فإنك إن فعلت فستتحمل عواقب ذلك، وسيكون ردنا عليك بالحزم الذي يتطلبه الحفاظ على السلطنة التي قامت على دماء أجدادنا وآبائنا..

وبين يدي السلطان كنت أقرأ ذلك وأحاول أن أستشف من ملامحه ما يدور بخلده. ظل وجهه جامداً وكأنه أصم لا يسمع كلمة مما أقول. عجيب أمر هذا السلطان! يبكي لأن جرمانوس هرب، ولا يبكي وبايزيد يهدده، وعندما انتهيت طويت الورقة. فرفع بصره إليّ وقال:

- هكذا فقط؟

- بقي إشارة أخيرة ليست من بايزيد يا مولاي.

- ممن؟

- الصدر الأعظم..

- اقرأ..

فتحت الرسالة مرة أخرى وقرأت بصوت خفيض:

ببالغ الأسى والحزن، ننعي إلى الأمير جم، الأمير الصغير أوغوزخان بن جم، الذي مات ميتة طبيعية في فراشه، وقد أمر جلالة السلطان بايزيد بدفنه في مقابر السلاطين بجوار جده العظيم.

وهكذا فقد السلطان تماسكه. سقط مريضاً منذ تلك الليلة ولم يفق إلا في العربة التي تحمله إلى حيث لا يعلم، وحيث لم يسأل، وكذلك لم نسأل.

يمسي الرحيل أطول إذا كانت الوجهة غامضة. قطعنا أياماً لا نعرف فيها شيئاً سوى أننا نتجه شرقاً، ولو أنه بوسعهم حجب الشمس حتى لا نعرف اتجاهنا لفعلوا. عبثاً حاولت أن أستنطقهم، ولكن أحداً منهم لم ينطق بحرف. لاسيما أن أولئك الذين عاشرناهم من الفرسان في بورغينيف لم يبرح أحدٌ منهم مكانه. الذين يقودوننا إلى حيث لا نعلم لم تسقط أعيننا على وجه أحد منهم من قبل. لا يعرفوننا ولا نعرفهم. إنهم كتيبة جديدة تماماً. جاءت لتنفيذ مهمة محددة لا نعرفها حتى الآن.

أخيراً بلغنا ضفة نهر واسع على ضفافه ثلاث سفن بحرية. وخلال نصف نهار انحشر نصف الجيش الذي على البر في السفن التي في النهر، وظل النصف الآخر يحاذينا براً. فيغيب أحياناً ويظهر أحياناً أخرى، واتجهنا هذه المرة جنوباً، وبدا الأمر أننا سنعود إلى مرسيليا، وهناك، في جنوب فرنسا سنكون أبعد شيء عن المجر. لا بد أن هذه

هي خطة الفرسان. أو أن هذا أقصى ما بوسع عقل جرما الترجمان أن يستنتج بعد رحلة طويلة لا يكلمه فيها أحد إلا عن الطقس والطيور وحكايات الحرب. ولكن كيف عرفوا عن المجر وملكها الذي يؤمّل عليه سلطاننا النجاة من الأسر. لا يعرف بشأنه سوى السلطان وأنا و..!

قفزت واقفاً في مكاني وكأنما نكزتني ذبابة سيف في خاصرتي، ورحت أضرب بقبضتي اليمني راحة يدي اليسرى في مزيج من الجذل والحنق لا يجتمعان إلا إذا انكشف السرّ متأخراً. لقد أخبرت جين أباها حتماً، وأبوها أخبر الفرسان، والفرسان ينقلونه بعيداً من المجر، والسلطان يموت من الحسرة بعد أن تبخّر حلمه الأخير بالنجاة من الأسر واستعادة السلطنة. الملعونة التي كانت تنام في أحضانه كل ليلة لم تمسك لسانها. يالك من مغفل يا جرما عندما غاب ذلك عن فهمك. لقد كان السلطان سكرانا وأنت صاح. ألم تنتبه إلى أن هذه الأسرار الكبيرة لا تقال للنساء وكان عليك ألا تترجمها؟

ركلت أمامي كيساً من الرمل يثبت الشراع في سطح السفينة، ورحت أنظر في عيون الفرسان من حولي بتحدٍّ واحتقار. بادلوني بنظرات بعضها يستغرب غضبي الصامت، وبعضها يتعاطف معي وكأنه يظنني على وشك الجنون، وبعضها الآخر يخترقني وكأني غير موجود. خلفتهم ورائي جميعاً واتجهت إلى قمرة السلطان مباشرة لأخبره بما استنتجته للتوّ، وأمام الآغا صحت بصوت عال:

- أريد أن أرى السلطان الآن! لا تقل كلمة واحدة. الأمر جلل!

نظر إليّ الآغا بعينيه الكسولتين وقد تهدّل جفناه أكثر حتى صارا مثل خُفّي طفل، ودخل إلى قمرة السلطان وعاد بعد قليل تاركاً الباب موارباً لأدخل. دخلتُ على السلطان فوجدته مضطجعاً وقد رفع إحدى قدميه لتتكئ على حافة القمرة في حين تدلت الأخرى دون أن تمسّ الأرض. يحاول بأصبع قدمه أن يمسّ جناح الببغاء والأخير يميل بجناحه بعيداً، وينظر جهتي بعينين بدتا أكثر جحوظاً منذ بدأنا رحلتنا هذه.

- مولاي السلطان. أظنني أعلم سر هذا الرحيل المفاجئ.

لم يتحرك السلطان من مكانه، ولا حرك رقبته ليلتفت جهتي. استمرت إصبعه في ملاحقة جناح الببغاء واستمر الببغاء في الابتعاد قيد أنملة كل مرة. أكملت حديثي:

- إنهم يعلمون بشأن خطة المجر، والذي أخبرهم يا مولاي هي جين. لا أحد سواها. النساء يثرثرن في كل مكان. ولا بد أنها تحدثت عن ذلك أمام أبيها.

افتر ثغر السلطان عن ضحكة هازئة خرجت كسعلةٍ طفيفة وقال:

- أبوها! أبوها من؟

- أبوها الدوق.

- تعني جان لافيستي؟

- نعم. جان لافيستي.

ضحك السلطان ضحكة بطيئة جداً وكسولة، وبدا أن بين قهقهة وأخرى هنيهة من الزمن الصامت. ثم قال:

- جان لافيستي يا جرما ليس له أبناء ولا بنات.
- ولكن.. جين..
- .. أجل يا جرما عنده خادمة جميلة اسمها.. جين.

طأطأت رأسي وجالت عيناي في الأرض. كنت أشعر بالعار رغم أني لم أفعل شيئاً. فترى أي عارٍ يسكن قلب السلطان الآن؟ هممت أن أسأله متى أدرك هذه الحقيقة ولكني تراجعت، وأي جدوى من سؤالي سوى تذكيره بحماقةٍ أخرى من حماقاته التي أودت بحياته كلها. تراجعت ببطء وأنا أنحني برأسي حتى لمست الباب بظهري فخرجت منه، ورحت أفكر في هذا السلطان المسكين الذي يتردى من حال سيئة إلى حال أسوأ. ما هذا النحس الذي يلازمه؟ أيعقل أن يكون حظه سيئاً إلى هذا الحد؟ كل ما يخطط له ينقلب ضده، وكل ما يسعى إليه يهرب منه.

وأنا آوي إلى فراشي ليلاً ركنت إلى فكرة أن السلطان غبي. نعم، هذا السلطان ضحية غبائه منذ البداية. الغباء الذي جعله يغترّ بولاء بعض قبائل الأناضول ليطالب بالسلطنة، والغباء والذي جعله يفرّ من أخيه إلى خصوم السلطنة في مصر، والغباء الذي جعله يسلم نفساً طوعاً إلى الفرسان، والغباء الذي جعله يهذي بخطة هروبه إلى المجر لجاسوسة دسّوها في فراشه. لقد خلقه الله غبياً وهو يتصرف كما خلقه الله. فلا داعي لأن أشعر أنا بكل هذا الحنق والضيق نيابة عنه. فلتنم أنت يا جرما! كأنك في حال جيدة حتى ترثى للسلطان بدلاً من أن ترثى

لنفسك. نم يا جرما! أنت غبي أيضاً. أنت لست أقل غباءً من السلطان. لقد باعك أبوك لمزارع إيطاليّ وسعيت إليه بقدميك سعياً كالبغال. ثم باعك مرة أخرى لسلطانٍ خاض بك البحار وقطع بك البلاد، وأنت الآن في قبو سفينة تنام ولا تدري أين ستصحو.

٤٤

استيقظت صباحاً وما زال في فمي مرارة أفكار الليلة الماضية. مشيت نحو المطبخ وتناولت قطعة الخبز والجزر والدراق المجفف وصعدت إلى سطح السفينة أبحث عن مكان هادئ أتناول فيه إفطاري بلا إزعاج، ولكن الإزعاج جاء وحده على هيئة مراد الذي لمحني وقصدني كالعادة، وقال لي كلاماً غريباً فعلاً. كلامٌ لم يكن ليتأتى لمراد مثله لولا ذلك الصندوق الثقيل الذي ظل يجره وراءه منذ خرجنا من بورغينيف وطوال سيرنا حتى تبرع له الفرسان بحمله في إحدى عرباتهم التي تجرها البغال قبل أن نبحر، وظل وزن الصندوق يتناقص تدريجياً كلما استخرجوا منه إحدى قوارير النبيذ المقطر الثقيل وقضوا ليلتهم يرتشفون منها رشفات صغيرة. أعني مراد وبعض الفرسان الذين استمالهم ليسهروا معه. لم أستطب طعم هذا الشراب الكريه الذي بدا أمرّ ما ذقت في حياتي ولكن تأثيره فادحٌ بالفعل. هذا ما أتاح لمراد أن يعرف من أحد الفرسان الثملين تلك الأخبار التي تضحك وتبكي.

- أتعلم لماذا تركنا بورغينيف يا جرما؟

- الجميع يعلم لماذا يا مراد. خشية ملك المجر.

- لا، أنت لا تعلم. أنت لا تعلم شيئاً يا جرما.

- هيا إذن تكلم حتى أعلم ما تعلم!

- إنه قايتباي.

- ما به؟

- هو الذي يحاول الفرسان إبعادنا عنه.

- قايتباي يا عزيزي مراد في مصر، ومصر يا عزيزي مراد يفصلنا عنها البحر، والبحر يا عزيزي مراد يحتاج إلى سفينة..

- أوه. أنت تسخر مني يا جرما لأني ثمل. هذا صحيح. أنا ثمل ومشوش الذهن، ولكني لم أكن أشرب وحدي.

- في الغالب أن من تسكر معهم في آخر السفينة لا يعرفون وجهتنا أيضاً.

- ربما، ولكني لم أسألهم أين نذهب، بل لماذا.

- وقالوا إننا نرحل لنبتعد عن طريق قايتباي الذي في مصر التي خلف البحر؟

دار مراد من حولي حتى صار في مواجهتي ثم نظر في وجهي مباشرة وقال:

- أنا أعرف مصر أكثر منك! لقد كنت فيها بمعية السلطان قبل أن يرى وجهك هذا. قايتباي لن يعبر البحر ليحرر السلطان من قبضتهم، ولكنه يعمل مع شركاء أقوياء جداً هنا.

- مثل من؟

بدا جذلاً لما جذب اهتمامي وقطع سخريتي وقال لي كل ما يعرف، وهذه المرة استطعت أن أثير غضب السلطان. أعني أن أثير

غضبه تجاه نفسه وليس تجاهي، وشعرتُ بالرضا الغامر لما رأيته يتميز غيظاً ويركل المسند الخشبي الذي يسند عليه رجليه ركلاً هائلاً حتى تكسّر واستحال قطعاً متناثرة من الخشب منعها من التناثر ذلك الغطاء المخمليّ الذي يعلوه، ثم اتجه نحو الكوة الصغيرة التي لا تكاد تتسع لوجهه إذ حشره فيه وصرخ:

- زرافة! زرافة أيها الأوغاد. أيها الزناة الملاعين. أيها الكلاب النجسة!

ثم التقط عمامته المرمية في طرف السرير ولبس وشاحه على عجل مقلوباً أول الأمر قبل أن يصلحه خادمه له، وخرج من الباب ثائراً وهو يصيح بي:

- تعال معي!

وفور أن لفحت الريح الباردة وجهه في هذا الوقت الذي يسبق الغروب هدأت ثورته وإن ظلت قدماه تطرقان أرض السفينة طرقاً هادراً. اعتدلت مشيته وصارت تشبه مشية الجنود الذين يزمعون أمراً تفهمه أقدامهم أكثر من رؤوسهم. اتجه نحو قمرة قيادة السفينة. وقف أمام بابها الموصد وأشار إليّ بيده لأطرقه. فتح قائد الرحلة الذي ما كلمناه ولا كلمنا سوى في يوم الرحيل من بورغينيف بابه. فاجأه السلطان فتناول قبعته المعلقة على الجدار وارتداها على عجل وقال:

- أيها السلطان. هل هناك ما يزعجك؟

حدق السلطان إلى عينه مباشرة وقال بالتركية وهو يشدّ على

حروفها وكأنه يريدها أن تخترق أذني قائد الفرسان، وترجمتها من بعده:

- نعم أيها القائد انطوان. يزعجني أن تناديني بلقبٍ لا تفهمه.

زمّ القائد جفنه قليلاً لينظر إلى السلطان من شق ضيق بين جفنيه، وقال:

- ماذا تعني أيها السلطان؟

- أعني أنك تنطقها هكذا (السلطان). كلكم. السلطان السلطان السلطان. السلطان وأنا جالس. السلطان وأنا واقف. السلطان قبل الأكل. السلطان بعد الحمام، ولكنكم جميعاً أيها البلهاء، واسمح لي أن أقول لك إني أفهم معنى البلهاء. كلكم لا تفهمون ماذا تعني كلمة السلطان.

تغيرت ملامح القائد من الاندهاش إلى الانزعاج وأنا أترجم له كلام السلطان بصوت مرتفع يشبه صوت السلطان، رغم مخالفة ذلك لعادتي في ترجمة كلامه، ولكن قلبي يخفق بحماسة، وأكاد ألوح بيدي كالمنتصرين في معركة.

- لا، أيها السلطان نحن نعرف جيداً ماذا تعني هذه الكلمة. إن كان الأكل سيئاً أو النبيذ قليلاً فهذا لا يستحق أن تغضب إلى هذا الحد. أنت تعلم أننا في سفر و...

- هذا صحيح! النبيذ سيئ وطعامي أسوأ منه. ليس اليوم فقط بل منذ وطئت قدمي أرضكم المتعوسة هذه، ولكني لم أعترض على ذلك. أتعرف لماذا؟ لأني أملك عقلاً تحت هذه العمامة، وأعرف أنكم

مهما اجتهدتم فلن تستطيعوا أن تصنعوا طعاماً يليق بي، ولا أن تعصروا نبيذاً يستحق أن أشربه. أيها القائد. أنت رجلٌ أبله، ورجالك أيضاً جميعهم بلهاء. لأنكم لم تدركوا معنى أن يكون في ضيافتكم سلطانٌ مثلي، وفكرتكم أن تقايضوه يوماً ما...

وسكت السلطان، واختنق بكلماته الأخيرة حتى خرجت من حلقه كصفيرٍ متقطع، والتفت نحوي وكأنه يطلب مني أن أترجم بناءً على ما أعرفه لا ما قاله. فقلت:

- إن مولاي السلطان يعرف أن قيادة الفرسان تفاوضت مع المصريين على مقايضة السلطان مقابل زرافة.

صُدم القائد بما قلت، وبدت على وجهه ملامح التردد وكأنه لا يدري أينكر ذلك أم يعتذر عنه. أطرق قليلاً وطوى شفته السفلى بين إبهامه وسبابته وهو يقول كلاماً متقطعاً:

- لا، لا طبعاً. هذا لا يليق. بالتأكيد أن ثمة خطأ...

- لا أيها القائد. لم يكن خطأكم بل خطئي أنا. لقد صبرت طويلاً على سوء المعاملة لأن الصبر من عباداتنا نحن المسلمون، ولكن أن تبلغ المهانة هذا الحد فإني أحذركم. سأترك هذه السفينة فور رسوها وأغادر إلى بلادي. إني أرفض ضيافتكم وأشعر بالأسف على مجيئي إليكم.

والتفت السلطان مخلفاً وراءه القائد وابتعد. فأوليت الأخير ظهري لألحق بالسلطان ولكن يده نزلت على كتفي بقوة وجذبتني إلى الخلف حتى كدت أقع. استمر السلطان في مشيه مبتعداً عنا باتجاه غرفته في

حين ثبتتني يد القائد في مكاني. مرت بذهني سريعاً ذكريات التعذيب الذي تعرضت له في رودس وسرت برودة الرعب في أطرافي. التفت لأجد القائد ينظر إليّ نظرات تكاد تخترق وجهي وقال:

- كيف عرف السلطان بأمر الزرافة؟

- أحد جنودكم تحدث عن الأمر.

- هل تعرف من؟

- لا، لقد انتقل من فم إلى فم حتى بلغ مسمع السلطان.

- وما الذي بلغ مسمع السلطان؟ قل لي كل شيء وإلا ضربتك حتى تلفظ أنفاسك تحت قدمي.

- لقد بلغ مسمعه أن سلطان مصر بعث هدية إلى قائد الفرسان زرافة مقابل السلطان، وأن عائلة ميديتشي تتوسط هذا الأمر.

- حقاً؟ أهذا كل ما يعرفه؟

- أجل. هذا كل ما يعرفه.

أفلت القائد كتفي فمشيت مشياً سريعاً مبتعداً عنه مثل فأر أفلت من براثن هر. لحقت بالسلطان وأنا أشعر أن كل الحماسة التي ملأت عروقي قبل قليل قد تبخرت واستحالت دخاناً كثيفاً من الخوف. إن السلطان يهدد بالعصيان فور رسو السفينة، ويتظاهر أنه ليس أسيراً، ولا شك أن هذا سيغير الكثير مما يجري فوق هذه السفينة. ربما للأفضل. ربما للأسوأ. ماذا فعلت يا جرما؟ كيف أشعلت النار في سفينةٍ أنت فيها؟

عدت إلى غرفتي ونمت دون أن آكل شيئاً. البرد شديد، أو أن جسدي قد فرّت منه الدماء الدافئة. إذا أعلن السلطان عصيانه فعلاً فلا بد أن ذلك سيضطر الفرسان إلى القسوة، وإذا قسوا على السلطان فلن يكون حال حاشيته أفضل، والأحوال كلها في حضيضٍ الآن فكيف يمكن أن تصبح أسوأ من ذلك.

استيقظت صباح اليوم التالي على أصوات البحارة وهي تتصاعد بكلمات لا أفهمها. صعدت إلى سطح السفينة لأجد أنها قد رست على اليابسة، وراح عدد من الفرسان والخدم ينتقلون فوق الألواح الخشبية التي نصبت كجسور من السفينة إلى اليابسة. يتفرق الخدم ويصطف الفرسان في صفوف منتظمة وقد ارتدوا أوشحتهم البيضاء ذات الصليب الأحمر وخوذاتهم الطويلة المعقوفة من الأسفل، وقفت أتأمل اصطفافهم وأنا أصارع ألف فكرة صعبة في ذهني الذي لم يستيقظ بعد ليلة مؤرقة. هل وصلنا؟ أين نحن؟ وماذا يفعلون؟

بعد قليل، صاح قائد الفرسان بكلمة لا معنى لها، ورد أحد جنوده صيحته بأخرى لا معنى لها أيضاً. ثم مشى القائد متمنطقاً سيفه حتى بلغ قمرة السلطان وطرق بابها ليفتحه خادم السلطان الذي بدا وكأنه ينتظر هذه الطرقات. فتح الباب على اتساعه وخرج السلطان منه وهو يرتدي عمامة المناسبات التي تفوق حجم رأسه أربع مرات، وضم وشاحه الذي تطايرت أطرافه السفلى مع الهواء ومشى بهدوء إلى جوار القائد مترجلاً من السفينة إلى اليابسة.

ولوهلة خطر لي خاطرٌ فظيع شعرت معه بانقباض شديد في معدتي وارتجفت أطرافي بشدة. أتراهم قرروا قتل السلطان؟ أنظر إليه وهو يمشي هادئاً مثل رجلٍ لم يعد يبالي بمصيره، وأنظر إليهم وهم يصطفون وكأنهم يوشكون على قتل رجلٍ عظيم، وأتخيل لو أن الأمر غير ذلك لاستدعوني لأترجم، ولكن يبدو أن الأمر لم يعد يحتاج إلى ترجمة. جلست على ركبتي، وأخفيت يدي بوجهي، وطأطأت قليلاً حتى اقترب فمي من سطح السفينة، وقئتُ، وبكيت.

دفعتني إلى الأمام ركلة طفيفة على مؤخرتي. رفعت رأسي لأرى مراد ينظر نحوي بتعجب. ثم انحنى لما رأى خيط اللعاب يسيل من فمي، وخيط الدموع يسيل من عيني، وقال:

مكتبة
t.me/t_pdf

- اللعنة! ما بك يا رجل؟

- السلطان. ماذا يحدث؟

- نعم نعم السلطان. هذا غريب، أليس كذلك؟ في الصباح الباكر. إنه اعتذار على ما يبدو. أو طلب الصفح. لا أعرف.

اتسعت عيناني وابتلعت ريقي لأبلل حلقي الذي جفّ تماماً. شعرت أن الدماء عادت تجري في عروقي وتبعث في داخلي بعض الارتياح. قلت لمراد لأتأكد مما سمعته:

- إنه هناك على اليابسة لأنهم يريدون أن يعتذروا له؟ فقط؟ ليس إلا؟

- نعم، نعم. ماذا سيفعل على اليابسة إذن. هاقد انتهى الأمر. انظر إليه. إنه يعود إلينا. هل أكلت؟

روما

٤٥

ثقيلةٌ روما. كأنها وتدٌ هائل يحفظ اتزان الأرض. الجدران أسمك، والأرض أقسى، والناس كذلك، والظروف التي وصلنا فيها لم تكن أفضل ظروف يمكن أن يصل فيها ثلة أسرى إلى المدينة. لم يكن هذا أول ما فكرت فيه حتماً. استغرقني الأمر عدة أسابيع حتى أحلّ بعض الألغاز التي واجهتنا. الناس مبتهجون بوصولنا ولكنهم لم يبذلوا احتراماً، والفرسان لم يتخلوا عن مهامهم ولكنهم سعداء بالتخلص منا، والبابا أيضاً عطوفٌ ولطيفٌ مع السلطان ولكنه لم يعطنا أكثر من ست غرف لا تكاد تكفينا. غرفة للسلطان، وغرفتان للحريم، وثلاث غرف للبقية، وأنا من البقية.

الهتاف الذي استقبل به الروميون سلطاننا عجيبٌ، تختلط فيه الصلوات والدعوات. رأيت دموعاً في عيون العجائز، ونساءً يهمسن في آذان أطفالهم، ورجالاً يشربون الخمر ويسكبون بعضه على أقدامهم ويرقصون. لوّح لهم السلطان بيده فلوّح بعضهم له، وتناهت إلى سمعي بضع كلمات نابية بالإيطالية لم أترجمها لأحد، ولهذا كنت وحدي في حاشية السلطان من انتابه الشكّ في حقيقة مشاعر هؤلاء

المحتفلين. أما البقية فقد تأملوا ما حولهم بعيونٍ أضناها السفر نحو المجهول، والفضول نحو المقبل من الأيام. وبدت المدينة الضخمة بأبراجها وأسوارها وقصورها وميادينها مدهشة لهم بعد سنوات من العيش في قرية صغيرة لا يحدث فيها شيء. أخذ مراد يراقص الرجال، ويتلقى بعض الصفعات الخفيفة على قفاه ويضحك، ويضحكون. ثم يعود إلى مسيرتنا الصغيرة التي يحفها عشرة فرسان يرافقوننا نحو الفاتيكان في حين عسكر البقية خارج أسوار المدينة.

عند البوابة التي سبقنا إليها أحد الفرسان طلبوا منا أن نصطف خلف السلطان في انتظار مستقبليه. وقفنا بثبات باستثناء مراد الذي راح يتأمل الأرض المرصوفة بالأحجار الرمادية بتعجب ويحاول أن يحركها بطرف نعله حتى فقد توازنه وسقط. ثم لاح من آخر الممر ركبٌ بطيء الحركة يتوسطه شابٌ بدينٌ أشقر الشعر قليله، يهزّ رقبته لا إرادياً كل بضع ثوان يمنة ويسرة. وقف أمام السلطان وقد علت ملامحه علامات التوجس. تأمل وجهه وكأنه فوجئ ببشرته البيضاء في ثيابه التركية. ثم مدّ إلى السلطان يده المليئة بالخواتم الذهبية وصافحه، وقدم نفسه:

- الأركبيشوب نيكولو.

ساد الصمتُ لوهلة في حين تبادل السلطان والأركبيشوب النظرات. توقف اهتزاز ذراعيهما وبقي كفاهما في وضع المصافحة. حركت نسمات الهواء شعر الأركبيشوب الخفيف ولحية السلطان المدببة ما أوقف تخيلنا بأنهما قد تحولا إلى تمثالين. مال السلطان

أخيراً بوجهه جهتي ورمقني بطرف عينه وهو الذي اعتاد ألا ينظر إليّ أثناء الترجمة، ولم أكن أعرف ما ينتظره مني. فالأركبيشوب لم ينطق بغير اسمه، والأسماء لا تُترجم، وعليه أن يقول عبارة ترحيب ما لأترجمها للسلطان ولكنه.. أوه..

أوه.. أوه.. أوه..

هذا فظيع!

الأركبيشوب ينتظر أن يعرّف السلطان بنفسه!

يالهذا التصرف الخالي من اللباقة؟ هل جُنّ هذا الأركبيشوب؟ لماذا تصر أن يعرف السلطان بنفسه إذا كنت قد خرجت لاستقباله أيها الروميّ الفظ. لا، لا. إنه يعرفه حتماً، وما يقوم به الآن لا ينبئ بخير. إنها إهانة مبكرة للسلطان وهو يخطو خطواته الأولى داخل الفاتيكان، وعلى هذا الرجل الذي بدا وكأنه ينتظر أن ينطق السلطان بشيء أن يتعلم، ولكنه يعلم. هل يعقل أن يصل إلى مرتبة أركبيشوب في الفاتيكان ولا يعرف أن السلاطين لا يعرفون بأنفسهم؟ إنه يتعمد الإساءة للسلطان. إنه..

انقطع حبل غضبي التصاعدي عندما تنفس السلطان بعمق وسحب يده إلى جانبه ثم قال بالتركية:

- السلطان جم بن محمد بن مراد بن محمد جلبي بن بايزيد بن مراد بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل.

مال الأركبيشوب برقبته القصيرة ميلاً لا يكاد يلاحظه أحد، ونظر

إلى السلطان متعجباً من طول اسمه وربما فكر في معنى ذلك. ثم هزّ رأسه وكأنه ينفض الأفكار من رأسه فارتجّ لغداه. ثم أشار بيده إلى القصر الذي وراءه وهو يقول:

- صاحب القداسة في انتظاركم.

ترجمت ما قاله للسلطان الذي نظر حيث أشار. ثم أومأ برأسه علامة الموافقة. انقسمت المجموعة القليلة خلف الأركبيشوب لنمرّ من بينهم يتقدمنا السلطان، ثم أنا، ثم خادمان يحملان صندوق الهدايا، ثم من تبقى من الحاشية. جزنا تباعاً بوابة الفاتيكان الداخلية، ودخلنا القاعة التي اعوجّت فيها رقابنا ونحن ننظر إلى سقفها العالي برسوماته الجميلة وزخارفه الكثيفة. تردد في المكان صدى خطانا فوق الأرض الصقيلة، وأخيراً وقفنا عند باب مكتب البابا، والتفت الأركبيشوب إلينا ودار بعينيه وكأنه يعدُّنا. ثم طرق الباب ودخل وحده.

تنفس السلطان بعمق فور غياب الأركبيشوب وراء الباب، ونفض صدر قميصه ببطء، وخلل لحيته بأصابعه ثم حكّ أرنبة أنفه، ونظر بطرف عينه ليتأكد من وجودي خلفه. مر زمنٌ لا ندري أطويلٌ أم قصير في عرف الواقفين عند باب البابا. الصمت مهيب، والملائكة المرسومون في السقف بدوا وكأنهم يتأملون حاشيتنا الصغيرة من فضاء القاعة الرحب، والوجوه التي في اللوحات تختلس النظر إلينا، والرؤوس الرخامية المتناثرة في أطراف المكان تلفّ أعناقها جهتنا، ولوهلة فكرت كم هو الموقف هائل وعجيب حتى بالنسبة للرسومات والتماثيل: سلطان الترك ينتظر إذناً للدخول على بابا الفاتيكان!

أخيراً برز كُمُّ قميص أبيض من فرجة باب المكتب الذي تركزت أبصارنا فيه، وحدث ما لم نكن نتوقعه كما تحدثنا كثيراً بعد ذلك. لقد خرج البابا بنفسه قبل أن ندخل إليه. تأملت أنفه المحنيّ بانتظام مثل ربع دائرة جميلة. أما الدائرة المكتملة فطوق شعره الفضي الذي يحيط بصلعته. ثم دائرتان أخريان في خديه اللذين تقعرا إلى الداخل. ثم لحيته البيضاء المشذبة بعناية مثل دائرة، ونحونا تقدم مثل مجموعة من الدوائر المهيبة، وبخطواتٍ بطيئة تشبه اللحظات الجامدة التي مرت علينا ونحن في انتظاره اقترب من السلطان، وبرز من وراءه كاردينالات حمر الثياب ذوي ابتسامات متشابهة وواسعة، ومدّ البابا كلتا يديه ليتناول يدي السلطان المسبلتين، وخرجت من فمه كلماتٌ وهبني شرف ترجمتها:

- جلالة السلطان. كم أنا سعيدٌ برؤيتك.
- قداسة البابا. أنا سعيدٌ برؤيتك أيضاً.

نظر البابا إلى وجهي وأنا أترجم له. نعم. على وجهي وقعت عيناه اللامعتان، وعلى وجهه وقعت عيناي الدامعتان، وبدا فمه دقيقاً وصغيراً وهو يزمُّ ضحكةً لطيفة. ماذا أضحكه؟ ماذا يضحك نائب الله في الأرض يا ترى؟ هل أعجبه أن السلطان ردّ عليه بعبارة شبيهة جداً وظن أنها مزحة؟ هل أعجبه أن يسمع كلمات إيطالية من ترجمان شرقيّ؟ هل هو سعيدٌ فعلاً برؤية السلطان في الفاتيكان أسيراً لا غازياً؟ يالتجديفي! بالطبع هو سعيد. هل يكذب البابا؟ وما الذي يضطره إلى الكذب. الله معه، وكل شيء معه.

أشار البابا بيده للسلطان جهة باب المكتب. فتحرك السلطان ببطء وكأنه يحسب كل خطوة يخطوها. ومن وراء ظهر السلطان أشار الكرادلة إلى بقية الحاشية أن يبقوا حيث هم. فتبعت السلطان والبابا وأنا أتأمل ثيابه، قلنسوته، أكمامه، حذاءه، والبقع التي يطؤها بقدمه. هل تتغير أم تظل كما هي؟ هل يبقى الحجر حجراً إذا مشى فوقه نائب الله؟ مشيت فوق أثره تماماً خطوة خطوة دون أن ينتبه أحد. حتى انتهينا في مكتبه أخيراً. ليجلس السلطان عن يمينه وأنا عن يمين السلطان. ثم حلت نظرته الثانية على وجهي. أجل. نظر في وجهي مباشرة وأشار بيده. وقال:

- اجلس بيننا يا بنيّ. فأنا لا أسمع جيداً.

وعلى الفور قرّب أحد الكرادلة كرسياً خشبياً صغيراً بين السلطان والبابا، وجلس عليه جرما. نعم. يجب أن أعيد وصف ما حدث جيداً فحتى أنا استغرقني الأمر أياماً حتى صدقته. لقد قام أحد كرادلة البابا الكبار بجلب كرسيّ ليجلس عليه جرمانوس الحلبيّ بين نائب الله في الأرض والسلطان. وقبل أن يحدث هذا بلحظات كان نائب الله يتحدث مباشرة إلى جرما. كان ينظر في وجه جرما. ويقول لجرما: «يا بنيّ». إذا مات جرما اليوم فليكتبوا على شاهد قبره: عاش حياةً مجيدة!

٤٦

أخبرنا الكاردينال بورجا أنهم سيقيمون حفل استقبال للسلطان بعد أن يرتاح من سفره وينتهي البابا من مهمة الترقيات. أومأ السلطان برأسه علامة الموافقة على هذه الترتيبات التي سردها عليه الكاردينال الذي كان هو بنفسه من جلب لي الكرسيّ قبل أن ينحني ويغادر المكان. هو الوحيد الذي يفعل ذلك. أعني الانحناء أمام السلطان، وأعني أيضاً الاحترام، ولا بد أنه قرر ذلك بعد أن رأى حفاوة البابا بالسلطان في لقائهما الأول. أما بقية الكرادلة فينهشونه بنظراتٍ سيئة وأسئلة أسوأ كلما انفردوا به بعيداً من عيني البابا. كل سؤال يمكن أن يكون جارحاً وخبيثاً. كمثل ذلك الذي رماه به أحدهم «كم أستغرب أيها السلطان ذهابك إلى الفرسان في رودس وهم على دينٍ غير دينك؟»، ولفرط خبث السؤال طلب مني السلطان أن أكرر ترجمته له مرتين. الأولى ليعرف معناه والثانية ليعرف مغزاه. التقطتُ نفساً عميقاً لينتفخ به صدري استعداداً لأن أترجم للكاردينال رداً قاسياً من السلطان، ولكن السلطان في المقابل أطلق من صدره نفساً عميقاً، وكأني أنا الذي شهقت وهو الذي زفر، وقال:

– قد لا تعلم أيها الكاردينال أني نزلت عليهم ضيفاً فأخذوني أسيراً.

رسم الكاردينال على وجهه ملامح دهشة مصطنعة، وقال:

- أسير؟ حقاً؟ هذا لا يعقل أيها السلطان.

لم يجب السلطان وإنما رمق الكاردينال بنظرةٍ كسيرة خفف من انكسارها ابتسامة صغيرة على فمه، وكأنه يعترف بعبثية تبادل الإهانات في هذا الموقف. فاستطرد الكاردينال:

- الفرسان هم فخر الأمة المسيحية، ولا يأسرون ضيوفهم. هل تعلم أيها السلطان أن القائد ديبوسون سينال قبعة حمراء عما قريب؟

ترجمتُ العبارة كما سمعتها. فالتفت السلطان جهتي وقال هامساً بالتركية:

- قبعة حمراء؟

همست للسلطان:

- نعم. هذا ما قاله.

- وماذا تعني القبعة الحمراء؟

نقلت السؤال إلى الكاردينال فوراً فرفع حاجبيه وضحك ضحكة قصيرة جداً يتحضر بها للإجابة ثم قال:

- أوه! عفواً. قبعة حمراء تبدو عبارة غريبة على ضيوفنا. إنها تعني أن صاحب القداسة سيهبه الكاردينالية. سيصبح كاردينالاً عما قريب.

هزّ السلطان رأسه وزم شفتيه في مزيج بين الاهتمام والازدراء ثم قال:

- إنه يستحق ذلك حتماً.
- حقاً؟ لتوك كنت تحمل شعوراً سيئاً تجاهه أيها السلطان.
- لا علاقة لشعوري تجاهه بالأمر. أنا الآن في روما. هل تفهم ما يعني هذا أيها الكاردينال؟
- أتوسل عفوك أيها السلطان. لم أفهم.

تنحنح السلطان، ومال في جلسته ليكون أقل اعتدالاً وهو يقول:

- عندما يذهب السلطان العثماني إلى رودس بملء إرادته، ثم يجد نفسه في روما دون إرادته. فإن المسئول عن ذلك يستحقّ قبعة حمراء حتماً.

فتح الكاردينال فمه وكأنه فوجئ بهذا الربط آتياً من السلطان. ثم أغلق فمه وهزّ رأسه نافياً وقال:

- أوه! أيها السلطان. لا، أتفق معك. ديبوسون خدم أمتنا منذ سنوات طويلة قبل وصولك إلى رودس. صدقني. الأمر لا علاقة له بوجودك بيننا في روما.. الأمر...

أوقفه السلطان بإشارة من يده. فلما بدأت في الترجمة أوقفني أنا الآخر. ثم مال برأسه إلى الأمام أقرب إلى الكاردينال وقال:

- أيها الكاردينال. أنت تعلم جيداً ما الذي حدث، وكلكم يعرف ماذا حدث. أعني كلكم بلا استثناء. البابا، وأنت، والفرنسيون، والفرسان. كلكم تعلمون أن الخديعة هي التي أوصلتني إلى هنا، وأنا لا أشعر الآن سوى بالهزيمة. نعم. بالهزيمة.

توقف قليلاً حتى ترجمت ما قاله ثم استطرد:

- إنها سنة من سنن الحياة. السلاطين ينتصرون بالشجاعة والإقدام، وينهزمون بالخديعة والخيانة، ولقد كنت شجاعاً عندما انتصرت وتوليت السلطنة في أدرنة، ولكني انهزمت بخيانة القبائل الخسيسة، ولقد كنت شجاعاً عندما ذهبت بنفسي إلى عرين الأسد في رودس، ولكني انهزمت بخيانة ديبوسون. صدقني، هذه سنة، وحتى السلاطين ليس بوسعهم تغيير السنن.

قال السلطان هذا ثم وقف بتثاقل، وأنّ قليلاً كأنه تململ من جلسته وأوجعه الوقوف. رحت أهذّ الترجمة هذّاً على الكاردينال مستعجلاً لحاقي بالسلطان الذي قصد باب حجراته الداخلية بمشية بطيئة. ترك الباب مفتوحاً وراءه فتبعته إلى الداخل موصداً الباب ورائي، وعندما سمع الباب يوصد وخطواتي تخفّ من ورائه قال أخيراً دون أن يلتفت:

- سلطان، مقابل قبعة حمراء. ألا يبدو هذا مضحكاً يا جرمانوس؟

لم أجب. أطرقت في أدب وضحك هو بمرارة. ثم استطرد:

- .. ثم يدعوني البابا إلى حضور حفل رسامة الكاردينالات. يالها من حياة!

قفزت من عيني دمعة طارئة لم أتوقعها وأنا أسمع السلطان يتحدث بمرارة من يوشك أن يفقد عقله. دخل غرفته واتجه نحو كرسيه القريب من النافذة. خلع عمامته ووضعها على الطاولة. ثم مسح على مسند الكرسيّ بهدوء وكأنه يمسح على ظهر قط، وقال:

- كم أنت فخورٌ بابنك أيها الفاتح العظيم!

انتبه آغا الحريم إلى وجوده فتسلل ووضع على الطاولة إبريق النبيذ. فتراجعت بدوري إلى الوراء حتى اقتربت من الباب وجلست أتأمل السلطان في انتظار أن يأمرني بالانصراف. ولكنه لم يفعل. تناول كأسه وراح يشرب بسهوم وكأنه غادر مكاننا بخياله إلى أفق بعيد. كنت قد تنفست الصعداء عندما عرفت في الأيام الأخيرة التي سبقت وصولنا إلى روما أنها وجهتنا. لن يمسّ مسيحي مثلي ضرٌّ في حمى البابا، وأيضاً لن يمسّ السلطان ضرّ وإلا فلماذا تجشموا عناء نقله إلى هنا. سنوات فرنسا جعلت السلطان يفقد نصف عقله ويكسب ضعف وزنه. ذلك الشاب جميل الخلقة، حاد الأنف، أحمر الوجنتين، لامع العينين، الذي رأيته في حلب أول مرة، آل إلى هذا الرجل الذي تتسرب خصلات شعره من مقدمة عمامته وترسب على جبينه مثل أعشابٍ ميتة. عيناه فقدتا لمعانهما، وبدا وكأن شفتيه ذابتا في سحنته فلا أكاد أميزهما. ترهل الجلد تحت عينيه من فرط شربه وسهره، وربما بكائه وكدره، وسمن تلك السمنة التي تتكتل حول خصره ولا تتوزع في جسده. ظلت يداه ناحلتين وأيضاً ساقاه. صار السلطان مخروطياً كأنما اقتاته المنفى من طرفيه.

وكالحصان المريض الذي تعوده نوباتٌ قصيرة من العافية كان السلطان في روما. ونوبات العافية القليلة هذه مرهونة بالصخب الذي تحدثه الحفلات التي يدعوه إليها وجهاء روما وساداتها، وكلهم فعلوا

ذلك حتى صار لديه قائمة طويلة من الدعوات لشهرين مقبلين. بدا لي بعد الحفل العشرين أو الثلاثين الذي صحبته إليه وترجمت له فيه أنه أصبح زينة حفلاتهم، وقد قالها أحدهم بالفعل في استقباله: «يا عزيزي السلطان! لقد ظننت الشمس أشرقت مرة أخرى عندما دخلت»، ولو أن الأمر بيدي، أو بلساني، لترجمت كلماته كما شعرت بها تماماً: «يا عزيزي السلطان! شكراً لأنك تسلّي ضيوفي وتجعلني أبهرهم باستقبالك». سلطانٌ تركيّ بعمامة ضخمة في حفلة رومية. أي شيء أكثر إبهاراً من ذلك. لا يقارن بنافخي النار ولا الراقصات العاريات ولا مروضي الجياد ولا قارئات الحظ.

وهكذا، زرنا بيوت روما العليّة كلها تقريباً. والسلطان لا يدرك ذلك أو يدركه. يفهمه وربما لا يفهمه. لقد دلق أحدهم على مسمعه أسطورة السلطان التركي ّالذي قيل إنه سيدخل روما بعد أن سكروا جميعاً وزالت التحفظات:

- الجميع أيها السلطان كانوا يحذرون ذلك اليوم! لقد جعلنا أبوك نخاف من البحر. ثم ها أنت تدخل روما مثل حمامة وادعة. سلطان جميل ورائق مثلك. لقد صدقت النبوءة ولكن كما لم نتصورها على الإطلاق.

يبتسم السلطان، ويطرق لثوان قبل أن يرفع رأسه مرة أخرى ويقول:

- إنكم تعلمون جميعاً ألا مطامع لي في أوربا كلها. تعلمون ذلك حتماً وتتجاهلونه.

ويهز القوم رؤوسهم بسهولة وقد امتلأت خمراً. وكلما تقدم الليل نقص الرجال وزادت النساء، واشتعل السلطان، وتوهج، واتقد، حتى إذا انتهى حفلنا استحال كومة من رماد. نحمله إلى عربته، إلى غرفته، إلى سريره. لا ندري أيصحو من غدٍ أو لا، ولكنه يصحو. نعم. يصحو دائماً وكأنه ينبهنا جميعاً أن ليلة طويلة من النوم العميق تعيد ملء السلاطين بالكبرياء مثلما نعيد ملء القناديل بالزيت فتضيء مرة أخرى. يمتطي فرسه البلقاء التي اشتراها أول ما وصلنا إلى روما ويخرج إلى وجهة مختلفة كل يوم وكأنه يملك المدينة ولا تملكه. يتبعه حرس الفاتيكان المدججون بدروعهم وسيوفهم وخوذاتهم، ويتبعه أيضاً من حيث لا يعلم عشرات الجواسيس في ملابس العامة. حرصوا على أن يخفوا عنه حقيقتهم أول الأمر ثم تساهلوا فيه يوماً بعد يوم حتى صار بعضهم يتجاذب أطراف الحديث معنا بلا مبالاة. لقد تشابهت الأيام حتى ما عاد يميزها عن بعضها إلا أحوال الطقس موسماً بعد موسم. ما ظننت أن قلب المسيحية النابض يختبئ في جسد مدينة هامدة مثل هذه؟ أهي هامدة فعلاً رغم المباني التي تنبت من الأرض كل يوم؟ أم أننا معزولون عن كل ما يحدث حولنا وكأننا أحصنة مغطاة الأعين حتى لا ترى ما حولها؟ أو لا ترى سوى الطريق الذي يفضي إلى العدم. أيام روما متشابهة ومكررة وهي تصطف في شقوق الشتاء البارد مثل قطرات تنتظر دورها في التجمد. فكرت ذات يوم وأنا أمرّ بمقبرة إذا ما كانت ستضم رفاتي ذات يوم؟ أأموت في روما؟ لماذا لم تحضرني هذه

الفكرة في حلب ولا الماغوصة ولا صقلية ولا بورغينيف؟ لماذا روما تبدو لي مثل آخر ما ستبلغه قدماي الحائرتان؟ بجدرانها الحمراء التي لا تستر، وأشجارها النحيلة التي لا تُظلّ.

بدا لي أني أستعير من السلطان أحواله كلها. تتسلل إلى صدري أنفاسه، وتجري على خدي دموعه. كلما استيقظ صباحاً وزّع علينا المشاعر التي ينبغي لها أن تغشى صدورنا ذلك اليوم، وأشعر بالحنق أحياناً! هو سلطان بلا سلطنة. ما شأني أنا؟ لم أفقد عرشاً ولم يأسرني سواه. أنا أكثر حرية منه. لا يراقبني أحد وأستطيع أن أجوب روما كلها دون أن يعترضني من يعترضه إذا ابتعد عن القفص الجميل الذي أودعه فيه البابا.

فكرت طويلاً في الهرب. لا، الرحيل فقط، ولماذا أسميه هرباً؟ لا شيء يجبرني الآن على رفقة السلطان. لا عنده جندٌ ولا فرسانٌ، ولو قررت الآن، في هذه اللحظة، أن أحمل حاجياتي وأغادر المدينة لما استوقفني أحد، ولكن إلى أين وليس معي مالٌ يكفي لأن أتجاوز هذه الأسوار؟ وأجرة السفن باهظة، والسلطان لم يعد يدفع. هذه أحوالي اللعينة المتكررة. إما حرية بلا مال. أو مال بلا حرية.

السلطان الآن لم يعد يعنيه أمري. يومه أصبح يشبه أمسه، وبالتأكيد سيشبهه غده. لو سألني أحدٌ في أي وقت من اليوم والليلة أين يجد السلطان فسأخبره بكل يقين. في الصباح نائمٌ حتى تشتد الشمس. في الظهيرة يلاعب جياده ويغسلها. في المساء يكتب الشعر ويمزقه، وفي

الليل يحلّ ضيفاً على من دعاه. أياً كان من دعاه. في البدء كانوا كرادلة البابا ووجهاء المدينة. ثم بيوت التجار والأغنياء. الآن، يستجيب لأي دعوة تحت أي سقف. يجلس حول أي طاولة عليها نبيذ. ضيف البابا أصبح ضيف بيوت روما كلها. الرجل الذي جعل المدينة تتنفس الصعداء من نبوءتها المشئومة يحلّ على كل البيوت بلا استثناء. وبدا لي أن الأمور تأخذ منحى الاعتياد. منحى شبيه بذلك الذي عايشته مراراً مع هذا السلطان. نصل إلى مكان ما. نخاف من المجهول. نعتاد على العيش. ثم ننسرب في تيار الاعتياد والرتابة. ثم عندها لا بد أن يحدث شيء ما. هكذا. لابد من أمر ما، وروما تخبئه لنا حتماً.

٤٧

جرس الكابيتلوم الهائل يدقّ منذ الصباح ويرجّ أركان روما ويلوي رقاب أهليها الذين يتساءلون عن السبب. خرج الناس إلى الطرقات جميعاً وتفرّقوا في وجهاتهم. منهم من قصد الفاتيكان ومكث ينتظر خبراً يتسرب من وراء جدرانه السميكة، ومن تجاوز أسوار المدينة كلها بحثاً عن ضيف عظيم القدر يوشك أن يحلّ على المدينة تقول الشائعات إنه قد يكون ملك نابولي المهيب فيرانتي. وحتى انتصفت الشمس في السماء ظلت الشائعات تروج بين الناس ولم تتوقف إلا بعد أن فتحت أبواب القصر أخيراً وخرج طاقم الفرسان في صفّين بكامل زينتهم، ثم خرجت عربة البابا نفسه التي أحكموا مظلتها مع بدء هطول الأمطار، وسارت القافلة البابوية الفاخرة بهدوء وتؤدة وسط جلجلة الأجراس وهتاف الناس وقرع الطبالين الذين تأخروا وراء عربة البابا حتى وصل أخيراً إلى الساحة الكبرى، ودحضت الحقيقة كل الشائعات السخيفة.

أفاق السلطان من نومه وطلبني. وقفت بين يديه واستند هو إلى ظهر سريره وآثار نومه الثقيل بادية على وجهه. قال بصوت متحشرج:

- ماذا يحدث؟ هل سمعت شيئاً؟
- سمعت ما يسمع الناس يا مولاي.
- وماذا سمعوا؟

- سقطت غرناطة في يد فيرديناند وإيزابيلا أخيراً.

- وماذا سيحلّ بنا؟ ماذا سنفعل؟

رفعت نظري عن الأرض وقد فاجأني سؤاله. لأول مرة مذ التقيت السلطان أراه يستشيرني في شأن ما. شعرت بالشفقة تجاهه وشعرت أيضاً بالقلق يقتحم صدري. باعدت بين يديّ علامة قلة الحيلة فأطرق وبدا وجهه مكفهراً وخائفاً في آن. تراجعت بخفة استعداداً للانصراف فانتبه لذلك، ولوح بيديه في الهواء وكأنه يتشبث بي وقال:

- أريد أن أرى البابا. اليوم. في أقرب وقت.

خرجت من غرفته إلى مكتب البابا وأنا أتساءل ما الذي يدور في عقل السلطان. حالفني الحظ إذ وجدت الكاردينال بورجا في مكتبه فأخبرته أن السلطان يريد أن يلتقي البابا في أقرب وقت ممكن فوعدني أن يدبر الأمر خلال أيام. ثم طلب مني أن أقترب منه، ووضع يده على كتفي وهمس في أذني:

- قل للسلطان ألا يغادر مسكنه هذه الأيام مهما كانت الظروف.

وهكذا قضى السلطان أيامه التي ينتظر فيها لقاء البابا حبيساً في مسكنه. تصل إلى مخدعه أصوات الاحتفالات الصاخبة التي ضجت بها روما صباح مساء، وينعكس على حيطانها لهب المشاعل التي لم تخمد طوال أيام الاحتفال المقدس، ولكنه لا يخرج أبداً خوفاً من مشاعر المسيحيين الملتهبة، وربما أنهم لن يعاملوه أفضل من ذلك الممثل المكبل بالسلاسل الذي تجره عربة مكللة بالورود،

يعتليها ممثل وممثلة في دور فيرديناند وايزابيلا يجران وراءها آخر ملوك المسلمين في غرناطة، وقد أتقن الأخير تمثيله حتى أنه يتلقى الصفعات الخفيفة والبصقات الهوائية المصطنعة فينتحب ويحثو على رأسه التراب ويضرب خديه بخفّين من الجلد. ثم تخونه الضحكة فجأة فيخفي فمه المبتسم ويعود لينغمس في مسرحيته المتحركة بين ميادين روما الكبرى.

أما أنا فقد رأيت كل شيء. شربت ورقصت وضحكت وحدي دون رفقة من حاشية السلطان الذين التزموا الحياد في إبداء مشاعرهم تجاه ما حدث مثلما فعل السلطان تماماً. كنت وحدي من بين هذه الحاشية الذي يحمل تصريحاً بالفرح، وكم كنت بحاجة إليه بعد هذه الأيام الرتيبة، ولهذا كنت أجول أرجاء المدينة خشية أن تفوتني رقصة صغيرة في زقاق عابر أونبيذ مجانيّ في حانة سعيدة أو مبارزة بالسيوف بين إسباني وإيطالي، أو مصارعة ثيران تختلط فيها دماء الثيران بالمصارعين بالمتفرجين بالأحصنة في صخبٍ مثير.

أخيراً أذن البابا للسلطان بالحضور. همست في أذنه ونحن واقفان أمام باب مكتب البابا ليمسح قطرة دم صغيرة تحولت إلى نقطة سوداء متحجرة في ذقنه التي حلقها على عجل. فرك وجهه كله بيده في توتر ثم فتح الباب ونادانا موظفو البابا، ودخلنا. وفي الداخل حدث ما لا أظن ترجماناً آخر قد مرّ بمثله. حكايتي كلها أقصر مما حدث هذا اليوم، وما حدث هذا اليوم أكبر من أن أحكيه، ولكني مضطرٌ لذلك. كيف

يمكن أن تشهد حيطان مكتب البابا إلا مثل هذه الأحداث العظيمة؟ عندما يقف ترجمانٌ مثلي من حلب في مكتب البابا ليترجم بينهما بعض الكلام. ثم في لحظة ما. يبكي السلطان، ويبكي البابا، ويبكي الترجمان.

للمرة الأولى منذ لقي السلطان البابا أراه يقبّل يده. يرفع كفه المباركة إلى حيث فمه ويقبّلها قبلة سمينة، ولا أدري كيف أصفها بغير ذلك. لقد بدا وكأن السلطان نسي كيف تقبّل الأيدي وأن شفتيه لا تعرفان مثل هذا الفعل. عبّر البابا عن دهشته من هذه القبلة غير المتوقعة بضحكات قصيرة تكورت على إثرها وجنتاه واحمرّتا، وبقيت أنا مشدوهاً من تصرفات سلطاني التي تفاجئني يوماً بعد يوم، وشعرت بمشاعر غريبة ومتضاربة. أنا المسيحي الذي أتمنى أن أقبل يدي البابا لا يتاح لي إلا المسح بيدي على الأرض من أمامه، ولكني في المقابل كنت المسيحي الذي تألم جداً عندما رأيت سلطاني يقبل يد البابا أمامي.

وعلى غير عادته أيضاً، أمسك البابا بعضد السلطان وقاده نحو كرسيه حتى أجلسه عليه. ثم أشار بيده إلى الكرادلة الثلاث الذي يحفّون به أن ينصرفوا قائلاً:

- يرغب السلطان أن يحدثني وحدي.

وجلس هو على كرسيه بميل يحاول معه أن يكون أقرب إلى السلطان. اتخذت مكاني وراءهما وبدأ البابا حديثه:

- هل صحتك جيدة أيها السلطان؟ أتمنى أن طعامنا يروق لك.

- أنا بخير يا صاحب القداسة، وأشكرك على نعمك وعطائك الجزيل.

- هذه نعم الربّ، وأنت ضيف الرب. في رحاب بطرس الرسول، ولا نتمنى لك إلا أن تكون في أتمّ حال بيننا.

تنحنح السلطان في حرج وكأن الحديث يتخذ مساراً غير الذي يريد. بدا البابا وكأنه يقرأ أفكار السلطان مذ قبّل يديه وحتى تحدث إليه. قال السلطان أخيراً:

- يا صاحب القداسة..

ارتسمت ملامح جادة على النصف العلوي من وجه البابا في حين ظلت ابتسامته الهادئة كما هي، واستمر السلطان في حديثه:

- إن لي ابناً في مصر لم تقع عيني عليه منذ ولد.

عقد البابا حاجبيه وزم شفتيه في تعاطف واضح، وأصاخ باهتمام:

- كما أن لي أماً لم ترني منذ سنواتٍ طويلة ولا أظنها تذكر ملامحي.

اعتدل البابا في جلسته وأسند ظهره وكأنما فهم ما يرمي إليه السلطان واستعدّ في رده إليه. أما أنا فياللرجفة التي ضربت أطرافي حتى أني دسست يديّ خلف ظهري. قلبي يخفق وهو يرى دمعة السلطان تسيل بطول خده وكأنها خيطٌ من لهب. حار بؤبؤاه في محجريه حتى كأنهما يبحثان عن منفذ، وحرك يديه باتجاه وجهه دون أن يمسه وكأنه يحثو تراباً وهمياً على رأسه. خرجت الكلمة الأخيرة من ترجمتي ضعيفة لا

تكاد تسمع بعد أن زاحمتها حشرجتي. مدّ البابا يده ليمس خد السلطان ويمسح عليها بلطف فانهمر دمع السلطان غزيراً جداً، وبكى كمن لم يبك منذ سنوات، وأجهش بزفرات متقطعة وكأنه يدفع صخرة صماء عالقة في صدره.

حجب البابا عينيه بكفه اليسرى واهتزّ جسده ببكاءٍ صامت. شعرتُ بدوري ببركانٍ من البكاء يتفجرّ في صدري وأنا أقف بينهما. تراجعت عدة خطوات إلى الوراء واتكأت على عمود حجري ودسست وجهي بين كفيّ ورحت أبكي وأنا أجاهد ألا يعلو صوت بكائي. بدا المكان وكأن ميتاً صالحاً قضى نحبه قبل قليل. بكاةٌ ثلاثة لا يجمعهم شيء إلا دموع الموقف. سلطانٌ وبابا وترجمان، وحيطانٌ صامتة.

غادرنا مكتب البابا وعلى وجه السلطان ملامح جامدة. ربت البابا على كتفه وسار معه حتى الباب. بل إنه مدّ يده المباركة ليدفعه فسبقته إليه، وتحت قوس الباب المحنيّ قال له:

- لن يطول بك هذا الحرمان.

خرجت مع السلطان عائدين إلى مقر السكن. ظلّ ساهماً حتى أنه يتأخر عني بعض الشيء فأتقدم في مشيي قبل أن أتدارك ذلك وأعود إلى موازاته. جلس قريباً من الشرفة التي تتصدر مقرّ سكنه الثاني الذي نُقلنا إليه بعد سقوط غرناطة مباشرة إمعاناً في التحصّن، ورغم برودة الجو، فتح فمه أمام الهواء البارد وحرر حزام عباءته ليهب الهواء داخلها فينفخها. بم يفكر السلطان؟ أن يطير؟

٤٨

استيقظت في اليوم التالي على طرقات اثنين من الخدم يأمراني بموافاة السلطان في غرفته، وهناك، وجدته واقفاً بين مجموعة من موظفي الفاتيكان. نظر جهتي فور دخولي للمكان وبدا كأنه ينتظر مني تفسيراً أنا الذي أنتظر منه تفسيراً، ولكن كلماتهم القليلة قصرت عن ذلك:

- مأمورون أن نأخذ السلطان.
- إلى أين؟
- غير بعيد.

نقلت كلامهم إليه دون أن أفهم سبباً لهذا الطلب الغريب، وانتظرت أن يستفسر السلطان منهم لنفهم جميعاً، ولكنه ظلّ صامتاً كأن لم يسمع كلمة مما ترجمت. ثم أطرق، وأخيراً رفع رأسه وأومأ بالموافقة. امتطى حصانه ومشيت أنا والموظفون والحراس العشرة باتجاه أبواب المدينة، وكلما اقتربنا منها ازدادت الطرقات ازدحاماً حتى بدأ الحراس بدفع الناس ليفسحوا الطريق. وأخيراً انتهينا إلى الساحة الأخيرة قبل البوابة، وشخصت ببصري إلى حيث شخصت الأبصار.

يالقبح ما أرى. تدلّت الجثة على عمود مائل إلى الأمام لرجلٍ في منتصف عمره. نحيلٌ طويل. ثيابه أسمال وأطرافه زرقاء. رمقه السلطان

بنظرةٍ قلقة وقلبت أنا بصري بينهما غير مدرك الذي يحدث من حولي، ولعلي مللتُ من هذي الحال والأحوال العديدة الأخرى التي لا أفهم فيها ما الذي يجري. أنا الذي أترجم للناس كي تفهم أجدني مراراً عاجزاً عن الفهم، وممنوعاً من السؤال. لماذا أقف اليوم مع السلطان أمام جثة مصلوبة عند باب المدينة؟ هل يحقّ لي أن ألتفت إلى السلطان وأسأله؟

ولكن حتى لو كنتُ جرؤت على ذلك لم يكن الوقت ليسعفني. إذ جرّ زمام حصانه ليستدير وجهه باتجاه السور. لحق به الجنود المكلفون بحراسته وامتطوا من جياد الأبواب، وبقيت أنا مع الموظفين الثلاثة والرجل المصلوب والمارة الذي استمروا في تأمل الجثة وتبادل الكلام المتوتر. سألت أحد الموظفين:

- بحق الرب! لماذا جئتم بالسلطان إلى هنا؟

هزّ كتفيه بلا اكتراث وقال:

- لا أدري!

وهمّ أن يوليني ظهره قبل أن يلتفت ويسأل:

- ألا تظنّ الأمر يهمّه؟

- أي أمر؟

أشار بيده إلى الجثة المصلوبة وقال:

- هذا.

- ومن هذا؟

- ألا يبدو لك مألوفاً؟ إنه من قومكم.
- قومنا؟ ماذا تعني؟
- إنه تركيّ.

عدتُ أنظر إلى الجثة مرة أخرى لأتحقق قوله. لم أجد ما أجزم به. فسألته:

- أنا لستُ تركياً. أنا مسيحيّ من حلب، ولكن على كل حال، ماذا فعل هذا التركيّ؟

هزّ كتفيه للمرة الثانية وقال:

- جاسوس. روما كلها جواسيس. كل هذه الأرض تتجسس على روما.

بعد هذا، نقل البابا مقر إقامتنا إلى قصره الشخصيّ هذه المرة. أي أننا سننام ونصحو تحت السقف ذاته مع نائب الرب على الأرض الفسيحة. أي مسيحيّ قد قبّل صليباً من قبل يتوق لهذا الشرف إلا جرما. لأن جرما مع جم، ولأن جم لم يعد يعنيه شيء إلا موضع قدمه من الأرض ورأسه من الوسادة وكأسه من فمه وذكره من.. أوه. حتى ذكره لم يعد ذا جدوى، وقد باع من أجل ذلك نصف حريمه قبل أن يكبرن في السن، والآغا يدبر الصفقات وجرما يترجم.

يا إلهي ما أتعس اليوم الذي أخذني فيه طونيوس للقاء هذا السلطان. ليت ذلك البدين اللعين يأتي ليرى أي تعاسة أعيشها معه. قصوره سجون، وغرفاته زنازين، وخدمه حرّاس، وعاهراته جواسيس،

وضيوفه يتفرجون عليه كما يتفرج الناس على الحيوانات الراقصة. واليوم، تشتد الحراسة حوله أكثر من أي وقت مضى. ملك فرنسا يجوب إيطاليا وجواسيس بايزيد يملئون المدينة وقايتباي لا يملّ من محاولة إغراء البابا بتسليمه السلطان. السلطان الذي يتحرك ملوك الأرض من أجله وهو لا يكاد يفيق من سكرته.

يشرب طوال الليل حتى لا يتذكر أحداثه، ويكتب طوال النهار أشعاراً لا يقرؤها أحدٌ غيره، ثم يكتب رسائل لا يقرؤها إلا هو وأنا، ثم يبعث بها إلى ملوكٍ في بلاد بعيدة. فتخرج الرسالة من الغرفة. إلى الشارع. إلى الساحة. ثم تدور حول المبنى. ثم تعود من الساحة. إلى القصر. إلى مكتب البابا، والبابا ذو القلب العطوف قرر أن رسائل السلطان إلى ملك فرنسا والمجر ونابولي ومصر لا تنبئ بخير، ولهذا فمن الأفضل أن يعيش السلطان في أكثر الأماكن أماناً في بلاد الأمة المسيحية الشاسعة: قصر البابا.

ورغم أنا كنا نقتسم معه السقف والحيطان والهواء إلا أننا لم نعد نراه، وكلما طلب السلطان رؤية البابا ليسأله عما سبق له سؤاله عنه جاء رفض الطلب في ظرف مختوم. يفضّه السلطان بنفسه وكأنه يكسر قيده ويغادر سجنه. فلا يجد إلا الكلمات القليلة نفسها التي حفظ حروفها فلم يعد يأمرني أن أترجمها. إن البابا مريضٌ. إن الحرب قادمة. إن السفر محفوفٌ بالمخاطر. إن المقام في روما هو القرار الحكيم. إن كل رغبات السلطان مجابة إلا أن سلامته أهم وأولى.

وفي المساء الذي رأى فيه السلطان صدفةً حشد الكاردينالات الذي يحفّ بالبابا انطلق باتجاههم حتى جفل بعضهم مثل جيادٍ برية، وصاح السلطان في البابا بصوت عال بالكلمتين الإيطاليتين التي طلب مني أن أعلمه إياها قبل أيام: أيها الكلب القذر، وقف الحراس بينه وبين البابا المريض المعضود بين رجلين، وتصاعدت صرخات الكاردينالات من وراءه: «لا تؤذوه». «لا تضربوه». «بل أنت الكلب القذر». «هل نسيت نفسك؟!»، وأخيراً عبر البابا مدخله الخاص، وعاد السلطان وكأنه طفلٌ مغلوبٌ.

زاد حراسنا بعد ذلك اليوم حارسان غليظان، وأصبحت المسافة التي بينهما وبين السلطان أقصر، ولكن السلطان لم يقم بشيء يثير قلقهم بعد ذلك. همد مثل محاربٍ كانت هجمته على البابا هي معركته الأخيرة. استسلم أخيراً لأقداره وأصبح يقضي يومه بانتظام بين سريره وإسطبله وحمامه وغرفة الشراب التي يجد فيها كل يوم شراباً جديداً لا ينتهي وكأنهم لا يريدونه أن يفيق. ولأن هذا الجدول المنتظم يعني أنه لا يحتاج كثيراً إلى ترجمتي، وجدتني أقضي أياماً بطولها لا أراه فيها. أجول في نواحي المدينة متبوعاً بحارسٍ صامتٍ لم يطل صمته.

أهدى بايزيد للبابا قطعة من الحربة المقدسة التي وكز بها الرومان جسد الرب. هذا شيء مما قاله حارسي بعد أسابيع طويلة من رفقتنا. ثم مرت أسابيع وقال إن حرس الفاتيكان قبضوا على جواسيس من نابولي واعترفوا تحت التعذيب أنهم أعدوا خطة لخطف السلطان بأمر من

ملكهم. ثم مرت أيام وقال لي إن البابا قد يبيع السلطان للبنادقة مقابل أسطول من السفن الحربية يشنّ بها حملة صليبية ضخمة على الترك، وكنت أختار من هذه الشائعات ما أقوله للسلطان إذا لقيته لأسليه بها، ولأبثّ في نفسه الأمل أن شيئاً ما قد يتغّير. قد يُخطف. قد يُباع. أي شيء يمكن أن يحدث له ويخرجه من روما إلى أقدار أخرى. يستمع إليّ باهتمام وكأن جذوة الأمل في داخله ما زالت متقدة ومدفونة تحت أطنان من الرماد والخمر واليأس.

ولكن هذه الجذوة الوحيدة انطفأت أخيراً عندما سمع الشائعة الأخيرة التي صدق قائلها. موت ملك المجر. في تلك الليلة، بدا وكأنه قد انعتق من قيد الأمل. فاحتفل في جنونٍ لم يسبق له أن احتفل بمثله من قبل. رأيناه يجول في أنحاء المكان بلا عمامة، وبثوبه الصيفي القصير الشفاف الذي يظهر جسمه كله، وفي يده كأسٌ لا يجف ما فيها، وخرج إلى الإسطبل، وسكب الخمر في مياه الأحصنة، وامتطى فرسه دون سرج، وصرخ بالتركية:

- هيا بنا يا أدرنة. هيا بنا. اتبعوني يا فرسان الأناضول العظماء!

مكتبة
t.me/t_pdf

٤٩

حلق القدح طويلاً في فضاء الغرفة قبل أن يحطّ على قفاي أخيراً. شيءٌ في طيرانها المقوّس جعلني أشعر أنها طائر مفترس لا يكفي أن أتفاداه لأنه سينحرف ويلاحقني من جديد، ولذلك أوليته ظهري محاولاً الفرار مثل أرنبٍ مذعور فوجد القدح مستقره المريح في قفاي، ولو كنت وقفت مكاني بلا حراك لتجاوزني وما أصابني. الآن أنا منكفئٌ على وجهي وطنين النحاس يبدو مثل لغةٍ خرافية يتبادلها القدح مع رأسي. ثم امتطاني السلطان مثل فارسٍ مخبول يمتطي حيواناً زاحفاً. شد شعري من الخلف ودفع برأسي ليرتطم وجهي بالأرض الحجرية ورأيت قطعة من سني تدور على الأرض وكأنها تبحث عن فم آخر، ومرة أخرى التقى وجهي بالأرض فشعرت أن أنفي احتقن بالدماء احتقاناً مؤلماً حتى أن ضربة أخرى ستكون من قبيل الرحمة لتنثر هذه الدماء خارجه، ولكنه لم يفعل. شد رأسي إلى الخلف وانحنى ليصبح فمه أقرب شيء من أذني وصرخ:

- تهرب مني يا سليل الكلاب! أنا مولاك وسيدك. بل إن حذائي هو مولاك وسيدك. بل إن خرائي هو مولاك وسيدك..

ولا أدري لماذا التقطت عيناي وأنا ملقى على الأرض ووجهي مغطى بالدماء وجهيْ الخادمتين اللتين جاءتا لتجددا شرابه. بدتا

على خطٍ فاصل بين الهلع والضحك. فاجأهما هذا الصراخ العالي الذي رددت جدران الغرفة الواسعة صداه فبدا أعلى، وربما سرهما أن تريا السراسنة الثقلاء الذين دنسوا الحرم الرسولي في هذا الوضع من الشقاق، ولكن وجهيهما اختفيا عن ناظري عندما غشيتني غمامة سوداء وشعرت أني أفقد وعيي. أفلت السلطان رأسي فارتطم صدغي بالأرض، وشعرت أن قطعة سني الكسيرة تنغرس في لحم خدي والطنين يبتلع كل روما التي حولي.

في قاعة طعام الحاشية أخبرني مراد أن قطعة القماش المبتل المحشورة في أنفي لإيقاف النزيف يجب أن تقابلها قطعة أخرى بالحجم نفسه حتى لا يبرأ أنفي على اعوجاج. وقال:

- هل تشمّ؟

استنشقت الحساء الذي أمامي ولم أستطع تمييز رائحته.

- لا.

- هذا حظٌ جيد. فالحساء زنخ.

قال ذلك ورفع وعاءه إلى فمه. غطى الوعاء نصف وجهه وبدت عيناه من فوق قوس الوعاء وقد انطفأت إحداهما وغارت في المحجر وظل جفنه يرتعش بطفافة لا إرادية، وكأنه يتساءل عما حل بالعين التي كان يغطيها. شعرت أني محظوظ فعلاً كما قال مراد إذ احتفظت بعينيّ وإن صار أنفي مكسوراً. كم كان ممكناً أن أتعرض لمصيره ويقتلع السلطان عيني مثلما فعل به.

وضع مراد وعاء الحساء ولم يبق فيه إلا القليل. بدت على وجهه ملامح الرضا التي لا تكاد تزول عنه. دائماً مراد راضٍ عن كل شيء مهما حلّ به، وهو الآن يراقب بعينه السليمة الخادم الذي يوزع الخبز وهو يقترب منا. تحركت أصابعه وكأنها تتحفز للقبض على الرغيف الطازج الذي لا أشم رائحته، وعندما أصبح بين يديه قال:

- ألم تقل لي إنه عاقبك بالفعل عندما عدت إليه في بورغينيف؟ ما الذي أغضبه مرة أخرى بعد كل هذا السنوات؟

- لأنه مجنون!

رفع مراد رأسه بحذر ثم حركه يمنة ويسرة وقال:

- عيب. احذر. لا تقل مثل هذا.

- كلنا يعرف أنه مجنون. الفاتيكان يعلمون أنه مجنون. لماذا تظنهم منعوه من الخروج؟ حتى جياده يمتطيها داخل الإسطبل، ولذلك لم يبق له ما يتسلى به سوى نحن. يضرب الرجال ويضاجع النساء.

- قد يتغير كل شيء يا جرما. لا تتسرع في أحكامك. انظر كيف تغيرت أشياء كثيرة في السنوات التي قضيتها معه. من رودس إلى بورغنيف إلى روما. من يدري.

- لم يتغير شيء. نقّلوه من سجنٍ لآخر ونحن في معيته.

- أنت غاضب ولا شك يا جرما. أنفك يؤلمك وقلبك أيضاً، ولكن صدقني هذا السلطان طيب القلب. سوف يعوضك حتماً عندما تهدأ ثورته. هذا ما فعله معي.

- ماذا فعل معك؟

- أعطاني نقوداً

- وماذا ستفعل بهذه النقود؟ هل تستطيع أن تشتري عيناً أخرى.

- أوه لا طبعاً. عين أخرى؟ ههههه. أنت تمزح. إنها أقل من أشتري بها أي شيء، ولكن أنت تعلم أنه كان من الممكن أن يرفسني حمار في وجهي وأفقد عيني بلا مقابل.

- ماذا يعني هذا؟

- أعني أن هناك فرقاً ما بين أن تفقد عينك بركلة سلطان أو رفسة حمار.

قال ذلك وكسر رغيفه إلى قطع صغيرة ونثرها فوق ما تبقى من الحساء. تأملته باشمئزاز أفقدني شهيتي التي لم تكن بالغة أساسا. لماذا لا يريد مراد أن يكره السلطان؟ لماذا لا يشتم الرجل الذي ركل وجهه حتى أفقده عينه مثلما تفعل أية ضحية سويّة؟ لماذا يبرر له كل شيء وكأن السلطان يسمع ما يقول ويعرف ما يبطن؟

غادرته دون أن أجيب عن سؤاله «إلى أين؟». خرجت من القاعة إلى الفناء إلى ساحة الفاتيكان الواسعة التي انتشرت فيها جموع المتهافتين عليها من أصقاع أوروبا. رحت أمشي بلا هدى وكلما نبض الألم في أنفي سالت دمعة. تجاوزت أبواب الفاتيكان وخضت أزقة روما لا أقرر الانعطاف يميناً أو يساراً إلا إذا بلغت آخر الطريق. تكررت علي الأزقة من فرط ما مشيت لا ألوي على شيء. كم مرة مشيت باكياً

يا جرما وأنت لا تعرف كيف تتخلص من أحمالك الثقيلة؟ كم مرة؟ كم مدينة؟ كم سفينة؟ ولا شيء يتغير في مصيرك التعس.

شعرت بمغص شديد. تحركت أمعائي فجأة فتسارعت خطاي بحثاً عن مكان أتغوط فيه. المسافة إلى سكني أبعد مما أحتمل، والأماكن التي حولي لا تبدو مناسبة في هذا الزحام الشديد الذي أحدثه الحجاج. ركضت باتجاه النهر وخضت فيه حتى بطني. ثم خلعت سروالي وتغوطت في المياه القذرة. شعرت لوهلة أني لا أسمع ولا أرى، وأن العالم من حولي تضاءل حتى لم يعد فيه سواي. رحت أمشي ببطء في عرض النهر لأنْظَف. مرت من أمامي جثة عنز نافقة تطفو على النهر. تقيأت، وبكيت.

مرت تسعة أيام لم أر فيها السلطان ولم يرني. أرسل في طلبي أثناءها مرتين فلم أستجب. أجل لم أستجب، واتتني هذه الجرأة بعد أن التقيت بفاشينو، القسيس الشاب من بولونيا الذي جاء ليتعلم الرسم في روما، وأيضاً لسبب آخر قدّره الرب. ليلتقي بجرما الحائر ويجعله رجلاً أقوى. وقفت خلفه وهو يرسم مع الآخرين الذين يحبون مراقبة الرسامين الهواة في الشوارع. وكعادة الغرباء حين يهتدون إلى بعضهم تحدثنا طويلاً وبهت عندما أخبرته أني لم أعترف قط.

- تعيش في الفاتيكان ولا تعترف!

أجبته بيديّ. حركتهما من أمامي كمن لا يحير جواباً. أطرقت وأنا أبتسم لعل لومه يصير مزحة، ولكن ملامحه لم تلن. جذبني من ذراعي

ومشى بي مبتعداً من الفاتيكان حتى وصلنا إلى كنيسة صغيرة لم تبد ككنيسة حتى دخلناها. طرق فاشينو الباب ففتح له شمّاس يافع. تركني وغاب في حجرة صغيرة ثم عاد مرتدياً زيّ القساوسة ثم قادني إلى مقصورة الاعتراف. سكتُّ طويلاً وأنا لا أدري ما أقول. فقال:

- ألا تعرف؟

- لا.

فبدأ يلقنني:

- قل: باركني يا أبتاه فقد أخطأت..

- باركني يا أبتاه فقد أخطأت..

- الآن قل ما تشاء..

شعرت بصوته يغوص عميقاً في قلبي. سالت دموعي وأسندت رأسي على المقصورة الخشبية التي تحول بينه وبينه. ثم قلت:

- باركني يا أبتاه فقد أخطأت، ولم أعترف من قبل، وهذه هي ذنوبي.

سكتّ وشعرت بدموعي تتجمع في عيني ببطء. قال:

- قل ما تشاء. أنت بين يدي الرب، وهو يسمعك الآن.

تنفست قليلاً وسالت دموعي وأنا أقول:

- مخلصنا. لقد كرهت من أمرتنا بحبه وأحببت من أمرتنا بكرهه. أطعتُ من أوصيتنا بمعصيته، وعصيتُ من أوصيتنا بطاعته.

سكت وبدأت أبكي. استحثني فاشينو فأكملت:

- دخلت الدير وتركته. آمنت بالرب وخذلته، ولكن ماذا كان بيدي؟ أنا رجلٌ فقير من حلب ألقت به الأقدار في طريق الترك فأخذوه إلى ما لا يريد وحملوه على ما لا يرغب، ولولا أني اهتديت إلى الدين القويم قبل أعوام وحملتني الأقدار الربانية إلى كرسيّ الرسول المبارك لما شعرت بذنبي ولا بلغت خلاصي ولا اعترفت إليك. لقد أطعت أبي والتحقت بخدمة الترك. ألم يوص بولس الرسول بأن نطيع والدينا في الرب؟ لقد تركت الدير وهجرت نذري ومشيت وراء الذهب والفضة. ألم يوص بولس الرسول أن نعيش في عوز؟

- هل انتهيت؟

- أجل.

- ليغفر لك ربنا يسوع المسيح. إني أعفيك من خطاياك بقدر ما وهبني مخلصنا من قوة وبقدر ما لديك من احتياج. باسم الرب والابن والروح القدس. آمين.

٥٠

بعد أن اعترفتُ قرر الرب أن يقبض روح البابا، فرقد أخيراً على رجاء القيامة والحياة الأبدية في الأحضان السماوية بعد أن ظل طريح الفراش لأيامٍ امتلأت فيها أرجاء روما بالشائعات. أيكون قد مات أم ما زال يتأرجح بين الحياة والموت؟ ألم يشع قبل سنوات أنه مات ثم عاد إلى الحياة مثل يسوع جديد؟ لقد ظل مريضاً طيلة جلوسه على الكرسيّ يترقب الناس موته في أي يوم. ولكنهم أخيراً قربوا الشمعة من أنفه فلم تتحرك، وطرقوا رأسه طرقات خفيفة بالمطرقة الصغيرة فلم ينتبه، ونادوا اسمه المعمودي ثلاثاً فلم يجب. فأعلن الكاردينال بورجا وفاته وتلوا معاً من أجله مزمور التوبة: «من الأعماق صرخت إليك يا ربّ. يا ربّ أسمع صوتي. لتصغ أذناك إلى صوت تضرعي. إن كنت تراقب الآثام يا رب، يا سيد، فمن يقف بريئاً؟ لكنك تغفر لنا، فنخافك. أنتظر الربّ، تنتظره نفسي، وأرجو كلمته. ترجو نفسي الربّ أكثر مما يرجو الحراس طلوع الفجر».

وبالطبع لم أكن معهم. علمت بموته كما علم الجميع عندما دقت أجراس كاتدرائية بطرس الرسول مع بعضها بلا توقف. ولكن فاشينو أخبرني ونحن نصطف مع الجموع في انتظار دورنا لرؤية الجسد المسجى في الكاتدرائية أن هذا ما يفعلونه بكل بابا يحل أجله. تأملت

وجهه الذي نحل كثيراً عن أول مرة رأيته فيها. البابا الذي كلمني أمسى لا يكلم أحداً. غمست يدي في إناء الماء المقدس ونثرت القطرات على جسده، وانحنيت لأقبل خاتم صياد السمك الذي أعادوا تثبيته في إصبعه النحيلة بحشر قطعة من القماش في حلقته.

أكملت بكائي وأنا جالس على عتبة الكاتدرائية أراقب المارة أمامها وأنتظر خروج فاشينو. عندما وافاني لاحظ احمرار عيني واكتظاظهما بالدموع، فجلس إلى جواري وراح يمسح على ظهري بلطف. قلت له:

- أشعر بالخوف يا أبتاه. لقد كان البابا رحيماً ورؤوفاً بنا. قد لا يعاملنا خَلَفُه كذلك. لقد زرت الكثير من بيوت الكرادلة مع السلطان ولا أحد يكن له أي ود. سينتخبون أحدهم ليجلس على الكرسي الرسولي قريباً. ماذا سيحل بنا؟

- تقصد ماذا سيحل به وحده. ما شأنك أنت؟

- أنا معه.

- ولماذا أنت معه؟

- ما بك يا أبتاه. إنه رب عمليّ. أنا ترجمانه.

- ولماذا أنت ترجمانه؟ تستطيع أن تجد عملاً غير ذلك.

- لن يدعني وشأني هذا المجنون!

- ألم تقل لي إنه هو نفسه لا يخرج إلا بإذن البابا؟

- نعم، بالتأكيد.

- هو أسير إذن.

– نعم. ألا تعرف هذا؟

– وأنت أسير عند أسير؟

بدت العبارة غريبة حتى أن شككت في فهمي للهجته الشمالية، ولذلك كررتها عليه وكأني أتثبت مما سمعت:

– أسيرٌ عند أسير؟

– هذا ما أظن.

ثم أردف ضاحكاً:

– وهو شيء مضحك. ألا تجد ذلك مضحكاً؟

– أجده مبكياً يا أبتاه.

– وما الذي يضطرك لهذا. قلت لك تستطيع أن تجد عملاً آخر مع كل هذه اللغات التي تتحدثها.

– ما الذي يضطرني لهذا؟

– بل ما الذي يضطرك للعمل مع هذا الرجل؟

– لست مضطراً. أو أني لا أعلم. ماذا تريد أن تقول: أتركه فحسب؟ ماذا لو شكاني للبابا الجديد؟

– يشكوك للبابا لأنك لا تريد أن تعمل معه؟ هل تظن البابا، أي بابا كان، يجبر مسيحياً على العمل تحت إمرة كافر؟

بدت لي عبارته الأخيرة مثل قنديل اشتعل فجأة في حجرة حالكة السواد. توقفت عن المشي والتفت جهته وقبضت بيدي على كتفيه ونظرت في وجهه مباشرة وبقيت صامتاً فابتسم سعيداً بما نبهني إليه. قلت:

- ماذا أفعل؟

- لا تفعل شيئاً. لا تعد إليه. اسكن معي إن شئت.

- لا، لا. لا يبدو ذلك مريحاً. لقد تركته مرة فخطفني الفرسان وأعادوني إليه.

- لا يوجد فرسان هنا. أنت خارج سلطتهم.

- ولقد كانت سرقوسة خارج سلطتهم أيضاً. أنت لا تعرف ما يمكن أن يفعله هذا السلطان بأمواله. قد يستأجر قاتلاً لقتلي.

سكت فاشينو قليلاً وهرش رأسه وهو يفكر قبل أن يقول:

- حسناً. إذن، ما رأيك أن تنتظر حتى يختاروا البابا الجديد وتكتب له رسالة؟

- أكتب رسالة؟ هل هذا ممكن؟

- أجل. رسالة، ورقة وحبر وقلم. ثم تكون لديك رسالة.

- ومن أكون أنا ليقرأ البابا رسائلي؟

- كل المسيحيين يكتبون إلى البابا، وكلهم يتلقون جواباً منه، لاسيما في أيامه الأولى.

- ولكني لا أعرف ماذا أكتب.

- لا تهتم. سأكتب لك.

قضيت تلك الليلة في بيت فاشينو وكأني أجرب تأثير غيابي على السلطان. ولأنه كان شديد الثقة من قرب خلاصي حدثني كثيراً عن بولونيا وجاراتها، وأني يجب أن أتجه شمالاً بدلاً من أن أعود أدراجي شرقاً. قال:

- إذا أتقنت ترجمة الكتب التي ترد من قرطبة وباريس ستجني الكثير من الأموال في بولونيا، وستكون في أفضل حال.

- أظنني قضيت سنوات من الترحال لأقول لك بكل يقين إنه لا يكون المرء في أفضل حال سوى في وطنه.

- مثل هذا الكلام لا يصلح للجدل. لن أعترض على هذا ولكن سأقترح عليك أن تزور بولونيا قبل أن تموت. اذهب إلى الشرق وامكث مع أهلك ما شئت ثم عد إلى هنا.

- قد أعود إلى حلب ولا أجد فيها أحداً. تركت أبي وهو مسنّ ولا أظنه على قيد الحياة حتى الآن.

- ولماذا تريد أن تعود إذن؟

- لا أدري. شيء ما يجذبني إلى حلب وكأني خلفت ورائي أبواباً مشرعة لا بد أن أعود لأوصدها.

- أظنك ترغب في العودة ليرى الناس أنك قد صرت أفضل مما كنت.

- ربما كان رأيك سديداً لو أني صرت أفضل فعلاً. لقد غادرت حلب وفي جيبي القليل من النقود والثياب. والآن لا أملك سوى ثيابي فقط.

- يا عزيزي جرمانوس. نقودك في عقلك. في كل ما رأيت وسمعت. سوف تكتب كتاباً يوماً ما مثل كتب الحجاج العائدين من الديار المقدسة وسيقرؤه الناس بدهشة.

فكرت قبل أن أغمض عيني لأنام في هذا الكتاب واسترجعت ما مرّ بي طيلة السنوات التي مضت مذ غادرت حلب أول مرة. يا إلهي. لقد مررت بالكثير فعلاً مما قد يولد أهل حلب ويموتون ولم يمروا بمثله. جرما في رودس وصقلية وفرنسا وروما. بأي لغة سأكتبه؟ ربما أكتبه بعدة لغات وأبيعه للكتبيين في كل مكان. يمر بك أصدقاء مثل مراد يجعلونك ترى الحياة أضيق من حلقة خاتم، ويمر بك آخرون مثل فاشينو يجعلون الحياة تبدو أرحب من خيالي نفسه.

مكتبة
t.me/t_pdf

٥١

بعد أيام من توديع البابا الراحل، بدأ الكرادلة في التحضير لانتخاب البابا الجديد. أغلقت أبواب الفاتيكان عليهم فلا يعلمون ما يحدث خارجه ولا نعلم ما يحدث داخله. وبعد أسبوع، أشرعت الأبواب، وتهافت الناس لرؤية البابا الجديد. ومعهم كنت أنا في توق لرؤية البابا الذي سأكتب له أخيراً كما قال لي فاشينو. عن بعد، رأيته جالساً على كرسيه المحمول فوق الأكتاف. اخترقت الصفوف ودافعت الناس لأقترب منه، و.. يا إلهي!

إنه الكاردينال بورجا!

الكاردينال الذي قرّب لي كرسياً لأجلس بين السلطان والبابا السابق. الكاردينال الطيب الذي وضع يده على كتفي يوماً وقال لي كيف أحمي السلطان من غوغاء الشوارع. لقد أصبح نائب الله في الأرض. هل سيصدقني أحد لو أخبرته أن البابا أحضر لي كرسياً؟ بالتأكيد لن يصدقني أحد. ولكن لا يهمني أن يصدقني أحد. يهمني ألا يكون قد نسيني. يهمني أن يتذكرني جيداً عندما يقرأ رسالتي فيحررني من هذا الأسر كما سماه فاشينو.

في الصباح التالي أحضرت لفاشينو ورقة من أجود أوراق الفاتيكان التي يكتب عليها السلطان رسائله التي لا تصل. جلست وإياه في

المكان الذي يرسم فيه. قَلَب الحامل الخشبي الذي يضع عليه لوحاته وثنى قوائمها فتحولت إلى طاولة وسط استغرابي. فضحك وهو يقول:

- كلما فعلت ذلك تأملني الناس باستغراب وكأنه عمل شيطاني.

- الحق أني لم أر شيئاً كهذا!

- أشياء كثيرة في الشمال لم تروها بعد. لو بقيت هنا حال عودتي سآخذك معي. سترى أموراً عجيبة وآلات حديثة.

- أوه يا صديقي! كل ما أريده هو أن أعود إلى حلب.

- حسناً يا صديقي. هيا بنا نكتب لك ما يعيدك إلى حلب.

غمس فاشينو قلمه في محبرته وكتب وكأنه ينسخ ما في قلبي تماماً دون أن أبوح به:

«صاحب القداسة. انقطع بي الطريق وأريد العودة إلى حلب. أريد أن تعطيني الفرصة لأعلمهم الدين الصحيح، وأريد أن يعتنق أبي الدين القويم قبل أن يموت ليتمّ له الخلاص على يدي مخلصنا الأعظم، وأريد أن أتزوج وأنجب أبناءً لا شائبة في دينهم ولا هرطقة، وأريد أن أستعيد حياتي التي سلبت مني، وحريتي التي استباحها السراسنة. إن صاحب القداسة لا يرضى أن يكون المسيحيون أسرى في بلاد بعيدة، فكيف بالأسير لديهم أقرب شيء من ضريح بطرس الرسول؟ أعد لي حريتي وقراري. احمني من الأشرار الذين أخبئ منهم صليبي، وأستر عنهم صلواتي. إنها فرصتي الأخيرة، ولو غادروا حماك المكين فإني هالكٌ لا محالة»

- يا إلهي! كم هو كلامك مؤثر وبليغ!

- أتمنى أن يضيء الرب طريقك بكلماتي. سأكون سعيداً بذلك طوال عمري يا جرما.

- ما رأيك لو كتبت في الرسالة أنهم يجبرونني على اعتناق دينهم؟ هل تظن هذا يثير حفيظة البابا ويدفعه لتخليصي منهم؟

- ماذا تقول يا جرما؟

- أجل أجل. قل إنهم كسروا صليبي. سرقوا تمثال العذراء. ما رأيك؟

ابتسم فاشينو ابتسامة لوم وقال:

- عزيزي جرما. هل تريد أن تكذب على نائب الرب على الأرض؟ ألم تعترف أمس فقط وتطهر نفسك من الذنوب، والآن تريدني أن أكتب الأكاذيب على أوراق الفاتيكان؟

- أوه. أوه. لا لا. ما أغباني. لا بالتأكيد. أكذب على البابا؟ هذا يجعلني أول ضيوف الجحيم.

ربت فاشينو على كتفي وقال:

- الرب يقول لنا: اطرحوا عنكم الكذب وتكلموا بالصدق. الرب يقول لنا: شفة الصدق تثبت إلى الأبد، ولسان الكذب إنما هو طرفة عين.

- إنني خائف يا صديقي. هذا كل شيء.

- لا تخف. لن يخذلك الرب ولن يخذلك نائبه.

وبالفعل، كما تنبأ فاشينو، أضاء الرب طريق الرسالة إلى البابا، وأتمنى أن يضيء طريقي الطويل هذا من روما إلى حلب على متن هذه الحملة البابوية إلى البندقية. لا أجمل من أن تكون حراً سوى أن تكون حراً وفي جيبك رسالة أمان من البابا تقطع بها الأراضي المسيحية بلا خوف، وتركب السفن المسيحية بلا أجرة، وتسكن بها في الكنائس والأديار بلا مقابل، وفوق هذا كله معك أكياس من النقود نصفها لك، ونصفها لجهود التبشير في المشرق مع رسالة ثمينة من البابا. أشعر أني خفيف كطائر، وللبغل الذي تحتي أجنحة، وللسماء التي فوقي أبواب، وللطريق الذي أمامي حكاياتٌ جميلة تنتظرني على الطرف الآخر من هذا البحر.

قبل الرحيل بوقتٍ قصير جداً. أعني قبل أن أنتعل حذائي. دخلت على السلطان في غرفته. ابتسمت ابتسامة لم ير أوسع منها على وجهي من قبل. رفع بصره إلي وبدا مترقباً وأنا أرتدي كل هذا الملابس الجديدة:

- أيها السلطان جم. سأسافر بعد قليل. أردت أن أودعك.

بدا وأن كلماتي استغرقت وقتاً أطول من المعتاد وهي تغوص في أذنيه ببطء شديد في طريقها إلى عقله إذ انقضت هنيهة قبل أن تبدأ ملامح وجهه في التغيّر فعلاً. اتسعت عيناه قليلاً ثم رفّ جفناه، ثم دار بعنقه لينظر إلى الفراغ الذي بجانبي قبل أن يعود إلى النظر في وجهي مرة أخرى، ثم انبلجت شفتاه ببطء شديد وقد التصقتا ببعضهما شأن الفم الجاف من الخمر والصامت عن الكلام منذ ساعات:

- تسافر؟

هززت رأسي عدة مرات وأنا أغمض عينيّ بيقين وأبتسم بسعادة. ثم فتحتهما لأجده قد سحب قدمه التي يجلس عليها من تحته ووضعها على الأرض بجوار قدمه الأخرى، واعتدل في جلسته، ومدّ ذراعيه بامتداد مسندي الكرسي الذي يجلس عليه. أعني أنه جلس كما لو كان فوق عرش، وقال:

- تسافر إلى أين؟
- إلى بلدي. إلى حلب.
- ولكن لماذا؟
- ولكن لماذا أظلّ هنا؟

مال رأسه إلى الأمام، وسقطت نظراته، وانفرج فمه، واكتسى وجهه بالذهول، وبدا لوهلة أنه يحاول تجّرع حقيقة مرة، وهي فقدان السيطرة حتى على حاشيته وخدمه. لا أدري بم فكر؟ ربما فكر في أن الأمر إذا بلغ هذا الحد فربما تهجره نساؤه أيضاً ويتزوجن رجالاً آخرين، وعبيده لم يعد يملكهم ولا يستطيع بيعهم، وربما يستيقظ غداً فلا يجد خادماً يلبسه ثيابه ويعدّ له طعامه.

رفع رأسه وهزّه علامة الموافقة. فقط. هكذا دون أي فعلٍ آخر كنت أتوقعه منه. أن يغضب ويرميني بأقذع الألفاظ. أن يتقرب مني ويحاول إقناعي بالعدول عن رأيي. أن يسألني عن الذي جعلني قادراً على السفر. أن يبكي مثلاً ويقول إن لا قدرة له على الاستغناء عني. أن

يعدني بأموال طائلة إذا ما قُدِّر له أن يخرج من روما يوماً إلى مكان آخر، ولكنه لم يفعل أياً من هذا. لقد هزّ رأسه علامة الموافقة مثلما يفعل كل يوم عندما تسرد عليه الأخبار والقرارات التافهة. لقد وافق. لقد أبى إلا أن يكون فراقي عنه مشروطاً بموافقته. جئت لأشعره بسفري فقط لا أن أطلب موافقته، ولكنه وافق على كل حال!

وأخيراً، أنا في سفينةٍ تتجه شرقاً منذ سنواتٍ لا أعدّها. كل ما فيها من مشاقٍ ترهقني ومشاهد تزعجني وطعامٍ أبغضه صار مقبولاً. أنا مرحٌ بالفعل لأني المشرقيّ الوحيد على ظهر السفينة الذي هو عائدٌ إلى وطنه لا راحلٌ عنه في سفينة مليئة بكل أمم أوروبا. الألمان والبوهيميون. الإنجليز والهنغار. اللومبارد والسكلافونيون. الطليان والبنادقة. الفرانكيون والإنجليز. كلّ من لا يمكن لسفينةٍ أن تجمعهم على ظهرها إلا إذا خرجت من البندقيّة واتجهت نحو الديار المقدسة. هذا هو الحال الوحيد الذي يمكن أن يجمعهم الرب فيه، ومن بينهم جرما الذي لا ينتمي لأي منهم. يتبادل معهم أطراف الحديث. يقرع معهم بعض الكؤوس. يلعب بالأوراق المصوّرة. يرمي نرده ويخسر بعض المال.

أتراني اشتقت إلى حلب فعلاً أم أنه هواء الحرية الذي يملأ صدري والنقود التي تملأ جيبي؟ لا أعلم، ولكني مرحٌ حتى ظنوني مجنوناً في سفينةٍ ملأى بالبكاة الحزانى من اليهود والمسلمين الذي طُردوا من إسبانيا بلا متاع سوى الثياب التي يرتدونها، وبالحجّاج الولهين

الذين يقيمون الصلوات على ظهر السفينة كل وقتٍ حتى لا ينقطع بهم الطريق نحو مسقط رأس الرب، وبالتجّار القلقين الذين يُهرعون إلى باطن السفينة ليطمئنوا على بضائعهم كلما هاج البحر وعلت أمواجه وتسرب الماء إلى السفينة في حين أقف أنا في وجه الموج وأصلي فاتحاً ذراعيّ: «أعظّمك يا رب لأنك انتشلتني ولم تشمت بي أعدائي. أيها الرب إليك صرخت فشفيتني. يا رب من مثوى الأموات أصعدت نفسي، ومن بين الهابطين في الهاوية أحييتني. إلى رقصٍ حوَّلتَ ندبي وخلعتَ مسحي وبالسرور زنّرتني. لكي يعزف لك قلبي ولا يسكت أيها الرب إلهي. للأبد أحمدك».

محمد حسن علوان

الرياض ٢٠٢٠

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

telegram @t_pdf

جرما التّرجمان

أخرجت صليبي وتركته يتدلى من رقبتي بوضوح لعلي أكسب ود هذه القرية. تأملت وجوه الناس التي اتشحت بالاعتياد ولا تبدو كمن يرى أشياء جديدة كل يوم. إلى متى سأمكث في هذا المكان؟ تصاعد هذا السؤال في داخلي وأنا أتفحص كل ما حولي بعينٍ قلقة.

إنها قرية صغيرة لا تشبه حلب ولا الماغوصة ولا سرقوسة ولا أي مكانٍ عشت فيه من قبل. تبدو مثل حي واحد من تلك المدن يحيط بها سور من الأشجار الكبيرة. لماذا جلبوه إلى هنا؟ هل هذا سجنه الجديد؟ هل هذا سجننا الجديد؟ كيف يبدو المكان في الشتاء؟ وماذا يأكلون؟ وكيف سيكون تعاملهم معنا الآن وقد تحول الضيف إلى أسير؟

محمد حسن علوان

ISBN 978-603-8317-22-8
9 786038 317228

تَشْكِيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution
Tashkeell